ألوكارد

ما يبقى من الليل

رواية



رضا الحكيم الشعيري

ألوكارد

ما يبقى من الليل

رواية

رضا الحكيم الشعيري

الإهداء

إلى أهل الرباط، على وجه الخصوص،

إلى من يمنحون مدينتهم وجهها الإنساني، في البيوت والأزقة، وفي التحية العابرة، وفي المكان الذي يفسحونه للآخرين.

إليكم هذه الحكاية، بما فيها من خوف ومحبة، ومن أناس يحاولون أن يصونوا ما بقي لهم، وأن يتركوا لمن يأتي بعدهم حياة أرحب.

ولكل من جعل غريباً يشعر أن له مكاناً، لعل باباً في هذه الصفحات يفتح على شيء من كرمه.

المقدمة

تبدأ بعض الحكايات بما ينقص صاحبها. قوة لا يملكها، أو اسم يضيق به، أو سؤال كلما طرحه وجد من يطلب منه الانتظار. وقد يمضي وقت طويل قبل أن يدرك أن ما أخفاه الآخرون عنه كان يحدد مكانه بينهم، وأن حياته التي ظنها صغيرة تقع في قلب حكاية أكبر.

في هذه الرواية، يحمل ألوكارد عمره كما يحمل الناس أغراضهم في رحلة طويلة: يحفظ شيئاً بعناية، ويفقد شيئاً آخر، وينسى أين وضع ما يحتاج إليه في اللحظة نفسها. أردت أن يبقى قريباً من هذا الارتباك البشري، حتى حين تأخذه الحكاية إلى ما يتجاوز أعمار البشر. فالسنوات الكثيرة لا تمنح صاحبها جواباً جاهزاً، وقد تزيد ثقل سؤال بسيط: كيف نحمي من نحب من غير أن نختار حياتهم بالنيابة عنهم؟

تجري الأحداث في عالم متخيل، له قصباته ومدنه وعهوده القديمة، وتصل إليه أصوات من الحياة المغربية: عمل الحرفيين، وحركة الأسواق، وقلق البيوت على الغائبين، والألفة التي تتكون حول مائدة أو في ورشة. في هذا العالم يعيش مصاصو الدماء والمستذئبون إلى جوار

أناس يحتاجون إلى أجرة ودواء وطريق آمن للعودة. وما يحدث في القصور يبلغ هؤلاء أيضاً، ولو جاءهم في صورة باب مغلق أو اسم اختفى من دفتر.

تسأل الحكاية عمّا يفعله الخوف بالحب، وما تفعله السلطة بمن يظن أنه يستطيع استعمالها ثم إعادتها إلى موضعها. وتترك لشخصياتها أن تختلف وتخطئ، وأن تجد أحياناً في عمل صغير ما تعجز عنه الوعود الكبيرة. لذلك تبدو الأشياء العادية مهمة هنا: أداة يحملها صاحبها إلى العمل، وقطعة قماش يحتفظ بها أحدهم، ويد تمتد في الوقت المناسب.

أترك للقارئ أن يتعرف إلى هذه الوجوه، وأن يقترب منها بالقدر الذي تسمح به الحكاية. لكل منها ما يعرفه عن نفسه، وما سيكتشفه حين يضطر إلى الاختيار.

رضا الحكيم الشعيري

الجزء الأول

الدم الكامن

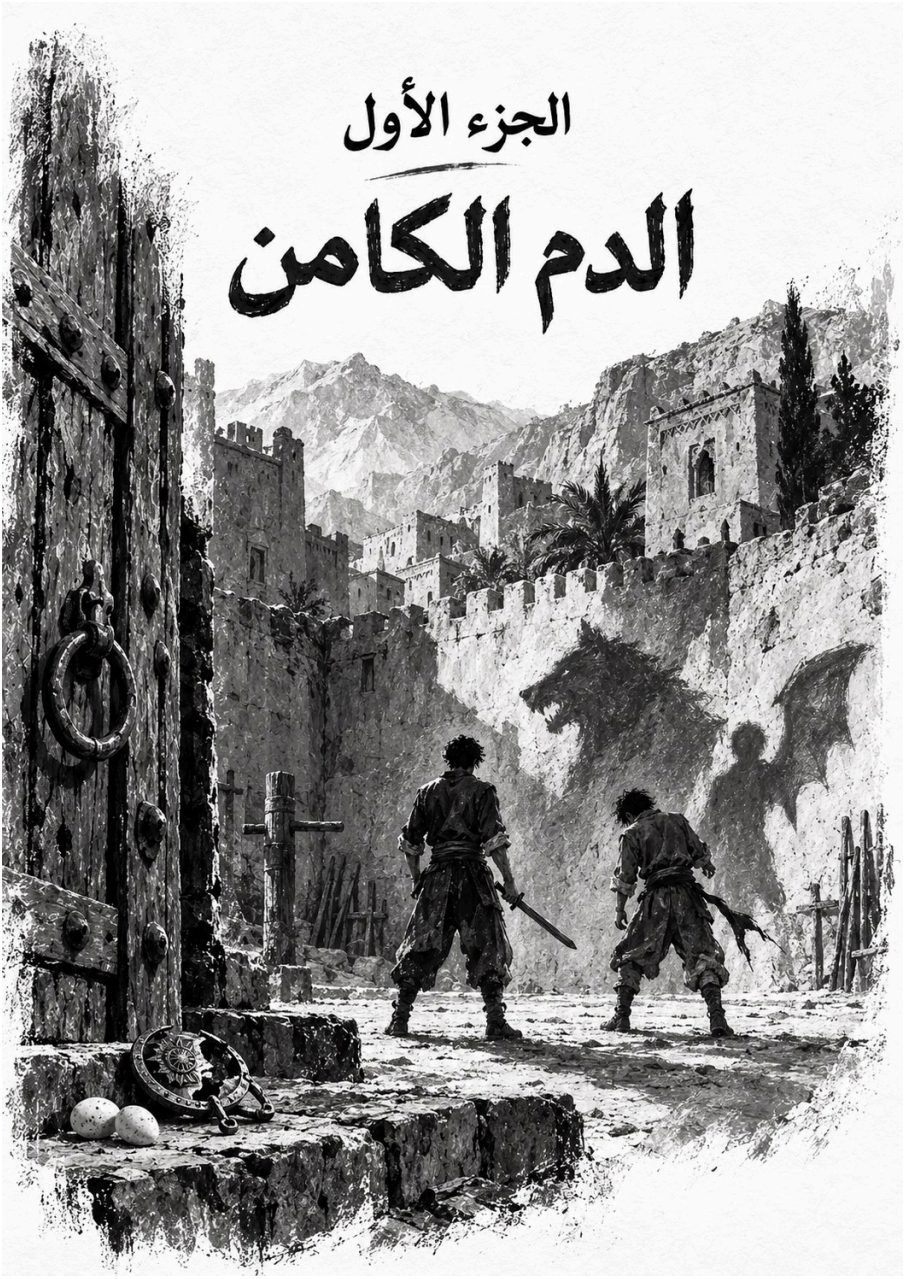

الفصل الأول

الأضعف

في الصباح الذي كسر فيه أخوه أنفه، كان ألوكارد قد سرق له بيضتين من المطبخ.

لفّهما في خرقة وأدخلهما في ثنية عباءته، ثم أمضى وقتاً يبحث عن حزامه، قبل أن يجده معلّقاً على مسمار في الإسطبل. لم يتذكر لماذا تركه هناك. كان يريد أن يسبق وارث إلى باب الساحة؛ أخوه لا يأكل قبل التدريب، ويعود منه جائعاً إلى حد يجعله يقتسم طعام الآخرين قبل أن يسألهم إن كانوا قد انتهوا. لكن قاسماً لمح ألوكارد يعبر الممر فأشار إليه بعصاه. حاول أن يتظاهر بأنه لم يرَ الإشارة، فسمع اسمه بصوت جعل الحصان القريب يرفع رأسه.

كانت ساحة القصبة رطبة من مطر الليل. عند الجدار وقف خمسة فتيان، أصغرهم يافع في السادسة عشرة، ظهرت على ذراعيه قبل أيام خشونة التحول الأول. رفعوا رؤوسهم حين دخل ابن الحاكم، ونظر أحدهم إلى حذائه؛ كان رباطه يجر وراءه. انحنى ألوكارد ليعقده،

فسقطت من كمه قطعة خشب صغيرة احتفظ بها لإصلاح نافذته. دحرجها بقدمه إلى الحائط، ثم خلع العباءة بعناية ووضعها فوق حجر.

في الحادية والعشرين، لم يعد قادراً على تصديق أن تأخر قوته أمر عادي. كان قد سمع ذلك حتى ملّه: بعض الأجساد تحتاج إلى وقت، وبعض أبناء البيوت الكبرى يتأخرون ثم يسبقون الجميع. كبر الفتيان الذين قالوا الكلام من أجلهم، وبدأوا يصعدون إلى الغابة في ليالي البدر، بينما بقي هو ينتظر شيئاً لا يحدث. جرح في إصبعه يظل أسبوعاً، والبرد يوقظه، وإذا انطفأ المصباح لم يستطع تمييز الأثاث في العتمة، فتعثر به؛ أما حليمة فكانت تصرّ على أن الثياب التي يتركها على الأرض هي ما يوقعه.

وقف وارث في وسط الساحة يشد رباط ساعده. كان أكبر منه بأربع سنوات، عريض المنكبين، وفي وجهه أثر نوم قصير. لمح الانتفاخ في العباءة، فابتسم لأخيه، ثم أخفى ابتسامته عندما أمر قاسم كليهما برفع السلاح. تناول ألوكارد السيف الخشبي ونفض عنه الطين. اقترب وارث بما يكفي ليذكّره بألّا يتراجع في خط مستقيم، فأجابه أنه لم ينسَ منذ الأمس. لم يكن يريد النصيحة أمام الفتيان، ووارث يعرف ذلك، لكنه لم يتعلم كيف يكف عنها.

بدأ النزال ببطء أغضبه أكثر مما أراحه. رأى كتف أخيه تسبق الضربة، والقدم تتأخر حتى تسمح له بالابتعاد. صاح قاسم يأمر وارث بالقتال، فاشتدت الحركات قليلاً. كان ألوكارد قد تمرن ليلاً بعصا مكنسة، يكرر حركة يلاحظها في أخيه: يثقل على قدمه اليمنى قبل الهجوم. انتظرها، وانزلق إلى الجانب، ولمس أضلاعه بطرف السيف. رأى الرضا في عيني وارث، واستقام من غير أن يستطيع منع ابتسامته.

قال أحد الواقفين إنهم يستطيعون جميعاً أن ينتصروا إذا تباطأ خصومهم هكذا. اندفع ألوكارد مرة ثانية قبل أن ينهي الفتى ضحكته، يريد ضربة لا يملك أحد أن يشكك فيها. دخل قريباً من أخيه، وتلقى قبضة في وجهه أعادته إلى ركبتيه. لم يرَ اليد؛ رأى وجه وارث فجأة فوقه، ثم الأرض، ثم قطرات دم تقع على الطين. أبعد الذراع التي امتدت لمساعدته ونهض وحده. كان الألم محتملاً حتى سمع قاسماً يقول إن الحاكم كان محقاً في تجنيبه المسير.

جمع عباءته وغادر قبل أن يسمع البقية. عند باب المطبخ، اكتشف أن إحدى البيضتين انكسرت. نزع القشر عن الصفار المهروس ولف الخرقة من جديد، كأن إخفاءها سيصلح شيئاً. أجلسته حليمة قرب الفرن، وأمسكت وجهه بين كفيها، ثم أعادت أنفه إلى موضعه بحركة سريعة جعلته يسب. قالت إنه يستطيع شتمها بعد أن يتوقف عن تلطيخ

أرضها، وناولته القماش. لم تسأله من ضربه. كانت تعرف الساحة وما تفعله بالأولاد الذين يأتون منها.

دخل وارث يحمل البيضة السليمة. جلس على مقعد قصير وفرك الدم اليابس عن يده. قال إنه لم يقصد وجهه، وإن ألوكارد يعرف أن الاقتراب بهذه الطريقة يجعله عرضة للقبضة. وحين لم يجبه، أضاف: «أصبتني مرة وكان يكفي. ثم سمعت ضحكة فنسيت كل ما تعرفه. لا أستطيع تدريبك إذا كنت تقاتل الواقفين حولنا أيضاً.»

أبعد ألوكارد القماش عن فمه. «أنت تخرج من الساحة حين ينتهي التدريب. أما أنا فيحملونها معي إلى الطعام، وإلى الإسطبل، وإلى مجلس أبي. كل واحد يجد شيئاً يذكّرني به. حتى الصغير الذي لا يستطيع شد حزامه ينظر إليّ كأنه ينتظر أن يكبر كي يصير حارسي.» كان في صوته تعب لم يرده، فخفض عينيه إلى يديه. لم يكن يريد أن يشفق وارث عليه؛ أراده فقط أن يجلس قليلاً من دون أن يشرح له ما أخطأ فيه.

قشّر وارث البيضة وقسمها، ووضع النصف الأكبر أمامه. بقيت حليمة تعمل قريباً منهما وتتظاهر بأنها لا تسمع. وبعد صمت، قال وارث إنه سيتحدث إلى أبيهما عن المسير المقبل. هز ألوكارد رأسه؛ لا يريد أن يطلب له الإذن، بل أن يكف عن الوقوف إلى جانب أبيه

حين يمنعه. ابتلع وارث نصيبه قبل أن يجيبه: «إذا خرجتَ، فلن أستطيع أن أبقى قربك طوال الوقت. يجب أن تعرف ذلك قبل أن توافق.»

في الخارج، ارتفعت أصوات العمال وهم ينزلون أخشاباً من عربة. طلبت حليمة من ألوكارد إيصال سجل الدقيق إلى المخزن قبل أن يضيع منها بين يديه. أخذ السجل بامتعاض مصطنع، ثم عاد بعد لحظات ليسأل أين وضعته. وجده وارث تحت عباءته، فضحك رغم محاولته التماسك. ضحك ألوكارد معه، فآلمه أنفه، وازداد ضحك أخيه حتى رمت حليمة نحوهما قشرة بصلة وطردتهما من المطبخ.

كانت تازرون ترتفع على كتف صخري فوق وادٍ تشقه ساقية قديمة. حول القصبة بيوت للحرس والصناع، ثم سوق تتجمع فيه قوافل الزيت والصوف قبل الصعود إلى الجبل. حكم أبوهم، رافع، الممرات الغربية باسم العشائر التي بايعته. يدفع التجار رسماً مقابل الحماية، ويقولون إن رجال تازرون يستطيعون شم نار أُطفئت قبل يومين. عاش البشر في ظل السور منذ أجيال، يعرفون سادتهم ويتركون لهم الجبل في ليالي اكتمال القمر. أما داخل السوق، فكانت الحياة تجري بما تحتاجه الحياة: امرأة تساوم على الملح، وحمار يرفض الحركة، وصبي يركض وراء رغيف سقط من سلته.

أحب ألوكارد النزول إلى هناك لأنه يستطيع أن يبقى ساعة كاملة من غير أن يُطلب منه إظهار مخالبه. كان عمّار، صانع السروج، يعهد إليه بأعمال صغيرة ثم يعيد بعضها بعد انصرافه. عرف ألوكارد ذلك من الثقوب التي تختفي في اليوم التالي، لكنه يفضّل هذا الرفق على رفق الساحة. في ظهيرة ذلك اليوم، وجد يونس ابن عمّار يقف فوق صندوق ليرفع مصراع الدكان. أمسك ألوكارد طرفه وساعده، ثم نسي سجل الدقيق على الرف وهو يجرّب إصلاح إبزيم مكسور.

دخل رجل من جباة القصبة وفي يده ورقة رسوم جديدة. لم يكن من العشيرة، لكنه تعلم كيف يستعير نبرتها. طالب عمّار بمال إضافي لحماية القوافل من الاعتداءات في الممر الشمالي. أجابه الصانع بأنه دفع، فأشار الرجل إلى ختم ثانٍ لا يشمله ما دفعه. ظل عمّار هادئاً، غير أن ألوكارد رأى يده ترتجف فوق الجلد، ورأى يونس يعود ببطء إلى زاوية الدكان.

طلب الورقة، فناولها الجابي له بعدما عرفه. كانت الرسوم مفروضة على العربات التجارية العابرة، وعمّار لا يملك عربة ولا يغادر السوق إلا ماشياً. أشار إلى العبارة، فاعتذر الرجل عن الالتباس، وأخذ يستعيد الورقة. أمسكها ألوكارد لحظة أطول، وسأله عن الدكاكين الأخرى التي جمع منها المال. تغير وجه الجابي، وقال إن هذا شأن صاحب

الختم. لم يرفع ألوكارد صوته، لكنه قرأ الاسم في أسفل الصفحة وحفظه: رجوان، رئيس عشيرة السهل، الذي وصل إلى القصبة قبل يومين.

دفع عمّار الورقة بعيداً بينهما، ورجا ألوكارد أن يتركه يتفاهم مع الرجل. انسحب الجابي ووعد بالعودة، لكن الصانع لم يبدُ مرتاحاً. قال وهو يضع الإبزيم جانباً: «أنت تصعد إلى بيتك، وأنا أبقى هنا. إن كان لك كلام فقلْه لمن أرسله. لا تجعلني أستقبل غضبه وحدي.» أحس ألوكارد بالخجل، ظن أنه أنصفه، ولم يفكر في اليوم التالي. وعده بأن يراجع الأمر، ثم صعد إلى القصبة يحمل ورقة نسخها بيده، وقد نسي سجل الدقيق مرة أخرى.

وجد أباه يستقبل رجوان في القاعة الصغرى. عند الباب، وقف وارث بين رجال المجلس، صامتاً وقد طوى يديه وراء ظهره. كان رجوان يطلب مزيداً من الرجال على الحدود، ويرى أن الهدنة مع سادة الليل صارت عبئاً. لم يُدعَ ألوكارد إلى الجلوس، لكنه دخل وقدم الورقة لأبيه. ساد صمت ضايقه أكثر من الاعتراض. قرأ رافع السطور، ثم سأل رجوان عن الرسوم. أجاب الرجل بأن صاحب الدكان ربما أساء الفهم، وأن الغاية جمع كلفة الحماية لا إرهاق الناس.

أعاد رافع الورقة إلى ابنه، وأمر الكاتب بمراجعة ما جُمع. لم يوبّخ رجوان، ولم يشكر ألوكارد. بعد انفضاض المجلس، استبقاه وقال إن الشكوى تُرفع إليه أولاً، لا أمام رئيس عشيرة في زيارة. كاد ألوكارد يسأله متى يجد وقتاً لا يكون فيه أحد جالساً إلى جانبه، لكنه ضبط نفسه وطالب بدخول المسير. نظر الأب إلى أنفه المتورم، فتمنى لو انتظر حتى يزول الأثر.

وقف وارث قرب النافذة ولم يتكلم. قال رافع إن اسمه لن يُدرج قبل أن يفحصه المعالج سليم، وإن الفحص سيكون خلال أيام. اعترض ألوكارد بأن المسير يبدأ بعد اكتمال القمر، وبأن المعالجين لم يمنحوه شيئاً غير الشراب المر. رد أبوه هذه المرة بحدة: «إذن يمكنك احتمال شراب آخر. لن أرسل ابني إلى الجبل كي أثبت لرجوان أن بيتي لا يخاف كلامه.»

خرج ألوكارد مقتنعاً بأن الموعد ذريعة جديدة. لحق به وارث عند الدرج، وأخبره أن سكوت أبيهما عن رجوان لا يعني موافقته. أجابه أن الشكوى ليست هي ما يشغله الآن. رفع وارث كفيه مستسلماً، ثم مد إليه سجل الدقيق؛ وجده مع يونس الذي أرسله أبوه راكضاً. أخذه ألوكارد وهو يسب ذاكرته، فعاد أخوه يضحك.

في غرفته، وضع السجل في موضع لن ينساه، ثم أمضى وقتاً يتذكر أنه يجب إيصاله إلى المخزن لا الاحتفاظ به. كانت على الفراش ثياب، وعلى الكرسي كتاب مفتوح وأداة لثقب الجلد، وتحت الوسادة رباط السيف الذي بحث عنه صباحاً. جمع الأشياء إلى جانب واحد وجلس. من النافذة رأى الفتيان يعودون إلى التدريب من تلقاء أنفسهم. لم ينزل إليهم. تناول صفحة مهملة ورسم فوقها مسار الجبل كما وصفه وارث مراراً. إذا جاء الإذن هذه السنة، أراد أن يعرف أين يضع قدميه، ولو لم يسمع أو يشم ما يسمعه ويشمه الآخرون.

الفصل الثاني

حكاية الأم

كان اسم أم وارث محفوراً فوق قبرها بحروف عميقة، وأمامه موضع يعرف البستاني أنه لا يُزرع. كلما زارها ابنها، وضع هناك ما حمله من أغصان الآس، وجلس وقتاً لا يدخل عليه أحد فيه. رآه ألوكارد ذات صباح ينفض التراب عن الحجر بكمه، فتوقف عند مدخل الحديقة ثم عاد. لم يكن يريد مشاركته الزيارة؛ أراد أن يعرف فقط أين يذهب المرء حين يريد أن يبقى قليلاً مع أمه.

أما أمه هو، فكانت قد ماتت بعيداً. هذه العبارة هي كل ما ثبت في الحكاية على مر السنين. مرة سمع أنها مرضت أثناء السفر، ومرة قالت خادمة قديمة إن الطريق أُغلق بعد الثلج فلم يصل الخبر إلا متأخراً. حين سأل أباه عن قبرها، أجابه بأنها دُفنت حيث ماتت، ثم أرسله إلى حليمة. ومع الوقت تعلّم ألا يسأل أمام الناس. لم يكن السؤال ممنوعاً صراحة، لكنه يفسد الوجوه والمجالس على نحو لا يفعله أي سؤال آخر.

بعد يومين من التدريب، كانت القصبة تستعد لاستقبال وفود العشائر قبيل المسير. نُفضت الزرابي في الفناء، وفُتحت صناديق النحاس، وأُخرجت من غرف التخزين أقمشة لا تظهر إلا في المناسبات. ساعد ألوكارد حليمة في نقل صندوق، لا حباً في العمل بل لأن قاسماً يبحث عمن يصلح مقابض السيوف. وما إن جلس حتى وجد نفسه مكلفاً بفصل ملاءات الضيوف عن ملاءات البيت. كان يقلبها بعجلة، ويضع كل ما يتشابه في كومة واحدة، إلى أن انتزعت حليمة من يده غطاء صغيراً ذا حافة زرقاء وطوته وحده.

سألها إن كان الغطاء له في طفولته. أجابت بأنه قديم، ثم واصلَت ترتيب الصندوق. كانت غرزة عند الزاوية قد انقطعت، فأمسك ألوكارد طرفها حتى لا تنسلّ. وجد تحتها حرفين صغيرين بخيط غامق. لم يستطع قراءتهما أول الأمر، وحين قرّب القماش من الضوء، سمع حليمة تقول اسم أمه، سيرين، كما لو أن الاسم كلمة عادية يمكن إخراجها من الفم بلا حذر.

جلس والغطاء في حجره. يعرف الاسم، لكنه لم يسمع أحداً ينطقه بهذه الألفة. سألها إن كانت عرفتها، فرفعت حليمة الصندوق إلى الطاولة بدل أن تجيبه. انتظر حتى انتهت، ثم أعاد السؤال بصوت لا يسمح بتجاهله. قالت إنها عرفتها وقتاً قصيراً، وإنها لم تكن تحب خياطة

الحواف المستقيمة. كانت تفك الغرزة إذا أخطأت ثم تعود فتخطئ في المكان نفسه، وتصر أن العيب في الإبرة. نظر إلى القماش وضحك، وفوجئ بأن حليمة تبتسم معه.

تشجّع فسأل عن وجهها، وعن صوتها، وعن الطعام الذي كانت تفضله. أجابته في أشياء وسكتت عن أخرى. كانت تحب السفر الخفيف ثم تحمل في النهاية أكثر مما يحتاج إليه المسافر، وتضع الكتاب في موضع لا يتوقعه أحد. مرة وجدته حليمة في صندوق التمر، وقالت سيرين إنها خبّأته من الرطوبة. استغرب ألوكارد أن تكون هذه التفاصيل موجودة طوال الوقت ولم يعطِه أحد منها شيئاً. مد أصابعه فوق الحرفين وشعر بغضب يصعب أن يوجهه إلى المرأة الجالسة أمامه.

قال: «كنتم تستطيعون أن تخبروني بهذا منذ سنوات. كلما سألتكم قلتم إنها امرأة طيبة وماتت. حتى الخيل نعرف عنها أكثر من ذلك.» وضعت حليمة الإبرة جانباً، وأجابته أنها لم تكن صاحبة القرار فيما يقال. أراد أن يسأل صاحب أي قرار، لكنها سبقته: «لا تجعلني أختار بين كلام أبيك وقلبك كل مرة. خذ الغطاء إن أردته، واترك لي هذا النهار أكمل فيه عملي.»

احتفظ به، ولم يجد أين يضعه. في غرفته جرّب الصندوق ثم الرف، وانتهى به الأمر إلى نشره فوق ظهر الكرسي، حيث يراه كلما دخل.

علق طرفه بمسمار بارز فتمزقت غرزة. أمضى نصف ساعة يصلحها بإبرة استعارها من حليمة، وكانت محاولته أسوأ من التمزق. حين جاء وارث، وجده يمسك القماش أمام وجهه كأنه يدرس خريطة. قال إن أمه كانت تستطيع شراء غطاء أفضل لو عرفت ما سيُفعل بهذا، فطلب منه ألوكارد أن يدعه وشأنه.

لم يفهم وارث ضيقه حتى رأى الحرفين. اقترب وجلس على حافة الفراش، وأخبره أنه يتذكر امرأة كانت تقيم في الجناح الغربي فترة من طفولته. لا يتذكر وجهها جيداً، بل رائحة صابون ومنديل مربوط حول رسغها. كان صغيراً، وكانت أمّه قد ماتت، فأخذ يتبع حليمة حيث تذهب. سمع مرة أباه يضحك من داخل ذلك الجناح، واستغرب الصوت لأنه لم يسمعه منذ زمن. لم يعرف يومها من المرأة، ولا لماذا توقفت الزيارات بعد ذلك.

قال ألوكارد إن أباهما أخبره بأن أمه لم تعش في القصبة. حرك وارث كتفيه؛ قد يكون خلط بين امرأة وأخرى، وذكريات الطفل ليست شهادة أمام مجلس. لكن ألوكارد تشبث بتلك اللمحة أكثر من جميع الأجوبة التي سمعها. سأل عن الجناح، فأشار وارث نحو غرب الفناء. كان الموضع الذي أُغلق بعد انهيار جزء من سقفه، وتراكمت أمام بابه ألواح وحجارة ظلت سنوات تنتظر الإصلاح.

في المساء، وجد أباه وحده في غرفة الحسابات، يحاول قراءة أرقام كتبها موظف بخط ضيق. أراد أن يبدأ بهدوء، فسأله عن الجابي، فأخبره رافع أن المال أُعيد إلى من أُخذ منه خطأ. ثم رآه يتردد، ووضع الورقة. قال ألوكارد إن حليمة أعطته غطاء لأمه، وإنه يريد أن يعرف أين عاشا معاً. تبدّل وجه الأب قليلاً، لكن صوته بقي ثابتاً وهو يسأله عمّا قالت حليمة بالضبط.

أغضبه السؤال. تحدث عن الغطاء والخياطة والكتاب في صندوق التمر، ثم أضاف أن وارث يتذكر امرأة في الجناح الغربي. نهض الأب إلى النافذة، ووقف هناك مدة جعلت ألوكارد يتوقع الطرد. وحين عاد، قال إن سيرين أقامت في القصبة فترة قصيرة، وإنه لم يرَ داعياً لذكرها حين كان ابنه صغيراً. كان في الجواب اعتراف بالخطأ من غير اعتذار، فلم يعرف ألوكارد كيف يتلقاه.

سأله أين ماتت. قال الأب إن الطريق إلى المكان لم يعد آمناً، وإنه لن يرسله إلى قبر في بلاد لا يعرفها كي يهدئ فضولاً. أجابه ألوكارد أن الأمر ليس فضولاً، وأنه لا يريد الرحيل غداً، يريد اسماً يستطيع أن يضعه إلى جانب اسمها. ظل رافع ينظر إلى يدي ابنه، إلى الخدش في إحداهما وأثر الخيط الأزرق على إصبعه، ثم قال: «أعرف أنك ترى في سكوتي قسوة. ليست كل الحكايات ملك من بقي حياً كي يرويها متى

شاء. أمك طلبت مني أشياء، ولم أنجح في حفظها كلها. دع لي ما بقي.»

خرج ألوكارد من الغرفة وفي صدره غضب لم يعد بسيطاً. لو صرخ أبوه لسهُل عليه اعتباره ظالماً. أما الحزن الذي رآه فقد جعله يشعر بأنه يطالب رجلاً جريحاً بفتح جرحه ليتحقق منه. لم يكن هذا عادلاً أيضاً؛ لم يختر أن يولد بعد نهاية حكاية الجميع، ثم يُطلب منه احترام أبواب لا يعرف ما وراءها.

على الدرج، التقى مرجانة، امرأة كانت تخدم ضيوف البيت منذ زمن. حملت شمعدانين، فتقدم لمساعدتها وسألها إن كانت تتذكر أمه. أبطأت خطوة، ثم قالت إنها لا تدخل في شؤون السادة. لم يُلحّ. حين أوصل الشمعدان إلى موضعه، اقتربت منه وهمست أن غرف الجناح الغربي لم تكن رطبة يوم أُغلقت، وأن إصلاح سقف صغير لا يحتاج إلى عشرين سنة. ثم ابتعدت كأنها ندمت قبل أن تنهي كلامها.

توجه إلى الفناء. كانت ألواح الباب واضحة من حيث وقف، وفي أعلاها شق يمر منه هواء يحمل رائحة غبار. لم يحاول الدخول. نظر فقط إلى ممر صغير يلتف خلف البئر، كان يعتقد أنه ينتهي عند جدار المخزن. عاد إلى غرفته ورسمه في الورقة نفسها التي رسم عليها طريق

المسير، ثم وضع الورقة داخل كتاب. وبعد لحظة، كتب اسم الكتاب على يده حتى لا يقضي الغد يبحث عنها.

في اليوم التالي، زار عمّار في السوق. شكره الصانع على إعادة الرسوم، وأعطاه حافظة جلدية صغيرة لأدواته، مقسمة إلى جيوب. قال إنه تعب من العثور على مساميره في كُمّ ألوكارد وعلى إبزيمه في صندوق الملح. راقت له الحافظة، فأخذ يرتب أغراضه فيها بحماس لم يتوقع عمّار أن يدوم. وفي أثناء ذلك، سأله إن كان يتذكر من يصلح أبواب الجناح الغربي. أجاب الصانع بأن النجار القديم مات، لكن مفاتيحه بقيت في مخزن الخدمة.

لم يسأل عمّار لماذا يريد أن يعرف. كان هذا أحد أسباب حب ألوكارد لدكانه؛ يستطيع أن يجلس فيه من غير أن يحوَّل كل سؤال إلى امتحان في الطاعة. ساعد يونس على تركيب عجلة لعبة، ثم اشترى خبزاً وتمراً لحليمة. حين وصل إليها، وجد المعالج سليم يشرب عند باب المطبخ، وحقيبة الجلد الطويلة موضوعة إلى جواره.

عرفه من زياراته القديمة، لكنه بدا الآن أكثر نحولاً، وفي شعره بياض كثير. رفع عينيه إلى ألوكارد وقال إنه كبر بما يكفي ليأتي وحده إلى الفحص، من غير أن يختبئ وراء برميل الزيت كما كان يفعل طفلاً. ضحكت حليمة، أما ألوكارد فتذكّر أنه لا يذكر شيئاً عن ذلك

البرميل. نظر إلى الحقيبة، فرأى طرف أنبوب زجاجي ملفوفاً في قماش. غابت رغبة استكشاف الجناح عن ذهنه مؤقتاً. غداً، على الأقل، قد يحصل على جواب يتعلق به مباشرة.

الفصل الثالث

الفحص

طلب المعالج من ألوكارد أن ينام جيداً وألّا يأكل قبل الفحص. نفّذ الشرط الثاني لأنه نسي موعد الإفطار، وخالف الأول لأنه ظل يبحث عن حافظة أدواته التي أهداها له عمّار. وجدها في الصباح داخل الحذاء الاحتياطي، حيث أخفاها من رطوبة الأرض ثم نسي. حملها إلى غرفة المعالج من غير حاجة، ووضعها على الطاولة قرب الموازين، فأبعدها سليم برفق وأشار إليه بالجلوس.

كانت الغرفة مطلة على فناء صغير لا يدخله أحد إلا من ممر المجلس. جُهزت بفراش منخفض، ومغسلة، وخزانة أدوية رائحتها خليط من المر والأعشاب اليابسة. جلس رافع قرب النافذة، كأنه جاء مصادفة وقرر البقاء. على الباب وقف حارس لم يعرف ألوكارد اسمه، وأغلقه بعد دخول المعالج. تضايق من هذا الترتيب، أراد أن يكون رجلاً يراجع معالجاً، فإذا به يعود إلى الطفل الذي يسمع الكبار يقررون ما يستطيع جسده احتماله.

بدأ سليم بأسئلة عن النوم والطعام والحمى القديمة. كتب الأجوبة في كراسة، واستعاد بعضها ليقارنها بما دوّنه في زيارة سابقة. سأل ألوكارد إن كان يسمع طنيناً أو يرى الأشياء أوضح في أوقات بعينها، وإن كانت روائح السوق تؤلمه. أجاب بالنفي، ثم اعترف بأنه يشم خبز حليمة من آخر الممر، فقال المعالج إن هذه موهبة يشترك فيها نصف رجال القصبة. ضحك ألوكارد، ولم يضحك أبوه.

فحص سليم عينيه في الضوء والظل، وقاس النبض، ثم طلب منه رفع أوزان متدرجة. كان ألوكارد قوياً بما يكفي لحمل كيس شعير، لكنه لم يستطع ثني قضيب نحاس ثناه وارث أمامه ذات مرة كأنه غصن طري. احمر وجهه من الجهد، فأمره المعالج بالتوقف. بعد ذلك خدش جلده خدشاً صغيراً، ومسح الدم وانتظر. بقي الأثر كما هو. لم يفاجئ هذا أحداً سوى ألوكارد، الذي اكتشف أنه كان يرجو في داخله أن تتغير الأمور لأنه هذه المرة تحت نظر رجل يعرف كيف يسأل الجسد.

استأذن سليم في أخذ قطرة على صفيحة زجاج. مد ألوكارد يده، لكن أباه سأل عن الحاجة إليها. قال المعالج إنه يريد فحص سرعة التخثر، وإن الحمى التي أصابته طفلاً ربما تركت أثراً لا يظهر بغير ذلك. اقترب رافع من الطاولة، وطلب أن يبقى كل ما يُؤخذ داخل الغرفة.

شعر ألوكارد بالإهانة نيابة عن الرجل أولاً، ثم استغرب أن سليم لم يعترض. أومأ كأنه سمع شرطاً معروفاً.

خرجت القطرة من إصبعه ثقيلة وداكنة، كما يخرج دم أي إنسان في الظل. وضع سليم الصفيحة تحت عدسة، ثم قطر عليها سائلاً صافياً من قنينة صغيرة. لم يحدث ما يستحق النظر، ومع ذلك انحنى أكثر. رأى ألوكارد يد المعالج تتوقف فوق الكراسة، ثم تعود إلى الصفيحة. مد رافع ذراعه وأبعد القنينة. لم يرفع صوته، لكنه قال إن القدر المأخوذ يكفي، وإنه لا يريد تجارب إضافية على ابنه.

نظر ألوكارد بينهما. قال إنه ليس غائباً، ويمكنهما شرح ما يريانه. أجابه سليم بأنه لا يملك نتيجة، وإن الاستعجال في تسمية ما لا يفهمه قد يضره أكثر من جهله. طلب منه أن يرتدي قميصه ويتمشى في الفناء حتى ينتهيا من مراجعة الأدوية. رفض ألوكارد أولاً؛ الفحص له، والأدوية سيدفعها في حلقه هو. وضع أبوه يده على الكراسة وقال إن عليهما مناقشة الحمى التي لا يتذكرها. لم يكن أمر الخروج قاسياً، لكنه كان نهائياً.

بقي خلف الباب مدة تكفي ليسمع عبارة واحدة من المعالج: «ما فعلته طوال هذه السنين أخّر السؤال، يا رافع، ولم يلغِه.» ثم انخفض الصوت. أراد ألوكارد أن يقرّب أذنه، لكنه رأى الحارس يتطلع إليه،

فابتعد إلى الفناء. جلس تحت شجرة ليمون، وحاول عصر قطرة أخرى من إصبعه. لم يخرج شيء. عض موضع الخدش من غير أن يفكر، ثم شعر بالسخف ومسحه في قميصه.

جاء وارث بعد وقت، وفي يده قوس يحتاج إلى وتر. سأل عن النتيجة، فأخبره بما جرى. استمع أخوه، ثم قال إن أباهم يبالغ في القلق لأن المعالجين يبالغون في التجريب. كان يتحدث بصبر، لكن ألوكارد رأى نظره يذهب إلى النافذة المغلقة. اقترح عليه أن يسأل أباه بنفسه، فأجاب وارث أنه سيفعل إن لزم الأمر، ولا يريد أن يتحول كل اختلاف في البيت إلى مجلس محاكمة.

خرج سليم ومعه كأسان من شراب بني. أعطاه أحدهما وقال إنه سيشرب منه ثلاثة أيام، ويعود بعد أسبوع لفحص آخر. سأل ألوكارد مباشرة إن كان يستطيع دخول المسير. أجاب المعالج بأن جسده لا يبدي الاستعداد الذي ينبغي، وإن المشي في الجبل ليس هو الخطر؛ الخطر أن يُجبر نفسه على ما لا يملك. وحين أصر على جواب واضح، قال سليم إنه لا يوصي بمشاركته هذه السنة.

شعر ألوكارد بأنه أُحضر إلى الغرفة ليُعطى الرفض في ثوب علم. دفع الكأس قليلاً، فسقطت منه قطرة على الطاولة. اعتذر للمعالج من غير أن ينظر إليه وخرج. لحقه وارث إلى الممر، وأمسك ذراعه قبل أن

يهبط الدرج. قال إن ثمة أعمالاً كثيرة يستطيع القيام بها من غير المسير، وإن أباه يمكن أن يعهد إليه بحسابات السوق أو إصلاح السواقي. انفلت ألوكارد منه: «أعرف. كلما طلبت مكاناً بينكم وجدتم لي مكاناً آخر. أنتم إلى الجبل وأنا إلى دفاتر الدقيق. ثم تقولون إنني أنا الذي أعزل نفسي.»

تغير وجه وارث. رد بأنه لا يحتقر العمل الذي يطعم الناس، وأن ألوكارد هو من يريد أن يجعل كل شيء اختباراً لقيمته. كان في قوله حق، لكن توقيته جعل سماعه مستحيلاً. تركه ألوكارد واقفاً ونزل إلى الإسطبل. أخذ يفرغ كيس التبن بعنف حتى عطس الحصان وابتعد عنه. جلس بعد ذلك فوق الكيس الفارغ، وشعر بالعرق يبرد على ظهره. لم يعد يعرف إن كان يريد التحول حقاً، أم يريد فقط نهاية للانتظار.

عند الغروب، عاد سليم إليه وحده. جلس على صندوق قديم، وسأل عن الحصان قبل أن يتحدث عن الفحص. قال إن الجسد قد يحمل أحوالاً لا تفسرها الكتب المتاحة، وإن عجزه عن إعطاء اسم لا يعني أنه يخفي علاجاً. صدقه ألوكارد في هذه العبارة، ولم يصدقه في بقية الصمت. سأله لماذا يخاف أبوه من قطرة دم، فظل المعالج يراقب

أذني الحصان وهما تتحركان، ثم أجاب بأن بعض الآباء يخشون معرفة ما لا يستطيعون تغييره.

قال ألوكارد: «وهل تخاف أنت أيضاً؟» ابتسم سليم ابتسامة متعبة، واعترف بأنه يخاف من اليقين السهل أكثر مما يخاف من المرض. أخرج شريطاً نظيفاً ولف إصبعه الذي عاد ينزف بعد احتكاكه بالتبن. أوصاه ألا يستخدم المسير عقاباً لجسده، وأن يمتنع عن ابتلاع أي دواء يعده بالقوة السريعة. كان هناك من يبيع هذه الأشياء للفتيان، وبعضهم يفقد عقله قبل أن يكتشف أنه اشترى ماءً مخلوطاً بالسم.

انصرف المعالج، وبقيت نصيحته في ذهن ألوكارد. لم تمنحه جواباً، لكنها حملت لأول مرة تحذيراً موجهاً إليه لا إلى أبيه. في طريقه إلى غرفته، مر بالفناء الصغير، فرأى خادم المعالج يغسل أدواته. على الطاولة صفيحة زجاج مكسورة، وفي حوض الماء لون خفيف. كان الأب قد أصر على إتلاف العينة. لم يحتج ألوكارد إلى سماع الأمر كي يعرفه، فقد رأى الحارس يحمل الكراسة إلى الداخل بدلاً من وضعها في حقيبة سليم.

في المساء، وصل رجوان إلى مائدة البيت من غير دعوة خاصة؛ كان مقامه بين رؤساء العشائر يسمح له بذلك. سأل عن الفحص أمام الآخرين، فضاق وجه رافع. أجابه بأن ابنه بخير، وانتهى الأمر. لم

يكتف رجوان، بل قال إنه سعيد لسماع ذلك لأن الغياب المتكرر عن المسير يفتح باب التأويل. وضع وارث ملعقته وتدخل: أخوه لا يحتاج إلى موافقة ضيوف البيت كي يتعافى. شكر ألوكارد أخاه في نفسه، ثم كره أنه احتاج إلى هذه الجملة أيضاً.

بعد الطعام، قصد غرفته وفتح حافظة عمّار. نقل إليها إبرة الخياطة وقطعة نحاس وريشة للكتابة، وترك جيباً صغيراً للمفتاح الذي لم يملكه بعد. كان قد قرر ألّا يسأل أباه عن الجناح مرة أخرى. الفحص أخبره بشيء واحد مؤكد: هناك أناس يعرفون عنه أكثر مما يعرف، ولن يعطوه تلك المعرفة لأنه طلبها بأدب. تناول الورقة التي رسم عليها الممر، ووجد أن الحبر الذي كتب به اسم الكتاب على كفه لم يزل تماماً. حكّه بإبهامه، ثم تركه. قد يحتاج إلى التذكير مرة أخرى.

الفصل الرابع

الموضع المحرّم

استعار ألوكارد مفاتيح مخزن الخدمة بحجة البحث عن مشبك نافذة. كان نصف ذلك صحيحاً؛ نافذته تحتاج إلى مشبك منذ الخريف، لكنه تعايش مع حجر يسند مصراعها كل ليلة. أعطاه النجار الجديد حلقة ثقيلة عليها مفاتيح لا يعرف أكثرها، وحذّره من خلطها. حملها ألوكارد كما يحمل وعداً يصعب الوفاء به، ثم نزع منها ثلاثة ظن أنها تناسب باب الجناح الغربي. وبعد قليل، أعادها جميعاً إلى الحلقة؛ لن يستطيع تمييزها مرة أخرى إذا فصلها.

انتظر حتى انشغل الفناء بتوزيع الفحم على غرف الضيوف. عبر الممر خلف البئر، كما رسمه، فوجد أنه لا ينتهي عند المخزن بل ينعطف إلى باب قصير غطته طبقة من الجص المتساقط. لم يكن مقفلاً. فتحه بصعوبة ودخل إلى ردهة تفوح منها رائحة خشب قديم. الضوء يأتي من شق في السقف، وتحت الشق حوض جاف تراكمت فيه أوراق حملتها

الريح. على الجدار آثار رفوف منزوعة، وفي الأرض بلاطات غير متشابهة؛ بعضها أخضر داكن وبعضها أبيض تشقق تحت الغبار.

أمضى وقتاً يجرب المفاتيح في الباب الداخلي. انزلق أحدها وجرح راحته، فلعن الحلقة كلها، ثم اكتشف أن المزلاج لا يحتاج إلى مفتاح من جهته. دفعه ففتح الباب على غرفة أصغر مما تخيل. لم يجد أثاثاً مغطى ولا مرآة غامضة ولا صندوقاً ينتظر منذ ولادته. وجد سريراً مفكوكاً، وجرتين، ومقعداً مكسوراً استُخدم فوقه وعاء لوضع الجص. شعر بخيبة تكاد تضحكه. كل هذه السنوات، والموضع الذي تخيله قلب السر أصبح مخزناً لما لا يريد أحد إصلاحه.

تحرك بين الأشياء بحذر، وأزاح قطعة قماش عن رف قصير. تحتها كتاب حسابات لا يخص أمه، وأجزاء من لعبة خشبية، وعلبة للخيوط فقدت غطاءها. عرف الخيط الأزرق في العلبة، لكنه لم يثق في المعرفة؛ كل خيط صار يشبه خيط الغطاء منذ رآه. أخذ بكرة صغيرة ثم أعادها. كان يخشى أن يخرج بحفنة أشياء لا تعني شيئاً، وأن يقضي بقية عمره يمنحها معنى لأنها الشيء الوحيد المتاح.

في الغرفة الثانية، رأى ما جعله يتوقف. خطّ صغير على الخشب عند ارتفاع كتفه، وتحته خطوط أقل ارتفاعاً، وبجانب أحدها اسم وارث. علامات نمو طفل، بقيت لأن أحداً لم يحتج إلى محوها. اقترب

ولمس أعمقها. تذكر وارث المرأة إذاً من مكان حقيقي. لم يختلق رائحة الصابون ولا الضحك. كان أخوه هنا، وأمه هنا، وأبوهما كان يجيء إلى هذه الغرفة قبل أن تصبح باباً لا ينبغي سؤاله عنه.

فتح نافذة صغيرة على فناء مستقل، فاندفع الضوء إلى الداخل. كانت في الفناء شجرة رمان يابسة، ومقعد تحطم طرفه. عند الجدار مجرى ماء مغطى ببلاطات قابلة للرفع، يصل إلى قناة الخدمة التي يعرفها قرب المطبخ. حمل بلاطة ووجد تحتها فراغاً يكفي لانحناء رجل. أدرك أن هذا الممر يتصل بالمخزن الخارجي، وأن من يعرفه يستطيع العبور إلى خلف الإسطبل من غير المرور بالفناء الرئيسي. لم ينزل إليه؛ أعاد البلاطة وواصل البحث بعينيه.

بين ظهر الرف والجدار، علقت ورقة طوتها الرطوبة. سحبها برفق فتمزق طرفها، وبقيت سطور من رسالة لم تحمل اسماً في أعلاها. قرأ فيها طلباً بإحضار كتب من مدينة غربية، وشكوى من نافذة لا تُغلق، ثم عبارة جعلته يقرأها مرتين: «دعه يأتِ إليّ حين يغضب. لا يستطيع الطفل أن يفهم أننا نخاف عليه إذا كان كل ما يراه هو باب مغلق.» لم يعرف أي طفل تقصد، لكنه رأى عند أسفل الورقة الحرفين اللذين عرفهما على الغطاء.

جلس على المقعد الوحيد السليم. ربما كتبت سيرين عن وارث، وربما عن طفل آخر؛ هو لم يكن يومئذ أكثر من رضيع، بحسب ما قيل له. راق له أن أمه فكرت في غضب طفل داخل هذا البيت، وأنها طلبت أن يُفتح له باب. شعر بقرب منها لم تمنحه الأخبار عن موتها. طوى الرسالة ووضعها في حافظة عمّار، ثم أعاد فتحها ليتأكد أن الورق لم يتكسر. وحين رفع رأسه، وجد وارث واقفاً عند المدخل.

لم يبدُ غاضباً أول الأمر. دخل ونظر إلى الغرفة كأنه يحاول مطابقة موضع بذكرى. مرر يده فوق الخطوط على الخشب، وابتسم ابتسامة صغيرة اختفت حين التفت إلى أخيه. قال إن النجار أخبره أين ذهب، وإن الحارس لاحظ فتح الباب. لم يسأله لماذا جاء؛ كان يعرف. سأله فقط إن وجد ما يبحث عنه. أخرج ألوكارد الرسالة وناولها له، فقرأها وارث ببطء، ثم أعادها من غير تعليق.

أشار ألوكارد إلى آثار النمو. «قلت إنك ربما خلطت الوجوه. لم تخلطها. كنت هنا، وهي كانت هنا. لماذا يخافون أن أعرف؟» أجابه وارث بأنه لا يعرف، وأن وجودها في الغرفة لا يثبت أكثر من وجودها. كان يحاول أن يبقى هادئاً، لكن صوت أخيه ارتفع، واتهمه بأنه يكرر إجابات الأب حتى حين يعرف أنها ناقصة. عندها أمسك

وارث ذراعه وطلب منه الخروج قبل أن يصل الحرس. انفلت ألوكارد بعنف، فاصطدم كتفه بالجدار.

تراجع وارث كمن تلقى صفعة. قال: «لم آتِ لأجرّك أمامهم. جئت قبلهم حتى لا يحدث ذلك. لكنك تريد مني أن أخالف أبي في كل شيء كي تصدق أنني معك.» ندم ألوكارد على حركته، ولم يجد صيغة للاعتذار لا تبدو استسلاماً. بقي لحظة يحدق في حافظة الجلد، ثم أخبره أنه سيغادر الغرفة إذا سمح له بالاحتفاظ بالرسالة. أجابه وارث بأنه ليس سجانه ولا صاحب الورقة.

عند الباب الخارجي، كان رافع ينتظرهما. لم يصرخ. أمر وارث بالذهاب إلى قاسم، ثم مد يده إلى ألوكارد طالباً ما أخذه. ناوله الرسالة بعد تردد. تغير وجه الأب حين رأى الخط، وأخذ يسند طرفها بإصبعيه حتى لا يتمزق. قرأ السطور مرة واحدة، ثم طواها بعناية تفوق عناية ابنه. قال إن بعض الأشياء تُترك في مواضعها لأنها تخص من غاب، فأجابه ألوكارد بأن الغائب أمه، وإنه لا يملك منها ما يخصه أصلاً.

فتح رافع فمه ثم أغلقه. للحظة خشي ألوكارد أن يصفعه؛ كان الغضب في وجهه واضحاً، لكنه انصرف إلى الباب والجدار والحارس البعيد. أمر بإغلاق الممر، ومنع دخول الجناح إلى أن تُفحص

أساساته. وحين بقي وحده مع ابنه، أعاد إليه الرسالة. كانت هذه الحركة غير متوقعة إلى حد جعل ألوكارد يمسكها بيدين. قال الأب: «احتفظ بها. ولكن لا تجعل كل باب مغلق تحدياً لك. في هذا البيت مواضع لا تعرف كيف بُنيت ولا إلى أين تؤدي.»

سأله عن اسم المدينة في الرسالة، فأجابه بأنها من الجهات الغربية. لم يزد. همّ ألوكارد بأن يواجهه بكذبة موت أمه أثناء السفر، ثم توقف؛ لم تثبت الرسالة كذبة الموت، بل أثبتت أن حياته بدأت داخل قصة لم يسمعها. كان هذا كافياً ليزيد غضبه، ولم يكن كافياً ليعرف أين يوجهه. خرج من الممر والورقة في حافظة الجلد، ووجد أن المفاتيح بقيت في الداخل.

اضطر إلى طلبها من الحارس. سمع وارث يضحك من بعيد حين رآه يعود إلى الباب الذي طُرد منه، فشعر بالخجل أولاً، ثم ضحك هو أيضاً. أدرك أن ضحكة أخيه هذه المرة محاولة للعودة، فرفع حلقة المفاتيح إليه كمن يلوّح بغنيمة. لم تُحل المشكلة، لكن المسافة بينهما ضاقت بما يكفي ليجلسا معاً فوق السور قبل المساء.

من هناك شاهدا رجال رجوان يدخلون من الباب الشرقي. كانوا أكثر مما يلزم لخدمة ضيف، يحملون أقواساً ملفوفة ومؤناً تكفي أياماً. قال وارث إن رؤساء العشائر جاؤوا لبحث اضطراب الحدود، وإن

المسير قد يؤجل إذا لم تهدأ الطرق. لم يسمع ألوكارد هذه الأخبار من قبل. أخبره وارث بأن ثلاث قوافل تأخرت، وأن عربة وُجدت بلا ركاب قرب ممر الجوز. لم يكن الأمر حرباً بعد، لكنه لم يعد خبراً يمكن تركه للحراس.

تذكر ألوكارد المجرى تحت الجناح، فأخبر أخاه به. قال وارث إنه معروف لدى رجال الخدمة ومغلق من الخارج ببوابة حديدية؛ سيطلب التأكد منها. ثم سأله إن كان ما يزال يريد المسير بعد ما قاله سليم. اعترف ألوكارد بأنه يريد الذهاب، لكنه لم يعد متأكداً من أنه يريد التحول من أجل نفسه وحده. ظل وارث ساكتاً قليلاً، ثم أخبره أن التحول الأول كان أشد خوفاً مما روى له. فقد السيطرة على ساقيه، وظن أن عظامه ستخرج من جلده، وبكى حين لم يكن أحد قريباً.

نظر إليه ألوكارد مندهشاً. قال وارث إنه لا يريد أن يسمع أحد هذه الحكاية، ولا سيما قاسم الذي يروي أنه تحمّل أفضل من الجميع. ابتسم ألوكارد ووعده، ثم سأله إن كان يمكنه استعمالها ضده مرة واحدة إذا احتاج إلى حصانه. دفعه أخوه بكتفه، وبقيا حتى اشتد البرد. في طريقهما إلى الداخل، سلّمه وارث خنجراً قصيراً، وقال إن حمله لا يعوّض التدريب وإن عليه ألا يتركه في المطبخ. وضعه ألوكارد في حزامه، ثم لمسه ثلاث مرات قبل أن يصل إلى غرفته.

في تلك الليلة، نُقلت أوعية الزيت بعيداً عن الأبواب، ووضعت جرار الماء في الممرات. لم يُطلب من أهل السوق إخلاء بيوتهم، لكن الحراس راحوا يوقظون من ينام في الدكاكين ليعود إلى عائلته. جلس ألوكارد يقرأ رسالة أمه تحت المصباح، ثم طواها ووضعها في الحافظة. هذه المرة ربط الحافظة بحزامه. وبعد وقت، سمع من البرج الشرقي نفخة بوق لم يسمع مثل طولها من قبل.

الفصل الخامس

الهجوم

لم يفهم ألوكارد البوق إلا حين سمع ما جاء بعده: ارتطام أجساد مسرعة بالدرج، وصوت حليمة ينادي خادمات المطبخ، ثم رجل يأمر بإطفاء المصابيح المطلة على الخارج. وضع الرسالة في الحافظة وأغلقها، وخرج وهو يشد حزامه. في الفناء، كان الحرس يركضون نحو السور الشرقي، فيما يخرج رجال رجوان من غرف الضيافة نصف لابسين دروعهم. امتد فوق البيوت ضوء أحمر لم يكن هناك قبل لحظات.

اشتعل مخزن علف قريب من البوابة السفلى. رأى الناس يخرجون إلى الزقاق ويحملون أطفالهم وأغطيتهم، وبعضهم يعود إلى بيته ليأخذ ما نسيه. لم يرَ المهاجمين، لكنه سمع الصراخ يتقدم في السوق ويصعد نحو القصبة. عند رأس الدرج، صادف أباه يأمر بإدخال العائلات إلى الفناء الداخلي، ثم يغلق الطريق برجاله. كانت على كتفه عباءة سوداء، وفي يده سيف طويل لم يره ألوكارد خارج غمده إلا في الاحتفالات.

طلب أن يذهب معه، فأرسله الأب إلى المخزن السفلي ليساعد حليمة. لم يجد وقتاً للاعتراض؛ وصل رجل مصاب في فخذه، ودفعه الحارس نحوه قبل أن يعود إلى القتال. حمل ألوكارد نصف ثقله وساعده على الجلوس. كان الجرح عميقاً، والدم يتجمع بين أصابعه كلما حاول ضغطه. نادت حليمة على امرأة لتأتي بالقماش، ثم وضعت يده فوق الرباط وأمرته ألّا يرفعها. فعل ما طُلب منه، وهو يسمع الحرب تبدأ على بعد درجتين منه.

تتابع الداخلون. امرأة فقدت فردة حذائها، وشيخ يرفض ترك صندوقه، وطفلة لا تبكي ولا تجيب عن اسمها. رأى يونس بين الجموع فأمسك كتفه وسأله عن أبيه. قال إن عمّار بقي يساعد جارتهم على حمل زوجها، وإن النار قطعت الطريق وراءه. كان الصبي يريد العودة، فسلّمه ألوكارد إلى حليمة ووعده أن يسأل عنه. لم يعده بإحضاره؛ تلك الدقة الصغيرة ستكون لاحقاً واحدة من الأشياء التي يكره تذكرها.

ظهر وارث عند باب المخزن، وثوبه ممزق عند الكتف. طلب إخلاء الرواق الشرقي لأن المهاجمين وصلوا إلى الساحة السفلى. سأل ألوكارد كيف دخلوا، فأجابه أن بوابة الخدمة قرب العلف فُتحت قبل اشتعال النار، ولا يعرفون بعد من فتحها. كان بعض المهاجمين

بشراً مسلحين وبعضهم من العطاشى. هجموا على موضعين، وحين خرج رافع لوقفهم عند الجسر التفّ فريق آخر نحو السور. قال وارث إن عليه إبقاء الرواق حتى يعود رجال أبيه، وأمر أخاه أن ينزل مع النساء.

لم ينزل. راقب انتقال الناس أولاً، ثم تذكر المجرى تحت الجناح الغربي. كان الطريق إلى الإسطبل الداخلي ما يزال آمناً، والباب الحديدي يفتح من جهته بمزلاج؛ أكد الحراس سلامته عصراً. أخذ مصباحاً صغيراً ودعا اثنين من الخدم إلى مساعدته في رفع البلاطات. لم يحتج إلى موافقة أحد لأن أحداً لم يكن متفرغاً لرفضه. مرّر الأطفال أولاً، ثم النساء اللواتي يستطعن الانحناء، وحمل مع رجل آخر العجوز الذي لا يقدر على المشي. عبروا تحت الأرض في هواء رطب خانق، لكنهم وصلوا إلى مخزن عميق لا تطاله سهام الساحة.

بقيت حليمة مع المصابين، وراحت ترسل إليه من يستطيع الحركة. عاد إلى الفتحة مرات، يثبت المصباح في موضعه ثم ينساه وراءه ويضطر إلى الرجوع. كان يخاف أن يضيع الخنجر، فكلما رفع شخصاً لمس المقبض بعد إنزاله. عند المرة الخامسة، وجد سليم يمسك ساق رجل يرتجف ويشير إليه أن يضغط فوق الركبة. فعل، ورأى المعالج يخرج قطعة معدن من اللحم. لم ينظر بعيداً، لكنه تقيأ بعد دقائق في زاوية الممر ثم عاد.

كانت أصوات المستذئبين تتغير في الخارج. عرف العواء الذي سمعه من الجبل، لكنه لم يسمعه قط قريباً إلى هذا الحد. ظهر قاسم عند المدخل، أكبر جسداً مما يعرفه، وقد انشق كمّه وامتدت أظافره. لم يكن التحول كاملاً، لكنه يكفي ليجعل وقوفه في إطار الباب مخيفاً. طلب إغلاق الفتحة بعد آخر مصاب، ثم اندفع إلى الرواق. سمع ألوكارد ارتطاماً وثقل جسد يقع. بعده سكت أحد الأصوات، واستمر الآخر.

وجد وارث في الساحة الداخلية يقاتل رجلاً شاحباً، في حين يحاول اثنان من الحرس إبقاء ثلاثة مهاجمين عند الباب. لم يكن أخوه في هيئته المعتادة. استطالت ذراعاه وانحنى ظهره، وبرزت أنيابه حتى تغير شكل فمه. كان الدم على صدره، وفي عينيه تركيز حاد لا يشبه الغضب. رأى ألوكارد طفلاً مختبئاً خلف جرّة قرب الحائط، فعبر إليه من الجانب، وأمسكه من تحت ذراعيه وحمله إلى الممر. كادت ضربة تصيبهما، فدفعهما الحارس بجسده وتلقاها في كتفه.

حين عاد بنظره، كان المهاجم الشاحب قد فتح ساعده بسكين ومسح دمه على نصل قصير. تراجع وارث فوراً. تذكر ألوكارد ما سمعه عن دم العطاشى؛ دخوله جرح مستذئب يقتله، ولو كان الجرح صغيراً. رمى وارث سيفه نحو يد الرجل، فأصاب كتفه ولم يسقط

النصل. وفي اللحظة التي انحنى فيها لالتقاط سلاح آخر، هاجمه رجل من الخلف بحربة، ودفعه نحو عمود الرواق.

لم يفكر ألوكارد في أنه أضعفهم. رأى فقط الحربة تثبت ثوب أخيه إلى الخشب، ووارث يحاول تخليص نفسه بينما يقترب النصل الملطخ. تناول إناء زيت فارغاً وضرب به وجه المهاجم. تحطم الفخار، وتراجع الرجل خطوة، ومنحت الخطوة وارث وقتاً ليخلع نفسه من الحربة. اندفع ألوكارد ليقف بينهما، والخنجر في يده، لكنه رفعه على نحو مكشوف. أمسك المهاجم رسغه كأنه يمسك يد صبي، ولفّه حتى سمع طقطقة في ذراعه، ثم أدخل نصلًا آخر تحت أضلاعه.

شعر بالبرد قبل الألم. كان وارث يصرخ بشيء، ورأى أسنانه ولثته والدم عند فمه، ثم انخفض كل شيء إلى مستوى الأرض. لم يفهم أنه سقط إلا حين التصق خده بالبلاط. تحت الجرّة المكسورة خطّ من زيت قديم ورماد، وفكر لسبب لا يعرفه أن حليمة ستغضب من الأرض. حاول أن يرفع يده إلى الجرح، فلم تصل. الحزام ضيق، والحافظة تضغط على خاصرته، والهواء الذي يأخذه لا يدخل كله.

لم يمر أمامه شريط من حياته. ظل يرى مفصلاً في البلاط، وقطعة قشر من فاكهة داسها الناس، وقدم أخيه تزحف نحوه. ثم توقف الألم فجأة، وأحس بفراغ واسع في صدره. كان في هذا الفراغ هدوء أغراه

بالاستسلام. أغمض عينيه، وترك فكه يرتخي. سمع وارث قريباً جداً يقول اسمه كما كان يقوله في طفولته حين يوقظه كي يخرجا إلى السوق قبل وصول المعلم.

عاد الصوت بعد ذلك مختلفاً. صار يستطيع سماع حبيبات الرمل تحت النعل، وارتجاف رجل خلف الباب، واندفاع الدم في الرقبة المنحنية فوقه. فتح عينيه، فبدا الضوء قاسياً، حتى ضوء النار البعيد. تحركت أصابعه، وأحس بجسده يجمع نفسه حول موضع الجرح. كان الألم عائداً، لكنه ينتشر في اتجاه آخر، كأن العظم يريد أن يجد مكانه بسرعة لا يحتملها. شهق، ولم تكن الشهقة لطلب الهواء؛ كانت أول استجابة لعطش ضرب حلقه حتى ظن أنه سيبتلع لسانه.

انحنى المهاجم الشاحب عليه، وقد رأى الحركة. لم يفهم ألوكارد الكلمة التي قالها، لكنه رأى في عينيه فزعاً قصيراً قبل أن يرفع النصل ثانية. أمسك رسغه. هذه المرة انثنت اليد في قبضته، ولم يحتج إلى القوة التي كان يتخيل أنه يحتاج إليها. نهض على ركبته ثم دفع الرجل إلى العمود. انغرس طرف الخنجر الذي بقي في كفّه قرب عنق المهاجم، وسال الدم دافئاً فوق أصابعه.

جرحه الرجل في كتفه، فلم يتركه. كان يشم شيئاً حاداً في الدم، مرّاً يثير الغثيان ولا يطفئ العطش. ضرب رأسه بالحجر مرة ثم ثانية

حتى تراخى، وابتعد عنه مترنحاً. المهاجم الآخر حاول الوصول إلى وارث من الجانب، فالتفت إليه ألوكارد وأمسكه بثوبه. لم يخطط للحركة التي فعلها؛ جذبه بقوة جعلت قدمه تنفصل عن الأرض، ودفعه على السيف المكسور عند العمود. سقط الرجل، وجاءت من صدره رائحة مختلفة، دافئة، جعلت فم ألوكارد يمتلئ بالألم.

نظر إلى الدم البشري على البلاط وأحس برغبة جسدية لا تشبه الجوع الذي عرفه. انحنى من غير قرار، ثم سمع وارث يناديه. رفع رأسه ببطء. كان أخوه على الأرض، وقد عاد وجهه أقرب إلى هيئته، وذراعه ممدودة نحوه. وراءه وقف قاسم ورجلان من الحرس، وتوقف أحدهما عن رفع سلاحه في منتصف الحركة. لم ينظروا إلى المهاجمين القتلى. كانوا ينظرون إلى فمه.

لمس ألوكارد أسنانه بإصبعه. وجد امتداداً حاداً لم يكن هناك، وجرح جلده حين ضغط عليه. وقعت قطرة على البلاط بينه وبين وارث. تراجع أخوه بكتفه غريزياً، وكانت تلك الحركة أوجع من النصل الذي دخل صدره. أراد أن يقول إنه لا يفهم، لكن الكلمات خرجت خشنة مشوشة. رأى يده تنغلق ثم تنفتح، كأنها يد شخص آخر أعيرت له للتو.

وصل رافع من الباب الغربي مع رجال يحملون مشاعل. توقف عند رؤية ابنه، ولم يحتج إلى سؤال. اندفع قاسم ليبعد وارث، بينما رفع حارس شاب قوسه نحو ألوكارد. ضرب الأب القوس بساعده، فانطلق السهم إلى السقف. قال إن من يطلق سهماً آخر سيُقتل مكانه. لم يصرخ، لكن صوته وصل إلى أقصى الرواق، فسكنت الأيدي.

اقترب رافع وخطوه حذر. مد ابنه نحوه كفاً ملطخة، ثم سحبها بعدما رأى عين أبيه تذهب إلى الدم. فهم شيئاً واحداً: دمه صار خطراً على من يريد أن يمسكه. لف الأب عباءته حول ذراعيه من غير أن يلمس الجرح، وأمر سليم أن يفتح غرفة الحجر القديمة. ظل ألوكارد ينظر خلفه إلى وارث. كان أخوه يحاول الوقوف، ويمنع الحرس من دفعه بعيداً، لكنه لم يأتِ.

عند مدخل الغرفة، غلبه العطش حتى انحنى. رأى عروق عنق المعالج، وأبعد وجهه بقوة عن الرجل، ثم ضرب جبهته بالحائط كأنه يستطيع إسكات ما يحدث في فمه. أمسك سليم كتفه من فوق القماش وأجلسه. جاء بعد قليل بوعاء مغطى، شمّه ألوكارد قبل أن يراه. كان الدم مختلفاً عن دم الرجال، أقل جذباً، لكنه مد يديه إليه بعجلة أزعجته. شرب، وانسكب بعضه على ثوبه، ورفع رأسه بعد ذلك بخجل لا يملك له اسماً.

قال المعالج إنه دم شاة ذُبحت للطعام، وناولَه ماء ليغسل وجهه. لم يسأله ألوكارد كيف عرف ما يحتاج إليه. كان قد بدأ يتذكر النظرة فوق الصفيحة، والباب المغلق، ويد أبيه التي منعت أخذ المزيد. رفع عينيه إلى رافع الواقف عند العتبة. أراد أن يسأله منذ متى، لكنه وجد أن السؤال كبير على فمه الذي لم يعد يعرفه.

من الخارج، سمع صوت رجوان يصل صافياً عبر الخشب: «لن ندفن أبناءنا ونترك واحداً منهم في بيت الحكم.» تبعته أصوات أخرى، وبعضها أصوات رجال جلس ألوكارد معهم إلى الطعام. بقي أبوه ينظر إليه لحظة، ثم خرج وأغلق الباب من الخارج. استقر المزلاج في موضعه، وجلس ألوكارد على الفراش، يلمس القماش الممزق فوق جرح أخذ يضيق أمام عينيه.

الفصل السادس

الانكشاف

حين أضاء الفجر طرف الغرفة، مد ألوكارد يده نحوه. لم يقصد الاختبار؛ رأى الشمس على البلاط فاقترب كما اعتاد أن يفعل في الصباح. بقي يتابع الضوء يصعد ببطء فوق أصابعه، منشغلاً بأصوات الناس في الفناء. بدأت حرارة خفيفة في الجلد، فترك يده مكانها حتى صارت لسعاً متصلاً اضطره إلى سحبها. حدّق في الاحمرار، ثم جلس بعيداً عن النافذة. كان يعرف أن العطاشى لا يحبون الشمس، لكنه لم يتخيل أن عليه، بعد إنقاذ أخيه، أن يحسب الوقت الذي يستطيع الوقوف فيه عند نافذته.

جاء سليم يحمل ماء وثوباً نظيفاً. خلع ألوكارد القميص الممزق، فوجد جرح البطن خطاً داكناً ضيقاً، بينما اختفى معظم تمزق الكتف. توقف المعالج عند أصابعه المحمرّة وسأله كم بقي في الضوء. وصف له ما حدث، فعاد سليم يقلّب الكف باهتمام. قال: «رأيت مولودين من مصاصي الدماء بعد استيقاظهم. كانت جلودهم ستتقرّح قبل أن يبلغ

الضوء هذا الموضع من يدك.» انتظر ألوكارد تفسيراً، لكن المعالج اكتفى بإنزال الكم فوق الأصابع وأضاف: «هذا لا يجعل الشمس آمنة. لا تختبر أكثر مما اختبرت اليوم.»

سأله ألوكارد إن كان سيعود كما كان. وضع سليم الثوب على الفراش وقال إن الاستيقاظ لا يتراجع. اختار الكلمة بعناية، فانتبه إليها ألوكارد: استيقاظ، لا عدوى ولا لعنة دخلت إليه قبل ساعات.

قال: «إذن لم يُصبني الرجل. كنت أحمل هذا قبله.» أومأ المعالج. نهض ألوكارد ووقف أمامه، يريد أن ينتزع من هدوئه شيئاً يستند إليه. سأله عن الفحص وعن الدم الذي أُتلف، فأجابه سليم بأنه رأى تناقضاً لم يفهمه يقيناً، وإن رافع رفض أن يحوّل الشك إلى خبر يتناقله الناس. كان يستطيع إخبار ألوكارد بوجود الشك، واعترف بذلك. لم يطلب منه المغفرة، وكان هذا أول ما جعله يصغي حتى نهاية الكلام.

شرح له القدر الذي يحتاج إليه الآن: بعض مصاصي الدماء يولدون بطبيعة كامنة، وقد تبقى ساكنة إلى أن يواجه الجسد موتاً قريباً. وهناك من يُحوَّل بالعض، لكن ما حدث له لا يشبه التحويل. سيحتاج إلى الدم ليستعيد قوته، والدم الحيواني يستطيع إبقاءه حياً وإن لم يمنحه القوة التي يمنحها افتراس البشر. لم يحدثه عن قدرة استثنائية أو مصير

عظيم. كان يعطيه تعليمات لجسد جديد، كما يعطي المصاب تعليمات لاستعمال ساق جُبرت حديثاً.

قاطع ألوكارد الشرح ليسأل عن وارث. قال سليم إن جرحه عميق لكنه يلتئم، وإنه طلب رؤيته. بعد قليل دخل أخوه متكئاً على عصا، وأغلق المعالج الباب عليهما. وقف وارث أولاً قرب العتبة، فتراجع ألوكارد إلى الفراش كي يمنحه مساحة. لم تكن المسافة كبيرة، لكنها بدت له مقصودة في كل خطوة. لاحظ أخوه نظرته، فاقترب ووضع العصا على الحائط وجلس قبالته.

مد يده، ثم توقف فوق يد ألوكارد. كانت عليها بقايا شقوق، ودمه يمكن أن يقتل إذا وجد جرحاً. تناول قطعة القماش ولفها حول كف أخيه، ثم أمسكها. قال إنه لم يأتِ ليخاف منه، بل لأن عليه أن يعرف ماذا سيقول أمام الناس. رأى ألوكارد التعب في وجهه وسأله إن كان يعتقد أنه اختار ما حدث. هز وارث رأسه بعنف، وأخبره أنه يعرف أنه أنقذه، وأنه سيقول ذلك ولو أنكره كل الواقفين في الساحة.

هدأ شيء في صدر ألوكارد. أراد أن يعتذر عن الدم وعن تراجعه أمامه، لكن وارث ضغط الكف الملفوفة ومنعه. بقيت بينهما أسئلة كثيرة، أكبرها سؤال الأب. أخبره وارث أن رؤساء العشائر اجتمعوا قبل الفجر وطلبوا من رافع جواباً، وإنهم لن يقبلوا بقصة الإصابة في

المعركة. رآه الحرس يتعافى قبل أن يقترب أي فم من عنقه، وسليم يستطيع إثبات أن الأمر كان كامناً. لم يتكلم الأخوان عن أمهما، لكن اسم سيرين كان في الغرفة كما لو أن ثالثاً ينتظر معهما.

دخل رافع بعد خروج وارث بوقت. كان ثوبه نظيفاً، ويده ملفوفة من الرسغ إلى المرفق، وعلى وجهه شحوب لم يره ألوكارد من قبل. طلب منه الجلوس، لكنه بقي واقفاً. نظر الأب إلى الكرسي الخالي، ثم قال: «تزوجت أمك بعقد وشهود، يا ألوكارد. اسمها سيرين، كما تعرف. وما لم أخبرك به أنها كانت من مصاصي الدماء.»

سمع ألوكارد الجملة وانتظر أن يشعر بشيء واضح، فلم يشعر إلا بانتباه حاد إلى أصوات الحرس في الممر. أمسك ظهر الكرسي وسأل: «كنت تعرف هذا وأنا أقف كل سنة أنتظر التحول؟» أومأ الأب، فترك ألوكارد الكرسي كأنه أساء الاتكاء عليه. لم يكن في الإقرار ما يستطيع مجادلته أو طلب إثباته.

قال رافع: «عرفتها أثناء الهدنة في الغرب. انتهت المفاوضات ولم تنتهِ لقاءاتنا. كنت أعرف الحظر، وأعرف ما يقال عن الدمين، ثم تزوجتها وأنا أعرف. وحين حملت بك، قالوا إنك لن تعيش. وُلدت حياً، ضعيفاً، ولم يستطع أحد أن يطمئنني إلى ما سيحدث بعد ذلك.

قلت إنها امرأة من بلاد بعيدة، وأمرت من عرفوا أن يصمتوا. وكلما مرّت سنة ولم تتغير، أقنعت نفسي بأن الخطر يبتعد.»

تحرك ألوكارد إلى النافذة المغلقة، ثم عاد. «الخطر عن مَن؟ كنت أظن أنني أخفق في شيء يجب أن أستطيع فعله. تركتني أحاول، وتركتهم يقولون إنني أضعف من أن أحمل اسمك. كان يمكنك أن تخرجني من الساحة مرة واحدة وتخبرني أنني أنتظر شيئاً لن يأتي بهذه الطريقة.»

أراد رافع الكلام، لكنه انتظر حتى انتهى ابنه. قال: «أردت أن تنزل إلى السوق وتخاصم أخاك وتنام من غير حارس على بابك. خفت إن عرفت أن يخرج السر منك، أو تذهب تبحث عمن يجيبك. ثم كبرت، وصار الاعتراف يتطلب أن أشرح كل سنة كذبت فيها عليك. كنت أؤجله لأنني لا أحتمل غضبك، وأقول لنفسي إنني أحميك.» مد يده إلى الكرسي ولم يجلس. «لا أملك عذراً يكفي. أستطيع الآن أن أصلح ما بقي في يدي، إن تركوا لي وقتاً.»

قال ألوكارد: «وأمي؟ هل ماتت في الطريق كما قلتم، أم أن هذه أيضاً حكاية اخترتموها لي؟» خفض رافع عينيه إلى الرباط على يده. «ماتت قبل أن تكمل عامك الثاني. اضطررت إلى نقلها حين اقترب بعض الناس من حقيقة إقامتها هنا. كانت قرب دار الملح حين

أُصيبت، ولم أصل إليها في الوقت المناسب.» لم يقل من أصابها. فتح ألوكارد فمه ليطالبه بالاسم، لكن طرق الحارس قطعه؛ اكتمل المجلس، والرجال ينتظرون. وضع رافع على الفراش ثوباً داكناً وقال: «ستأتي معي. لن أتركهم يتحدثون عنك كأنك لست موجوداً.»

انعقد المجلس في قاعة منخفضة النوافذ. أُسدلت الستائر بحجة حماية المصابين من الضوء، لكن الجميع عرف لمن أُسدلت. وقف ألوكارد بين أبيه ووارث، وقد أخفى يديه في كميه. شَمّ الدم تحت الأربطة، وشمع المصابيح، ورطوبة نعال الرجال. أثقلته الروائح حتى أحس بدوار، فركز على شرخ في عمود قريب، يعدّ امتداده بعينيه كي لا ينظر إلى الأعناق.

تقدم رجوان بالكلام. عدد القتلى، وذكر أن الهجوم وقع في أيام اجتماع العشائر، ثم سأل كيف يأمنون البيت إذا كان فيه دم من عدوهم. لم يتهم ألوكارد بفتح الباب، لكنه رتب كلامه بحيث يترك الاتهام جاهزاً في أذهان السامعين. رد وارث بأن أخاه قاتل المهاجمين وأنقذه، وإن الشهود موجودون. دعا قاسماً، فشهد المعلّم بأنه رأى ألوكارد يقتل من كان فوق وارث، وأنه لم يره يعتدي على أحد من أهل القصبة.

لم يغيّر ذلك طلب رجوان. قال إن نجاة وارث لا تلغي خرق عهد العشائر، وإن المسألة تتعلق بالحاكم الذي أخفى زواجاً محرماً. عندها أعلن رافع أمامهم ما قاله لابنه، وأضاف أن المسؤولية مسؤوليته وحده. أخرج عقد الزواج القديم، وعليه ختم شاهد مات وآخر ما يزال حياً خارج تازرون. لم يسمح بأن تُسمى سيرين أسيرة أو امرأة عابرة، ولم يقل شيئاً عن أسرتها. كان يدافع عن اسمها كما يدافع عن ابنه، وألوكارد يسمع للمرة الأولى أباه يتحدث عنها من غير أن يخفض صوته.

نهض شيخ من عشيرة النهر، اسمه أمين، وقال إن العرف يعاقب الزواج بالنفي أو الموت، لكن الابن لم يختر الزواج ولا يثبت عليه ذنب. اقترح إبعاده حتى يبت المجلس فيما يخص رافع. اعترض رجوان بأن إبقاء الحاكم في مكانه يسمح له بتكرار العصيان، وطالب بنقل مفاتيح الأبواب إلى مجلس مؤقت يرأسه وارث. نظر ألوكارد إلى أخيه، فرأى وجهه يغلق. قال وارث إنه لم يطلب مفاتيح من أحد، وإنهم ما زالوا يجهلون من فتح البوابة ليلة الهجوم.

طال اختلاف الرجال على حق الخلع، ورأى ألوكارد بعضهم يترقب فرصة وبعضهم يطلب مخرجاً إلى أرضه. رفض رافع تسليم ابنه أو مفاتيحه، وأجّل المجلس يوماً لدفن القتلى والتحقيق في البوابة.

عند خروجه، مر ألوكارد قرب حليمة. كانت تحمل ماء للمجلس، فوضعت الصينية جانباً ومدت يدها إلى وجهه قبل أن تتذكر الجروح. توقف هو أولاً، ثم لف كمه حول أصابعها وقبّلها. بكت بصمت، ومسحت دموعها بكفها الحرة كأنها غاضبة منها. قالت إنه سيأكل في غرفته، وإنها لا تعرف بعد ماذا يُعدّ له غير الماء، لكنها ستسأل سليم. كاد يضحك من قلقها العملي وسط كل ما حدث، ثم انكسر صوته قبل أن يفعل.

قبل أن تغادر حليمة، سألها عن عمّار. أخبرته أنهم وجدوه ميتاً عند بيت جارته؛ أخرج الزوجين، ثم انهار جزء من السقف وهو يعود إلى الزقاق. أما يونس فحي، وقد جاءت خالته لتأخذه إلى بيتها في السوق. تذكّر ألوكارد كيف تحرّى لفظ وعده للطفل، فلم يعده إلا بالسؤال. لم يعزّه الآن أنه لم يكذب عليه.

في المساء، لم يعد الحارس عند باب غرفته الرجل نفسه. سأل عن السبب، فأجابه الجديد بأن الأوامر تغيرت. ومن خلال النافذة، رأى ألوكارد رجال رجوان ينتشرون عند المخازن، ورجال أبيه يتجمعون قرب الجسر. كان الباب الذي حماه أبوه قد صار جزءاً من خط يفصل القصبة إلى جهتين.

الفصل السابع

سقوط البيت

بدأ الانقلاب بمفتاح لم يصل إلى صاحبه.

طلب رافع فتح مخزن السلاح لرجاله عند الفجر، فعاد الخادم يقول إن الحارس ينتظر أمراً من المجلس. لم يكن ثمة مجلس قائم يملك هذا الأمر، ومع ذلك تكرر الجواب عند باب المؤن، ثم عند الإسطبل. قبل أن ترتفع الشمس، كان رجال رجوان قد استبدلوا حراس ثلاثة أبواب، وأرسلوا إلى السوق من يعلن أن الحركة ستتوقف إلى أن تُستعاد سلامة القصبة. لم يذكروا اسم الحاكم، وتركوا للناس أن يفهموا ما يستطيعون.

سمع ألوكارد التفاصيل من سليم الذي جاءه بالدم الحيواني في قارورة معتمة. كان قد بدأ يتعلم كيف يشرب من غير أن يلتهم الهواء، وكيف يوقف نفسه بعد أن يهدأ الألم في حلقه. كره حاجته إلى القارورة، وكره أكثر الارتياح الذي تمنحه. طلب من المعالج أن يترك له مقداراً إضافياً، ثم استدرك أنه لا يريد أن يُذبح حيوان كلما ارتجف.

أجابه سليم بأن القصبة تأكل اللحم كل يوم، وأن عليه الآن أن يشغل نفسه بمن يستعدون لقتل أحياء لا يحتاجون إلى أكلهم.

أخبره المعالج أن أباه يريد إخراجه قبل الظهر. لم يتلقَّ ألوكارد الخبر بالارتياح. تساءل أين يذهب، ومن الذي سيخرج مع أبيه، فأجابه سليم أن رافع سيبقى لوقف الفتنة. رفض. قال إنه لن يختبئ بينما يحاسَب أبوه على وجوده، وإنه يستطيع القتال الآن. نظر المعالج إلى قارورة الدم، ثم إلى آثار الحرق على أصابعه. قال إن القوة التي لا يعرف حدودها قد تُستخدم ضده، وإن رجال العشيرة لا يحتاجون إلى الانتصار عليه؛ يكفيهم أن يجرح أحدهم فيجدوا ذريعة لإحراقه.

قبل أن يصل وارث إلى الغرفة، سمع ألوكارد خطاه تتوقف عند منعطف الرواق. جاء صوت رجوان منخفضاً، ولم يحتج إلى الاقتراب من الباب كي يميّز كلامه: «الرجال مستعدون لبيعتك. يسلّم أبوك نفسه للمجلس ويخرج أخوك من تازرون، وتنتهي هذه الفتنة. إذا بقيت تنتظر، فلن أستطيع أن أضمن ما يفعله من دفنوا أبناءهم.»

قال وارث: «أنت تمسك أبواب المؤن والسلاح، ثم تأتي تخبرني أنك لا تضمن رجالك. أَعِد المفاتيح إلى أبي، وبعدها تحدث إليّ عن البيعة.» رد رجوان من غير أن يرفع صوته: «لو أعدتها، لأخرج أخاك وأغلق الباب في وجه المجلس. ما أقدمه لك يبقي الحكم في بيتكم. غيرك

لن يشترط حياة أبيك ولا خروج أخيك حياً.» سمع ألوكارد احتكاك نعل بالحجر، ثم صوت وارث أقرب: «لم أعرض عليك أبي لتحاكمه، ولم أطلب منك أن تختار لي ما أحفظ من أهلي. ابتعد عن الباب.»

ابتعدت خطى رجوان، وبقي وارث لحظة في الرواق قبل أن يدخل. كان يحمل سيفه العادي لا سيف المجلس. نظر إلى وجه أخيه، ثم إلى الباب، فقال ألوكارد إنه سمع. جلس وارث عند النافذة المغلقة وقال: «لا أوافق على ما عرضه. لكنني أريد أن أعرف إن كنت تقبل الرحيل طوعاً، حتى أستطيع إسكات من لا يريدون لك الخروج إلا ميتاً.»

سأله ألوكارد إن كان العرض يشمل عودة الأب إلى الحكم بعد المحاكمة. لم يُجب وارث، ففهم. قال إنهم يطلبون منه أن يخرج كي يستطيعوا إتمام ما بدأوه، وإن رحيله لن يعيد المفاتيح. رد وارث بأنه يرى ذلك أيضاً، لكنه يحاول أن يحافظ على شيء من البيت. كان يتكلم بصوت متعب، وفي كلامه للمرة الأولى نبرة ضيق لا يريد إخفاءها: كل قرار يتخذه الأب من أجل حماية ألوكارد يجعل بقية الرجال أقرب إلى التمرد، وكل اعتراض يبدو كأنه مطالبة بقتل أخيه.

لم يقل ألوكارد شيئاً. سمع في العبارة ما يخشى سماعه منذ التحول: أنه صار عبئاً لا يعرف الأحباء أين يضعونه. أدرك وارث ذلك

واقترب. وضع يده فوق كتفه من خلال الثوب، وقال إنه لا يلومه على ميلاده ولا على نجاته، لكنه لا يستطيع منع ما يجري بقول هذا وحده. طلب منه أن يجهز نفسه، وأن يترك لهما ساعة يتحدث فيها إلى أمين وقاسم. وافق ألوكارد على الانتظار، لا على الرحيل.

في الممر الخارجي، ارتفعت ضجة. جاء رجل من حرس رافع يحمل أمراً بإخراج المصابين من المخزن، لأن رجال رجوان يريدون تفتيشه بحثاً عن متسللين. فهمت حليمة ما تعنيه الكلمة، ووقفت في الباب بملعقة كبيرة كأنها سلاح. لم تكن تستطيع منع جندي واحد، لكنها جعلتهم يضطرون إلى دفع امرأة يعرفونها جميعاً إذا أرادوا الدخول. وصل وارث قبل أن يفعلوا، وأمرهم بالتراجع. انصرف بعضهم، وبقي قائدهم يكرر أنه ينفذ أمراً من رجوان، فأخذ وارث سيفه من غمده ووضع طرفه على الأرض. عندها انسحب الرجل.

شاهد ألوكارد ما حدث من شق الباب، وفهم أن أخاه لا يتذرع بالعجز. كان يحارب في كل ممر على أمر لا يراه أحد معركة. تراجع إلى الغرفة وجمع أغراضه. لم يعرف ما يحتاج إليه الهارب. وضع قميصين، ثم أخرجهما لأن الحافظة لم تتسع، ونسي الماء إلى أن رأى الإبريق. ربط رسالة أمه والخيط الأزرق في قطعة جلد، ووضع خنجر وارث في حزامه. بقي ينظر إلى الكتاب فوق الكرسي، وقرر أخذه، ثم

تركه. أحس للمرة الأولى أن فوضى الغرفة ستبقى من بعده شاهداً لا يستطيع ترتيبَه.

دخل رافع قبيل الظهر، فأغلق الباب وجلس على الفراش. كانت لديه جعبة صغيرة ورقعة مختومة. سلّمه مالاً يكفي الطريق ورسالة إلى رجل اسمه خزيمة في مدينة غربية تدعى الحجر، كان وسيطاً في مفاوضات قديمة. قال إنه يعرف من يساعده على فهم جسده، وإنه لا يطلب منه أن يثق بكل من يحمل الرسالة، بل أن يبدأ من الاسم المذكور فيها. أعطاه أيضاً قطعة فضة مسطحة على هيئة مشبك، نقش على ظهرها اسم سيرين، وقال إنها كانت لها.

أراد ألوكارد أن يسأله لماذا لم يعطه هذه الأشياء من قبل، لكنه نظر إلى يده الملفوفة وسكت. كان السؤال قد فقد وقته. سأل بدلاً منه إن كان سيأتي معه. هز الأب رأسه. لو غادر، سيُقتل الرجال الذين ظلوا أوفياء له باعتبارهم متمردين، وسيبدأ رجوان حرباً على القرى الغربية ليغسل بها أثر الانقلاب. عليه أن يبقى ما دام يستطيع منع ذلك. لم يقل إنه سينتصر، ولم يعد ابنه بموعد لحاق. كانت صراحته الجديدة أكثر إخافة من صمته القديم.

قال ألوكارد إنه لا يعرف كيف يعيش هكذا، وهو يشم دم من يحدثه. أخبره الأب بأنه سيتعلم، وأن سليم كتب في الرسالة ما يحتاج

إليه في الأيام الأولى. ثم أضاف بعد تردد: «لا تجعل حاجتك حجة على غيرك. ستسمع من يقول إن القوي يأخذ ما يبقيه، وإن الناس خُلقوا ليكونوا رزقاً لغيرهم. سمعتُ الكلام نفسه من رجالنا حين كان المقصود أرضاً ورسماً وقرية. تستطيع أن ترفض، حتى وأنت محتاج.»

انحنى ألوكارد إلى أبيه. هذه المرة عانقه من غير أن يطلب. بقي رافع جامداً لحظة، ثم ضمّه بقوة جعلت خيط الحافظة ينضغط بينهما. شمّ ألوكارد الصابون والجلد والدم المختبئ تحت الرباط، وأغلق فمه بعناد حتى لا تؤذي رغبته هذه اللحظة. حين ابتعد، رأى أن أباه فهم جهده، ولم يقل شيئاً. فتح الباب وأشار إلى الحارس المخلص أن يقودهما نحو الجناح الغربي.

لم يصلا. عند الفناء اعترضهما رجوان مع ستة رجال، وأعلن أن إخراج ألوكارد يهدد التحقيق وأن المجلس أصدر أمر احتجازه. طلب رافع رؤية الأمر، فرفع الرجل رقعة عليها ثلاثة أختام. لم يكن ختم أمين بينها. أمسك رافع الورقة وقرأها، ثم أعادها قائلاً إن ثلاثة رؤساء لا يمثلون العشائر كلها، وإن ابنه سيغادر تحت ضمانه. كان الحرس يتجمعون عند الأبواب، وكل منهم ينتظر إشارة من الشخص الذي اختاره في صمت منذ الفجر.

جاء وارث مسرعاً، وأمر رجوان بخفض سلاح رجاله. رد الأخير بأنه يفعل ما رفض البيت أن يفعله، وإنه لن يترك مصاص دماء يخرج ومعه أسرار القصبة. التفت إلى ألوكارد وطلب منه التقدم. رأى ألوكارد فماً يتحرك، لكنه كان يسمع ما وراءه: نبضات سريعة، معدن يُسحب خلف عمود، وحارس يضع السهم على الوتر. قال لأبيه إن القوس خلفهم، ومد يده ليبعده.

انطلق السهم في اللحظة نفسها. لم يعرف ألوكارد من كان المقصود به. أصاب الحارس القريب من رافع، فوقع واصطدم بالنافورة. اندفع الأب إلى الأمام، وانهار انتظام الفناء في ثانية. رفع رجال سيوفهم على رجال أكلوا معهم قبل ساعات، وأمسك وارث ذراع أحد أتباع رجوان قبل أن يضرب ألوكارد. عبر ألوكارد وسط الفناء نحو الرامي؛ احتمل الضوء في الخطوات الأولى، ثم أخذ اللسع يشتد على وجهه ويديه، فمال إلى ظل الرواق ليواصل من هناك. كان أسرع من قبل، لكنه لم يتعلم المسافة؛ اصطدم بعمود وكاد يسقط.

رأى أباه يقاتل رجلين قرب الدرج. لم يتحول كاملاً في الممر الضيق، واكتفى بقوة الذراع والفك. أسقط أحدهما، ثم التفت إلى وارث الذي حاصره رجل يحمل رمحاً. تحرك ليبعد الرمح، وفي اللحظة التي كشف فيها جانبه، دخل نصل تحت كتفه. لم يرَ ألوكارد يد

صاحبه بوضوح؛ رأى شارة رجوان على الساعد، ورأى السيف يخرج ملطخاً. وصل وهو يصرخ، وضرب الرجل بالحائط حتى أفلت سلاحه. كان يستطيع أن يستمر، لكن رافع أمسك ثوبه وأعاده إليه.

سقط الأب على الدرج، والدم يملأ فمه كلما حاول الكلام. ضغط ألوكارد فوق الجرح، فارتبك لأن يديه كانتا تحملان شقوقاً صغيرة. لف القماش بينهما بسرعة. لم يعرف إن كان دمه قد لمس جرح أبيه، وخاف من الفكرة إلى حد أراد معه قطع يديه. سليم وصل من الجانب الآخر، وأزاحه ليفحص الجرح. نظر إلى عمق الإصابة، ثم إلى وجه رافع، وقال إن عليه ألا يتحرك. لم يطمئنهم، ففهم ألوكارد أن الطلب لا يعني وجود علاج.

ركع وارث عند قدمي أبيه، وسيفه ما يزال في يده. حولهم أخذ القتال يهدأ، لا لأن الغضب انتهى بل لأن الحاكم يحتضر أمام الجميع. حاول رجوان الاقتراب، فرفع وارث سيفه نحوه من موضعه، وتوقف الرجل. مد رافع يده إلى ابنه الأكبر وقبض على ساعده. «رُدَّ الرجال إلى بيوتهم، يا وارث. قل لهم ينزلوا سلاحهم. لا أريد أحداً آخر على هذا الدرج.» انحنى وارث إليه ووعده أن يفعل، لكن يده لم تترك السيف.

بحث رافع بعينيه عن ألوكارد فوجده ملاصقاً له. حاول أن يرفع أصابعه إلى وجهه، ولم يستطع. قال ألوكارد: «سأخرج كما أردت. سأذهب إلى خزيمة، وسأفعل ما كتبته في الرسالة. فقط دع سليم يعالجك.» تحرك فم الأب بابتسامة متعبة. «معك الماء؟» هز ألوكارد رأسه، وهو لا يذكر أين وضع القربة. «لا تتركها...» انقطع الكلام بنوبة سعال، فشدّ سليم القماش على الجرح وأشار إليهما أن يتركا له الهواء.

بقي رافع واعياً دقائق قليلة. التفت إلى سليم وسأل: «والرجل الذي أصابه السهم؟» أجابه المعالج: «نعالجه. لا تتكلم الآن.» كان ذلك آخر سؤال مفهوم. ثقل رأس رافع، وبقيت عيناه نصف مفتوحتين. راقب ألوكارد عنقه ينتظر النبض الذي صار يسمعه في كل حي؛ بقي ينتظر بعدما رفع سليم يده عن صدره.

لم يبقَ من نبض أبيه شيء.

انحنى ووضع جبهته فوق ثوب رافع. تحت القماش جسد ما زال دافئاً، وكانت يده تصل إليه ولا تجد ما تصلحه.

لم يُسمح للحزن بأن يأخذ وقته. قبل أن تُغسل الحجارة، اجتمع رؤساء العشائر خلف الأبواب، ووصل إلى الفناء خبر اختيار وارث لإمساك الحكم حتى تتم البيعة. قال رجوان إن استقرار القصبة يمنع

سفك مزيد من الدم، وقال أمين إن الابن الأكبر هو الأقدر على منعهم من اقتتال لا ينتهي. عرف وارث أن رفضه سيترك المكان لمن بدأه، وقَبِل بشرطين أعلنهما أمام الشهود: لا يُمسّ أحد من خدم رافع، ويخرج ألوكارد حياً تحت حمايته.

اعترض رجوان على الشرط الثاني، فتقدم قاسم ووقف إلى جانب وارث. لم يتحدث عن الرحمة، بل قال إن شهادة إنقاذه للأمير تلزمه، وإنه لن يشارك في قتله. انضم إليه رجلان من الحرس، ثم أمين. وافق رجوان على النفي الدائم، لكنه طلب أن يُنزع اسم ألوكارد من سجلات الوراثة وألا يعود إلى أرض العشائر. سمع ألوكارد الشروط من خلف باب الغرفة التي أعيد إليها، ولم يحتج إلى فتحه كي يرى الوجوه.

وفي أثناء انتظار الليل، فُتح في قاعة البيعة مصراع دائري كان محجوباً منذ طفولة ألوكارد. حمل أمين إلى الداخل إناءً حجرياً، ودخل وراءه رؤساء العشائر واحداً واحداً. لمح ألوكارد أخاه يضع كفّه فيه قبل أن يُغلق الباب، وسمع أمين يقول: «أشهدتموه على الدم، فأشهدوه على عهد القمر.» عرف اسم الطقس من أحاديث البيت، ولم يرَ ما جرى بعد إغلاقه؛ أعاده الحارس إلى غرفته.

جاء وارث إليه بعد البيعة. كانت حلقة الحكم في إصبعه، يديرها بإبهامه كأنها تضايقه. أخبره أنه سيخرج ليلاً من البوابة الغربية، وأن

قاسماً سيرافقه حتى آخر حدود تازرون. كان ألوكارد ينتظر حديثاً آخر: اسم من طعن الأب، ومصير رجوان، وسبب جلوسه في المجلس بدلاً من سجنه. قال وارث إن التحقيق سيأتي، لكن عليه أولاً أن يثبت سلطته. رأى ألوكارد الحلقة وسمع نفسه يسأل إن كان هذا ما يثبتها.

انقبض وجه وارث. «لو أردت هذه الحلقة بهذا الثمن، لتركتهم يدخلون عليك صباحاً. أنا أخرجك حياً من فناء يريد نصفه قتلك، وأحاول ألا أضع حليمة وبقية الرجال تحت السيوف. يمكنك أن تكره ما أفعله، لكن لا تقل إنني كنت أنتظر موت أبي.» لم يُجب ألوكارد. كان يعرف أن الجملة ظالمة، لكنه لم يملك بعد طريقة عادلة للحزن. وقف الأخوان وقتاً، ثم وضع وارث كيس ماء إلى جانب الحافظة وخرج.

قبل الرحيل، دخل ألوكارد إلى موضع أبيه. رآه ملفوفاً بثوب أبيض، وقد غُسل الدم عن وجهه، فبدا أصغر وأكثر بعداً. لم يُلقَ عليه خطاب ولم يطلب منه وعداً. أصلح فقط طرف القماش عند كتفه، كما أصلح الأب ياقته مرات، ثم غادر. عند البوابة أعطته حليمة الغطاء الأزرق وقطعة خبز نسيت أنه لن يحتاج إليها كما كان. أخذها كي لا يضطر إلى تذكيرها، وقبّل رأسها.

كان وارث واقفاً تحت المشعل حين عبر. لم يعانقهما أحد. قال ألوكارد بصوت خافت إنه لم يقصد ما قاله عن الحلقة، فأومأ وارث من غير أن يرفع عينيه. سأل إن كان معه الخنجر، فأراه المقبض. بقيت هذه الكلمة الصغيرة بينهما آخر ما يشبه حديث الأخوين. ثم تحرك الحصان وأُغلق الباب.

سمع المزلاج من الخارج هذه المرة.

الفصل الثامن

الرفض الثاني

رافقه قاسم حتى ضريح حجري عند نهاية الوادي، حيث تتفرع الطريق إلى الغرب. كان الفجر بعيداً، والهواء بارداً إلى حد يجعل أنفاس الحصان ظاهرة. طوال الطريق، لم يتحدث المعلّم إلا ليسأل عن الماء أو يحدد منعطفاً. انتظر ألوكارد توبيخاً أخيراً، أو كلمة عن الساحة، لكنه لم يسمع شيئاً. عند الضريح نزل قاسم عن حصانه وفحص حزام السرج، ثم شد عقدة كانت رخوة. عرف ألوكارد أنه كان سيضيع الغطاء الأزرق لو استمر بها، فشكره بصوت خافت.

قال قاسم إن الطريق الساحلية أطول لكنها أقل حراسة، وإن عليه تجنب قرى عشيرة السهل. أعطاه سكيناً قصيرة للعمل، لا للقتال، لأن خنجر وارث أثمن من أن يقطع به الحبال ويكسر عليه الحجر. ثم وقف أمامه ونظر إلى وجهه كما لو أنه يراه خارج ساحة التدريب للمرة الأولى. أخبره بأنه سيشهد بما حدث في الفناء إذا استطاع، لكنه لا

يعرف ما الذي ستسمح به الأيام. لم يعده بعودة ولا ببراءة. كان رجلاً اعتاد وزن ما يستطيع حمله، حتى في الكلام.

سأله ألوكارد إن كان يراه عدواً الآن. فكر قاسم قبل أن يجيب، وقال إنه رآه ينقذ وارث، ورآه يعود إلى المصابين حين كان يستطيع الاختباء، وإن هذه أشياء لا يمحوها ما رآه في فمه بعد ذلك. لكنه أضاف أنه يخافه، وأن عليه أن يتوقع الخوف من الآخرين أيضاً. آلمه الصدق، ثم شعر بأنه أقل قسوة من طمأنة لا يصدقها صاحبها. تصافحا من فوق القماش، وعاد قاسم إلى الشرق، تاركاً له حصاناً ثانياً يقود عليه ما تبقى من المؤن.

لم يحتفظ ألوكارد بالحصان الثاني طويلاً. في القرية التالية، باعه بأقل مما يستحق لأن صاحبهما معروف لدى تجار كثيرين. اشترى بثمنه عباءة خشنة وقبعة عريضة وحبلاً وقربة أخرى. نسي الحبل عند البائع، فعاد إليه بعد أن خرج من السوق، وظل الرجل يضحك من شاب يحذر الناس ثم يترك ما اشتراه على الطاولة. شعر ألوكارد للحظة أنه يستطيع أن يكون هذا الشاب فقط، شخصاً مشتتاً يسافر إلى مكان لا يعرفه، لا موضوع مجلس ونفي وموت.

في الظهيرة الأولى، أخطأ تقدير الشمس. ظن أن الغيم الرقيق يكفي؛ مرّ تحت الضوء حتى جاوز حقلاً ومنعطف الطريق، فاطمأن

وواصل السير. بدأ اللسع عند رقبته خفيفاً، ثم اشتد كلما امتد الطريق، إلى أن أحس الجلد يحترق. اختبأ في مجرى جاف تحت صخرة، ولف وجهه بالغطاء الأزرق. كان الغطاء الوحيد الذي لم يرد استعماله في التراب، لكن الألم لم يترك له مجالاً للترف. نام ساعات متقطعة، واستيقظ مذعوراً كلما سمع خطوات فوق الطريق. في المساء وجد أن الحرق بدأ يخف، فأدرك أن النهار لن يقتله فوراً، لكنه يستطيع أن يجعله عاجزاً إذا عامله كأنه لم يتغير.

نفد الدم الذي أعطاه سليم أسرع مما توقع. في اليوم الثالث، صار صوت نبض المسافرين قربه مزعجاً، وبدأ يختار الطرق الخالية من غير أن يعرف هل يفعل ذلك لحمايتهم أم كي لا يرى الطعام الذي يمنع نفسه منه. عند مسلخ صغير، سأل القصاب عن دم شاة، فظنه يستعمله في علاج. دفع له قطعة نقدية وأخذ الوعاء إلى مكان بعيد. شرب على عجل، ثم بقي وقتاً يغسل يديه ورقبته بماء بارد، متذكراً أنه قبل أيام كان يخجل من صفار بيضة على عباءته.

في الطريق إلى دار الملح، صادف عربة غاصت عجلتها في الطين. كان صاحبها يحاول إخراجها وزوجته تدفع من الخلف، وطفلهما جالس فوق أكياس ملح يراقبهما. مر ألوكارد أولاً ثم عاد. ساعد الرجل على رفع العجلة أكثر مما ينبغي، فكاد يكسر المحور. تدارك

الأمر، وأخفى اضطرابه بطلب حجر يسند الخشب. شكراه ودعواه إلى الطعام، فاعتذر. أعطته المرأة كيس تمر صغيراً رغم اعتذاره، ووضعه في الحافظة إلى جانب خبز حليمة الذي يبس. لم يرمِ أياً منهما.

وصل إلى دار الملح في ليلة ريح. كانت البلدة مجموعة بيوت بيضاء حول أحواض جفت، وفي أطرافها مقابر متفرقة لا يعرف أحد جميع أسمائها. سأل عن امرأة ماتت قبل نحو عشرين عاماً، اسمها سيرين، فهز الناس رؤوسهم. أعطاه شيخ المقبرة أسماء الغرباء المسجلين في دفتر قديم، ولم يجد بينها اسمها. ربما دُفنت باسم آخر، أو في موضع لم يدخله الدفتر، أو أن أباه أعطاه اسماً يخص جزءاً من الحكاية فقط. كان يريد أن يغضب منه، ثم تذكر أنه لم يعد يستطيع العودة ليطالبه بالتوضيح.

قضى الليل عند حائط المقبرة، ولم يضع الغطاء على قبر لا يعرفه. أخرجه فقط وطواه على ركبتيه. قرأ رسالة أمه مرة أخرى، العبارة عن الطفل والباب المغلق، ثم نام وهو يمسكها. في الصباح وجدها تحت ساقه وقد انثنى طرفها. أصلحها بقدر ما استطاع ووضعها في الجلد. كان لديه خوف جديد من أن يضيع الأشياء القليلة التي تثبت أن ما يتذكره لم يكن حلماً، وهذا الخوف لم يجعله أقل نسياناً، بل جعله يعود إلى فحص الحافظة كل بضع خطوات.

بلغ مدينة الحجر بعد تسع ليالٍ. قامت أسوارها فوق هضبة قريبة من البحر، وكانت الطرق المؤدية إليها أضيق وأنظف من طرق تازرون. في النهار تبدو أبوابها مغلقة إلا للتجار المعروفين، وعند الغروب تفتح النوافذ العليا وتتحرك العربات في الأزقة. لم تكن مدينة خالية من البشر؛ رأى حمّالين وخبازين وحراساً، لكن الحركة تتبدل بعد دخول الظلام، ويصبح الليل فيها ساعة العمل الأوضح.

دلّه بائع حبر على خزيمة، صاحب دار نسخ قرب سوق النحاس. كان رجلاً بشرياً متقدماً في العمر، وقد ورث الاسم والمهنة عن أبيه الذي عرف رافع في المفاوضات. خشي ألوكارد أن تنتهي رحلته عند موت الرجل المقصود، لكن الابن تعرف إلى الختم وقرأ الرسالة ببطء. سأل عن الأب، فأخبره ألوكارد بأنه مات. أغمض خزيمة عينيه لحظة، ثم أمر مساعده بإغلاق الدكان. لم يُظهر فزعاً حين علم بطبيعة ضيفه، بل سأل متى استيقظ وما الذي شربه منذ ذلك الحين.

كان يعرف ما يكفي. أعطاه غرفة بلا نافذة، ووعاء من الدم المحفوظ في مكان بارد. قال إن في المدينة من يجمعه بطرق لا تقتل الناس، وإنه يدفع لمن يحتاج إلى المال مقابل مقدار يستطيع الجسم تعويضه. لم يجعل الطريقة تبدو عملاً خيرياً؛ بعض الوسطاء يستغلون الفقر، وعلى القادم أن يعرف من يتعامل معه. شرب ألوكارد قليلاً ثم

توقف، غير مرتاح إلى كونه دم إنسان لا يعرفه. قال خزيمة إن أحداً لن يجبره على الإكمال، وأحضر له بديلاً من دم الحيوان في المساء.

للمرة الأولى منذ الرحيل، نام في فراش ولم يخش أن توقظه الشمس. في اليوم التالي كتب إلى وارث رسالة قصيرة، يخبره أنه وصل وأنه حي، ثم مزقها قبل أن يطويها. لا يعرف من يقرأ رسائل أخيه، ولا يريد أن يقود رجوان إلى من آواه. جمع القطع في جيبه، ثم نسي إحداها على الطاولة. وجدها خزيمة وسلّمها إليه من غير قراءة، فشعر بالامتنان والخجل معاً.

في الليلة الثالثة، أخذته امرأة من خدمة خزيمة إلى دار المسؤول عن الغرباء. كان اسمه نوفل، مصاص دماء نحيل الوجه يتحدث كما يتحدث كاتب معاملات متعب. طلب معرفة السلالة والموضع الذي وُلد فيه، فأخبره ألوكارد بالحقيقة. توقف القلم. أعاد السؤال عن الأب، ثم طلب منه الانتظار. وبعد ساعة جاء حارسان وأخذاه إلى قصر فوق السوق، بحجة أن نسباً غير مألوف كهذا يحتاج إلى إذن خاص للإقامة.

رأى في الممرات نقوشاً حجرية أقدم مما في قصبته، ووجوهاً لا يستطيع تقدير أعمارها. كان بعضهم ينظر إليه بفضول وبعضهم بازدراء واضح. مر أمام مرآة مصقولة فرأى وجهه شاحباً، وأنفه الذي كسره

وارث قد عاد سليماً تماماً. لمس موضعه من غير أن يفكر، وتمنى للحظة أن يبقى فيه شيء من ذلك الصباح، حتى ولو كان الاعوجاج.

أُدخل إلى قاعة صغيرة، حيث جلس الملك سادن خلف طاولة لا عرش فيها. كان يرتدي ثوباً رمادياً بلا زينة كثيرة، وفي يده خاتم أسود يقلبه حين يصغي. إلى جانبه وقف قائد الحرس، ريّان، رجل ذو ندبة عند الحاجب وصوت منخفض. توقع ألوكارد استجواباً عن المعركة، لكن أول سؤال كان عن اسم أمه. قال سيرين، وأضاف أنه لا يعرف اسم أسرتها. سأل الملك عن الأشياء التي تركتها له، فأخرج المشبك الفضي.

تبدلت حركة إصبع سادن فوق الخاتم. لم يتغير وجهه، لكنه طلب المشبك بيده بدلاً من ترك الحارس يأخذه. قلّبه عند الضوء وقرأ الاسم المنقوش، ثم سأل عمن أعطاه إياه ومتى. أجاب ألوكارد، وانتظر أن يسمع شيئاً عن أمه. وضع الملك القطعة على الطاولة وقال إن أسماء كثيرة تتكرر في البلاد، وإن القطع القديمة تنتقل من يد إلى أخرى. لم يعدها إليه فوراً، فمد ألوكارد يده طالباً استرجاعها. أشار سادن إلى ريّان، فأخذها القائد لفحصها، ووعد بإعادتها بعد الجلسة.

سأله الملك عما يريد. أجاب بأنه لا يريد مالاً ولا مقاماً، بل موضعاً يعيش فيه ومعرفة تمنعه من إيذاء الناس. كان يتعب من شرح حاجته

بهذه البساطة، كأن البساطة نفسها لا تُصدق. قال سادن إن استقباله قد يُفسَّر عملاً عدائياً ضد العشائر، وإن المملكتين تعيشان على هدنة هشة. أضاف أن أباه خالف عهداً قديماً، وأن المدينة لا تستطيع تحمل نتائج اختياراته بعد موته.

ذكر ألوكارد أنه طُرد لأنه مصاص دماء، فكيف يكون وجوده هنا اعتداء على من طرده؟ أجابه الملك بأن المسألة أكبر من شكل أنيابه، يحمل دم مستذئب، ولا يُعرف ما قد يفعله جسد يجمع ما لا يجتمع. اعترض ألوكارد بأنه لم يختر الدمين، وأنه يطلب فقط فرصة ليعرف. تدخل ريّان بصوت هادئ، طالباً منه ألا يرفع صوته أمام الملك. لم يكن قد رفعه كثيراً، لكنه سكت.

انتهت الجلسة بأمر مغادرته المدينة قبل الغروب التالي. أعادوا إليه المال والخنجر والحافظة، لكن المشبك بقي بحجة التحقق من مصدره. طالب به مرة أخرى، فاقترب ريّان وأخبره أن الاعتراض قد يحوّل أمر الرحيل إلى أمر احتجاز. خرج ألوكارد ويده فارغة، مشدوهاً من أن ما خسره في القصر ليس مأوى فحسب، بل شيئاً أخذه من كف أبيه قبل موته.

وجد دار خزيمة مغلقة، وعند الباب حارس من موظفي المدينة. سمح له بأخذ متاعه ولم يسمح له برؤية صاحب الدار. قال إن الرجل

يُسأل عن إدخال غريب من غير إذن، وإن بقاء ألوكارد لن يساعده. ترك له ما استطاع من المال مع ورقة اعتذار، ولم يعرف إن كانت ستصل. حين خرج، رأى في النافذة العليا يد المرأة التي قادته إلى دار الغرباء. أشارت له بحركة سريعة إلى طريق جانبي، ثم اختفت. تبع الطريق من غير أن يلوّح لها، وعرف بعد قليل أنه يتجنب بوابة يقف عندها رجال ينتظرون.

لم يغادر من البوابة الكبرى. عبر مع عمال يحملون جلوداً إلى المدابغ، ومضى حتى خرج من آخر البيوت. كانت رائحة الأحواض قوية، وفي الظلام تتحرك سواقٍ تحمل ماء أسود إلى المنحدر. اختار ممراً صاعداً لأنه يريد الابتعاد عن الطريق، ثم توقف حين سمع خلفه وقعاً منتظماً لا يشبه عمالاً عائدين. رأى ثلاثة رجال، وفي المقدمة ريّان. لم يختبئ القائد ولم يعتذر. أخرج سيفه وقال إن عليه أن يأتي معه.

ركض ألوكارد. عرف من طريقة توزيع الرجال حوله أن الأمر ليس استدعاء آخر. قفز فوق حوض فارغ، واصطدم بحافة جدار أخطأ تقديرها، ثم دخل إلى مبنى قديم يجفف فيه الخشب. تبعه رجل من النافذة، فضربه ألوكارد بعارضة ودفعه إلى الخارج. لم يعرف إن مات. كان يستطيع القتال في الممر الضيق، لكنه يسمع اثنين آخرين

يلتفان من الخلف، فواصل الركض حتى وجد نفسه في غرفة ذات باب واحد وسقف خشبي منخفض.

ظهر ريّان عند الباب. رأى ألوكارد النار في يد الرجل الذي خلفه، وشم الزيت قبل أن يُسكب. طلب منه تفسيراً؛ لقد خرج كما أُمر، ولم يحمل معه سراً يعرفه. لم يُجب القائد. قال فقط إن الوقوف بعيداً عن النافذة سيجعل الأمر أسرع. عندئذ فهم ألوكارد أن هذا الرجل لا يريد اعترافاً ولا أسيراً، وأن أحداً في القصر قرر أن خروجه حياً لم يكن المقصود الحقيقي.

اندفع نحوه بالخنجر. صد ريّان الضربة وجرحه عند الذراع، ثم دفعه إلى الداخل وأغلق الباب. أخذ الخشب يشتعل بسرعة، وتصاعد الدخان حتى حجب الضوء. حاول ألوكارد اقتلاع الباب، فوجد أن عارضة ثُبتت خارجه. القوة التي أنقذت وارث لم تعد تلك القوة؛ كان جائعاً، متعباً، ولا يعرف كيف يستدعي من جسده أكثر مما يبذل. ضرب الخشب حتى انفتح شق، فجاء نصل من الخارج أجبره على التراجع.

انحنى قرب الأرض بحثاً عن هواء. تحت طبقة الدخان رأى الماء يتسرب من شق في البلاط؛ قناة صرف قديمة تمر تحت المبنى نحو أحواض المدابغ. تذكر المجرى في الجناح الغربي، وراح يرفع البلاطات

بخنجر وارث. انكسر طرف النصل، لكنه واصل بالحافة المتبقية. فتح فراغاً ضيقاً، وأدخل كتفه ثم صدره، وحين حاول سحب الحافظة علقت بين الحجر والخشب. اشتعل طرف الغطاء الأزرق الذي يبرز منها.

مد يده إلى الحافظة، والحجر يضغط على عنقه. سمع فوقه سقوط عارضة، وانسكبت جمرة على ذراعه. كان يستطيع أن يواصل شدها وربما ينقذها، أو ينزل قبل أن ينهار السقف. أمسك طرف رسالة أمه الذي ظهر من الجلد، لكنه تفتت في أصابعه المبتلة. ترك الحافظة، ودفع نفسه إلى الماء. بقي الخنجر المكسور في يده، والغطاء يحترق فوقه في شق أخذ يضيق بالدخان.

حملته القناة إلى منحدر خارج سور المدابغ، ثم ألقته في ماء راكد بين القصب. بقي تحت الحافة حتى انخفضت أصوات الرجال فوقه. رأى انعكاس النار على السماء، ولم يرَ المبنى نفسه. كان جلده يحترق في مواضع، وذراعه ترتجف، لكن الجروح الصغيرة بدأت تنغلق. لم يفهم لماذا نجا، ولم يشعر بالامتنان فوراً. تذكر الحافظة والخط الذي قرأه عن الباب، وأخرج من فمه طيناً ودماً وهو يبكي بصوت خافت يخشى أن يسمعه الرجال.

مضى بقية الليل في الماء حتى صار بعيداً عن الأحواض. عند الفجر، وجد جرناً مهجوراً خلف طاحونة، فدخل إليه وغطى الفتحة بأغصان. لم يبقَ معه مال ولا رسالة ولا قطعة من أمه؛ بقي الخنجر المكسور، وثياب لا تصلح، وجسد يرفض الموت حين يريده الآخرون له. وضع الخنجر على الأرض، ثم عاد فأمسكه، خائفاً أن يضيع هو أيضاً.

بعد يومين، وصل إلى مزرعة صغيرة وطلب عملاً في مقابل ثوب ومأوى. سأله صاحبها عن يده، فقال إنه أصيب في حريق. كان ذلك صحيحاً بما يكفي ليقوله من غير جهد. عمل بعد الغروب في رفع الحجارة وإصلاح قناة الري، ونام نهاراً في مخزن قال صاحبه إن سقفه يحجب الضوء جيداً. لم يسأل الرجل أكثر؛ كان محتاجاً إلى من يصلح الساقية قبل أن يفسد الحقل، وألوكارد محتاجاً إلى مهمة يعرف متى تبدأ ومتى تنتهي.

في الليلة الثالثة، فرغ من تثبيت الحجر الأخير، ووقف يتابع الماء يعود إلى المجرى. جاء ابن المزارع يحمل مصباحاً، وسأله إن كان يحتاج إلى شيء. كاد ألوكارد يقول إنه يحتاج إلى كل ما فقده، لكنه طلب خيطاً وإبرة لإصلاح جيبه. كان الخنجر يسقط منه كلما انحنى. أعطاه

الصبي ما طلب وجلس يراقبه، ولم يحدق في وجهه إلا ليرى إن كان يعرف كيف يُدخل الخيط.

خاط ألوكارد الجيب على نحو أعوج، وجربه مرتين، ثم وضع فيه الخنجر. لم يخبر الصبي باسم أبيه ولا بالمدينة التي خرج منها. وحين سأله عن اسمه، تردد طويلاً حتى كرر الصبي السؤال. قال اسماً آخر، أول اسم عابر خطر له، وسمعه يستقر بينهما من غير اعتراض. عاد الماء يجري في القناة، وانشغل الصبي بإبعاد حجر صغير عن طريقه، فيما بقي ألوكارد قرب المصباح يتعلم كيف يبدأ حياة لا يعرف فيها أحد أين ينبغي أن يضعه.

الجزء الثاني

المرمِّم



الفصل التاسع

المدينة الآن

وجد ألوكارد هاتفه في الثلاجة، إلى جوار قارورة الدم، بعد أن اتصل به من هاتف الرجل الذي جاء يطالبه بإصلاح نافذته. ظل يتأمل البرودة التي علقت بالشاشة ثم رفع عينيه إلى النافذة المفككة فوق الطاولة، حيث كانت مسطرة خشبية تحبس تحتها ثلاثة إيصالات وورقة كتب عليها ألوكارد، بخط كبير: اتصل بصاحب النافذة. قلب الورقة قبل أن يراها الزبون، واعتذر عن التأخير بعطل في المفصلات. كانت المفصلات سليمة، أما القطعة التي يحتاج إليها فقد وضعها في مكان آمن منذ يومين.

قال الرجل إنه يستطيع احتمال يوم آخر، لكنه لا يستطيع أن يشرح لزوجته، للمرة الثالثة، لماذا ينصح الجيران بمرمّم يتركهم ينامون وراء بطانية. ثم أخرج من جيبه كيساً صغيراً فيه مسماران صدئان، أخذهما من الإطار القديم ظناً منه أنهما قد يفيدان. شكره ألوكارد بجدية جعلت الرجل يطمئن قليلاً، وانتظر حتى غادر قبل أن يفتح كفه

اليسرى. كانت عليها بقعة حبر غامضة. تذكر أنه كتب مكان المفصلة هناك قبل أن يغسل يديه.

في الخارج كانت مدينة الحجر تستعد للمساء. أغلقت حافلة زرقاء الشارع الذي كان، في زمن بعيد، طريقاً لعربات الملح، وتعالت أبواق السيارات تحت شرفات حافظت على حواملها الخشبية وفقدت أصحابها. فوق الباب المقابل ثبتت صحن لاقط عائلة جاءت من الجبل، وفي دكان النحاس صار فتى يصلح شاشات الهواتف. بقيت رائحة الخبز تخرج من الحفرة نفسها. بدّل الفرن أربع واجهات خلال حياة ألوكارد، وسمع أمام كل واجهة جيلاً جديداً يشكو زمنه ويحسد الذين سبقوه.

كان الدكان ضيقاً، يمتد وراءه ممر إلى غرفة نوم ومطبخ بلا باب. ضاع معظم ما اقتناه في رحيل مستعجل، أو احترق، أو باعه حين احتاج إلى أجرة غرفة في مدينة جديدة. احتفظ بخنجر ناقص النصل في صندوق أدوات حديث؛ كانت قبضته تلائم يده، وقد صقل الاستعمال خشبها عند مواضع أصابعه. استعمله في رفع الأغطية الخشبية الرقيقة، ثم ندم كل مرة على ما يلحقه به من خدوش. وكانت لديه صورة لحليمة رسمها من الذاكرة؛ محاها وأعادها حتى تآكل الورق حول عينين يشك في أنه أصابهما.

عاد إلى الحجر بعدما أمضى زمناً طويلاً يتجنب أرض الملكين. اختار أطراف الحدّ، حيث تتنازع السلطتان الجباية وتكثر الوجوه العابرة، وراهن على اسم جديد وموت قديم مسجل. كان يعرف أنه يخاطر؛ أتعبه اقتلاع حياته كلما بدأ يألفها. جاء قبل سبع سنوات مع شاحنة تحمل أبواباً من بيوت مهدمة، وفي نيته البقاء شهراً. وجد عملاً لا يحتاج إلى شهادة، وغرفة لا تدخلها الشمس إلا من شق يمكن سده، وصاحب ملك يسأل عن الأجرة أكثر مما يسأل عن الاسم. على عقد الكراء كان اسمه آدم. في السوق نادوه المرمّم. وحين كان أحد يلح في السؤال عن عائلته، قال إنهم من ناحية تازرون، فيبدأ الرجل بالحديث عن الطريق الجديدة وأسعار الأرض، وتنتهي المسألة قبل أن يصل إلى ما لا يستطيع الإجابة عنه.

في الجهة الداخلية من باب الخزانة ثبت سبع قصاصات. واحدة لمواعيد تسليم الأعمال، وأخرى لأجرة الدكان، وثالثة كتب عليها: لا تصلح شيئاً مجاناً قبل شراء الطعام. كان الطعام المقصود يصل مرتين في الأسبوع من إدريس، صاحب مسلخ صغير عند الطرف الشرقي، في أوعية نظيفة داخل صندوق تبريد. يعرف إدريس أن زبونه يحتاج إلى الدم، ولا يعرف كم عاش أو من كان أبوه. احترم ألوكارد صمت إدريس، ورد عليه بمثله.

فتح القارورة وشرب واقفاً، ثم غسلها قبل أن يجف ما فيها. هدّأ دم الحيوان الضجيج خلف أذنيه، وخفف انتباهه المؤلم إلى دفء المارة. بقي في جسده جوع يستطيع العمل معه. ترك لنفسه آخر قارورة إلى الغد. كان قد دفع عربون دواء لزوجة إدريس، ونسي أن يحتفظ بثمن طلبه، ولم يرد أن يقبل الدم ديناً. منعه هذا الحساب الصغير، أكثر من أي تعهد قديم، من إضاعة الليلة كلها في عمل لا يأخذ عليه أجراً.

خرج ليشتري المفصلة. حمل مفاتيحه هذه المرة، وأغلق الباب، ثم عاد ليطفئ سخان الغراء. عند عودته الثانية وجد طفلة من الجيران واقفة أمام العتبة، تحمل حذاء انقطع شريطه. قالت أمها إن عليه ألا يصلحه الآن، فقط إذا بقي له وقت. أخذ الحذاء ووضعه في جيبه، ووعدها أن يعيده قبل المدرسة. كان يعرف كيف تأتي الأعمال المجانية: لا تأتي باسمها، بل في قدم صغيرة تريد أن تلحق بالصباح.

بلغ سوق الحدّ مع أول المطر. عند الحدّ يغيّر الناس السيارة التي تقلهم، أو الرجل الذي يدفعون له مقابل مرور البضائع. في الغرب تبدأ أزقة القصور والأقبية ودور السهر التي لا تطفأ مصابيحها؛ وفي الشرق تمتد المخازن ومواقف الشاحنات والطريق إلى الجبل. تتبدل أسماء الشركات والحراس، وتبقى الحدود في مواضعها. عرف ألوكارد بعضها

من الرائحة، وبعضها من الوجوه التي لا تتقدم في السن، ومعظمها من حوادث يقال بعدها إن سوء تفاهم وقع بين رجال الأمن.

سمع الشجار قرب بناية كان يرمّم بابها منذ شهر. بدأ بصوت امرأة تحاول الكلام فوق هدير محرك، ثم بارتطام شيء أجوف. وقف تحت مظلة بائع الزيتون ورأى شاحنة صغيرة تسد المدخل، ورجلين يرتديان سترتين بشعار شركة صيانة. كان أحدهما يمسك ذراع بائع دراجات اسمه مراد، بينما تتشبث زوجته سعاد بملف أزرق. قالت إن مهلة الإخلاء لم تنته، وإن المحامي وعد أن يرسل نسخة القرار صباحاً. رد الرجل بأن القبو غير آمن، وأنهم ينقذونها من السقف الذي يمكن أن يسقط على أطفالها.

نظر ألوكارد إلى الشعار. رآه من قبل على مركبات تدخل مخزن جلود عند الحدّ، وعلى باب شركة لا تفتح للعامة. شم في الرجل الطويل رائحة الذئب تحت المطر والعطر الرخيص. احتفظ بهيئته البشرية؛ قوة الساعد وحدها كفت لتجعل مراد ينحني. بدأ ألوكارد يصوغ تدخلاً صغيراً، شيئاً عن كونه صاحب الباب أو شاهداً على الموعد، حين سقط الطفل من الدرج.

ارتطم بكتف الرجل الثاني، الذي دفعه بعيداً دون أن ينظر، ثم ضربت مؤخرة رأسه حافة حجرية قرب المدخل. أسرع مراد إليه فشدّه

الطويل إلى الخلف. تحرك ألوكارد قبل أن تنتهي شهقة سعاد، وفك أصابع الرجل عن ذراع الأب. ضغط على موضع واحد حتى تراخى القبض، ثم وضع نفسه بين الرجل والطفل. سمع الكاميرا فوق دكان البقال تدور بطنين خافت. خفف حركته التالية عمداً، وترك الضربة تصيب كتفه.

قال للطويل، بصوت لا يسمعه إلا القريب: «خذ سيارتك الآن. الطفل ينزف، وهناك ستة هواتف مرفوعة خلفك. إذا أصررت على إكمال العمل، فسيتوجب على من أرسلك أن يفسر لماذا تستدعي الصيانة رجالاً يضربون الصغار.» لم يهدده بما يستطيع فعله. أشار بذقنه إلى النوافذ، وإلى البقال الذي خرج يمسح يديه. اتسعت فتحتا أنف الرجل. كان يحاول تحديد الرائحة التي أمامه، لكنه وجد ماء المطر والصابون والغراء، وما هو أقدم من ذلك وأقل وضوحاً.

تراجع الرجلان إلى الشاحنة. توقفت السيارة عند رأس الزقاق، في مكان يسمح برؤية الباب. جثا ألوكارد قرب الطفل. كان واعياً، لكنه لا يكف عن تكرار أنه لم يلمس شيئاً. دمه قليل، ومع ذلك شعر ألوكارد به يملأ الشارع. خلع سترته ووضعها تحت رأسه دون أن يرفعه، وطلب من سعاد الاتصال بالإسعاف. ضغط البقال على الجرح بقطعة شاش من علبة دكانه، بينما تولى ألوكارد الكلام مع الأب،

الذي أراد النهوض واللحاق بالشاحنة حتى وهو لا يستطيع استعمال ذراعه.

استغرق وصول السيارة اثنتي عشرة دقيقة. أحصاها لأن كل دقيقة جعلت رائحة الدم أوضح، ولأنه اضطر إلى منع مراد من تحريك ابنه مرتين. حين طلب المسعف من أحد الجيران مساعدته في إدخال النقالة، تراجع ألوكارد خطوة. رأته سعاد، فظنت أنه ينوي المغادرة، وأمسكت كمّه بيد مبتلة. قالت إنها لا تعرف اسم الرجلين وإنهما قد ينتظرانهم عند المستشفى. بقي.

في الطوارئ سألته امرأة ترتدي وزرة مفتوحة عن صلته بالطفل. قال إنه جار. أعادت السؤال بصورة أخرى: هل يعرف عمره، وهل فقد وعيه، وهل تقيأ؟ أجاب عن الدقائق التي شهدها وترك الباقي للأم. كتبت ما عرفه فقط، ثم طلبت منه الابتعاد عن الباب كي تمر النقالة. كانت بطاقة اسمها مقلوبة. أعادتها بظهر يدها، فقرأ: الدكتورة أنجل.

كانت متعبة، وشعرة قصيرة تخرج من رباط رأسها فتلمس خدها كلما انحنت. انتظرت جواب مراد عن الأدوية، ثم كررت السؤال بوضوح أكبر حين أجاب عن المال. ألوكارد، الذي رأى رجالاً

يذعنون لخواتم وتيجان، وجد نفسه يبتعد كما طلبت منه امرأة تحمل قلماً عليه أثر أسنان.

خرجت بعد الفحص الأول لتقول إن الطفل يحتاج إلى مراقبة وتصوير يحدده الفريق، وإن الجرح الظاهر لا يسمح لهم بالحكم على ما تحته. حين سألت عن سبب الإصابة، قال مراد إنه تعثر. نظر إلى زوجته قبل أن يكمل. التقطت أنجل النظرة، ثم جلست على الكرسي المقابل بدل أن تواصل الكلام واقفة. قالت إن ما يكتب في الملف يجب أن يصف ما حدث، وإن أحداً لن يساعد الطفل إذا اتفق الكبار على قصة لا تطابق جرحه.

سمع ألوكارد الرجلين عند المدخل قبل أن يراهما. جاء رجلان آخران، أحدهما بشر، ببدلة وحذاء جاف، والآخر يحمل القوة المكتومة نفسها التي عرفها في الزقاق. سأل صاحب البدلة موظفة الاستقبال عن «حادث أسري» وصل من سوق الحدّ. اقترب ألوكارد من أنجل وأخبرها أن الرجلين ليسا من الأسرة. نظرت إلى الباب، ثم طلبت من الممرضة اصطحاب سعاد إلى الطفل، وقالت لمراد أن يبقى في الداخل.

خاطبها صاحب البدلة باسمها كاملاً، كأنه يذكرها بأنه يعرف أين يقف. أراد نقل المصاب إلى مؤسسة خاصة تتكفل بالنفقات. طلبت أنجل اسم ولي الأمر الذي وافق على النقل، ثم اسم الطبيب المستقبل،

ولم تعط الرجل جواباً حين اكتفى بإبراز بطاقة. قال بنبرة صبور ضاق وقته إن إتمام الإجراءات سيجنب الجميع سوء فهم. ردت وهي تعيد البطاقة: «سوء الفهم يمكن تصحيحه غداً. إخراج طفل قبل استكمال تقييمه لا يمكن تصحيحه إذا حدث له شيء في الطريق. تحدث إلى الإدارة إن شئت، أما الآن فلن يخرج على مسؤوليتي.»

لم يكن ألوكارد معتاداً أن يرى أحداً يصد رجال الحدّ من غير أن يعرف حقيقتهم. توقع أن تتردد حين اقترب الثاني خطوة، لكنها رفعت صوتها تنادي الحارس باسمه، لا مستنجدة، بل طالبة أن يفسح الممر. اضطر الرجلان إلى الرجوع. رأى البشري ألوكارد في الضوء، فأطال النظر إلى وجهه، ثم خفض عينيه إلى شاشة هاتفه. كانت تلك الحركة القصيرة أول ما أقلقه حقاً.

بقيت الأسرة في المستشفى، لكن باب البيت كان مكسوراً. استأذن ألوكارد وعاد إلى السوق. اشترى المفصلة المطلوبة، وثانية لقفل مراد، وثالثة ظل يقلبها مستغرباً في كفه. أصلح المدخل تحت مطر توقف وعاد، وساعد البقال في نقل دراجتين إلى دكانه كي لا تسرقا. حين فرغ وجد في جيبه حذاء الطفلة، مبتلاً من الخارج، وشرع في خياطته وهو جالس على عتبة البيت الذي فرغ من أهله.

عند الثالثة فجراً عاد إلى الطوارئ ومعه مفتاح جديد وعلبة بسكويت مغلقة. أخبرته أنجل أن الطفل مستقر وأن عليه أن يعطي المفتاح للأب بنفسه. لمح على يدها احمراراً من كثرة الغسل، فسأل إن كانت قد أكلت. قالت إنها لا تأخذ طعام المرضى، ثم قبلت قطعة حين أوضح أن العلبة له. جلسا على مقعدين متباعدين قرب آلة مشروبات معطلة. سألته ماذا يعمل، فقال: «أصلح الأشياء التي يتأخر الناس في رميها.» نظرت إلى خياطة سترته وإلى الحذاء الصغير البارز من جيبه، ولم تحتج إلى تفسير آخر.

أرادت رقم هاتفه للشهادة، ففتش جيوبه قبل أن يتذكر أنه تركه في الدكان. أعطاها الرقم من الذاكرة، أخطأ في الرقم الأخير، ثم صححه. سجلت التصحيح من غير ابتسامة ساخرة. طلبت منه أن يجيب إذا اتصلت الإدارة، لأن الأب قد يغير أقواله تحت الضغط. قال إنه سيجيب. وعندما سألته عن اسمه، قال آدم متأخراً جزءاً من الثانية، على نحو تعلّمت هي أن تلاحظه عند من يخشون الفاتورة أو الشرطة.

كان الفجر قد اقترب حين خرج. عند الباب الرئيسي رأى لافتة تحذر من تصوير المرضى، وتحتها شاشة تعرض صوراً من كاميرات الممرات. ظهر وجهه لحظة وهو يسلم المفتاح إلى مراد. حافظ على

مشيته؛ خلف مكتب الأمن جلس رجل يتابع الشاشة. اكتفى بأن أنزل ياقة سترته بعدما رفعها تلقائياً، ومضى إلى المخرج الجانبي.

في دكانه وجد ثلاثة اتصالات فائتة من صاحب النافذة، وصورة أرسلها البقال. كانت مقطعاً قصيراً من كاميرا الشارع، وقد توقف عند اللحظة التي أمسك فيها ألوكارد ساعد الرجل الطويل. كتب البقال: حفظتها عندي إذا احتجتم شاهداً. نظر ألوكارد إلى وجهه، واضحاً تحت مصباح المدخل، وإلى الأصابع التي لا تبدو في الصورة إلا أصابع شاب يبعد معتدياً عن طفل. طلب من البقال ألا ينشر المقطع وألا يحذفه. ثم وضع الهاتف قرب الفراش.

أجّل التفكير في الرحيل. كان عليه أولاً أن يعيد حذاء الطفلة، وأن يركب نافذة رجل نام ثلاث ليالٍ وراء بطانية.

الفصل العاشر

كنزة

في صباح اليوم الحادي عشر لاختفاء أبيها، فتحت كنزة علبة طعامه ووجدت الزيتون كما وضعته أمها، ست حبات في ركن صغير يفصله عن الخبز ورق مشمع. تغيرت رائحة الجبن، أما الزيتون فبدا صالحاً لأن يأخذه رجل إلى العمل ثم يعيده محتجاً بأن ابنته بالغت في الملح. كانت العلبة بين الأشياء التي سلّمها لها حارس قصر السرو في كيس أسود. قال إنه وجدها في خزانة العمال. سألته عن تأخره عشرة أيام، فأعاد الكيس نحوها والتفت إلى الكاميرا خلفها. تبعت كنزة نظره وضمّت المتاع إلى صدرها.

غسلت العلبة بعنف، ثم توقفت حين سمعت أمها تأتي من الغرفة. كانت أمينة قد وضعت كأسين للشاي على الطاولة، كما تفعل منذ غياب زوجها، ولم تعد تضيف الثالث إلا إذا جلست كنزة. كانت تدرب نفسها على احتمال أنه لن يعود في هذه اللحظة بالذات. نظرت إلى الكيس الأسود وقالت إنهم كانوا سيعيدون حذاءه أيضاً لو مات.

الحذاء كان في الكيس، ملفوفاً بمعطف العمل، وقد أخفته تحت سريرها قبل أن تدخل المطبخ.

خرجت إلى الورشة قبل أن تطلب أمها منها خبزاً جديداً. جلست أمام لوحة زليج ناقصة لجامع صغير، ووضعت قطعة خضراء مكانها. ارتفع طرفها فوق القطع المجاورة. قلبتها، ثم أخرجتها ورمتها بين الفضلات. كان أبوها سيقول إن المشكلة في الجار الذي يضيق عليها، لا في القطعة نفسها. نزعت القطعتين المجاورتين، فوجدت إحداهما أوسع بنصف إصبع. أخذت المقص المعدني وأصلحتها. هذه كانت الحيلة الأشد قسوة في عملها: كلما عجزت، ساعدها رجل لا تعرف أين هو.

عاش عبد الجليل من عمل يديه. كان حرفياً يستطيع معرفة زمن الجدار من الرمل الذي يخرج تحت المسمار، ويغضب حين يسمى الإسمنت الرمادي ترميماً. عمل في قصر السرو بعقد قصير لإصلاح حوض ورواق غربي، وأراد أن يأخذ كنزة معه. رفضت الشركة إدخال مساعدين غير مسجلين، فقبل وحده لأن أجره كان يكفي لتغيير سقف الورشة. قالت له يومها إن القصور التي تدفع بسخاء تسترد الفرق من ظهر العامل، فضحك وطلب منها أن تترك بعض الحكمة لسن الأربعين.

زارته مرة في الأسبوع الثاني. من عند البوابة رأت عربات مبردة تدخل من الجهة الخلفية، وموظفين يبدأ يومهم حين يفرغ الآخرون من العمل. في المدينة فنادق تبيع الليل للأجانب وتشتري من النهار صمت العمال. ما أقلقها جاء لاحقاً، حين طلب أبوها ألا تنشر صور العمل على صفحة الورشة. كان قد علّمها تصوير مراحل الإصلاح كي يثبت للزبون ما دفع مقابله، جاء منعه هذه المرة مفاجئاً.

في الليلة الأخيرة عاد ومعه خدش عند المعصم وغبار أبيض داخل شعره. تناول الطعام، وسأل أمينة إن بقيت وصفة الدواء في درج المطبخ، ثم جلس إلى كنزة يتأمل رسماً لنجمة ثمانية. قال إن بعض الفراغات ليست أخطاء في التناظر، وإن على المرمّم ألا يملأ كل ما ينقص لمجرد أنه يستطيع. ظنت أنه يعيب عليها عملاً جديداً، فتجادلا. نامت غاضبة، وخرج هو قبل أن تستيقظ. خلال الأيام التالية أعادت الحوار حتى حفظت النبرة التي قال بها «بعض الفراغات»، وكرهت أن الذاكرة تمنح جملة عادية أهمية لا تستطيع اختبارها.

زارت مركز الشرطة ثلاث مرات. في الأولى كتب الموظف بلاغ غياب. في الثانية طلب صورة أوضح. في الثالثة قال إن هاتف أبيها انطفأ قرب محطة الحافلات، وإن الرجال قد يسافرون من غير أن يخبروا أهلهم. وضعت كنزة أمامه قائمة بأدويته، ونسخة عقد العمل،

وفاتورة مواد طلبها ليوم الأحد. سألته إن كان الرجل الذي يهرب من أسرته يترك لها موعد تسليم حوض يحتاج إلى أسبوع كامل. بدا على الموظف الضيق ممن اضطره إلى تكرار تفسير لا يصدقه كله. قال إنه سيرفق الأوراق.

أما شركة الترميم فأرسلت إشعاراً بأن عبد الجليل أخلّ بالعقد. ورد في الإشعار أنه غادر الموقع حاملاً أدوات ومواد ليست له. عرفت كنزة صيغة الاتهام: إذا طالبت بالأجر، أصبحت زوجة سارق؛ وإذا بحثت عنه في القصر، صار المطلوب منها إعادة المسروقات. اتصلت بالمحامي الذي يعرفه خالها، فنصحها أن تحتفظ بالأصول وألا تذهب وحدها. أغلق الباب قبل أن يسأل عن قيمة المواد، ثم قال إن مالكي القصر لا يختلفون مع عامل من أجل دلو جير.

بدأت من الأشياء التي يستطيع أبوها تركها من غير قصد. على رف الورشة عثرت على أوراق شفافة استعملها لنقل زخارف، وعلى كيس غبار كتب عليه «الرواق، تحت الحوض». وجدت بينها حسابات تسليم وأرقام قطع، ورسم باب لا تشبه مفصلاته أبواب القصر المصورة في إعلان الشركة. إلى جانب الرسم كلمة واحدة: ساكن. احتملت الكلمة وصف الباب وتذكيراً بشيء آخر. احتفظت بالورقة كما هي؛

تعلّمت من أبيها أن أول خطأ يرتكبه من يعثر على كتابة غامضة أن يصلحها لتوافق ما يفهم.

في ظهر ذلك اليوم جاء إلى الورشة رجل اسمه صابر، كان يخلط الجير مع عبد الجليل. انتظر حتى أغلقت كنزة ستارة الواجهة، ثم دخل. حمل يده اليسرى داخل كمّ واسع، وقال إن إصابته حدثت في بيت آخر. أحضرت كرسي أبيها ثم أبعدته وأعطته كرسياً صغيراً، لأن الجلوس في المكان الخالي صار يستدعي في زوارهم اعتذارات لا تحتمل سماعها.

تكلم صابر عن الأجر أولاً. قال إنهم منعوه من الدخول بعد اختفاء عبد الجليل، وإنه يريد فقط شهادة بأنه عمل تسعة أيام. تركته ينهي شكواه. وحين وضعت أمامه الورقة ليكتب الأيام، ظل القلم بين أصابعه ولم ينزل. قال أخيراً: «كان أبوك قد وجد شيئاً وراء الجدار. لا تسأليني ما هو، لأنني لم أدخل. سمعته يجادل المشرف: يقول له إن هدم الموضع سيكسر القناة القديمة وإن الماء سيصل إلى أساس الرواق. بعد ذلك طلبوا منا الخروج، وبقي هو مع الرجل الذي يزور المكان ليلاً.»

سألته عن وصف الزائر. ذكر ندبة قرب الحاجب، وقفازين رقيقين رغم الجو المعتدل، ثم هز رأسه كأنه ندم على مقدار ما قال. حاولت

أن تعيده إلى صباح الاختفاء، لكنه وقف. قالت إن شهادة العمل لن تنفعه إذا لم يكتب اسمه كاملاً، فكتب، وترك رقم هاتف قديم لأخته بدلاً من رقمه. عند الباب أضاف أن أباها سأل قبل أيام عن رجل يصلح الخشب في زقاق الصفارين. لا يعرف ما أراد منه، لكنه سمعه يقول إن صاحب الدكان هو الوحيد الذي قد يفهم المفصل من غير أن يفكه.

مرّت أولاً على مورد الأدوات، الذي يعرف أباها منذ كانت تقف على صندوق كي ترى الطاولة. قال إن عبد الجليل اشترى ورق نسخ سميكاً ومصباحاً صغيراً، ودفع نقداً، ثم طلب عنوان المرمّم الذي لا يفتح صباحاً. أخرج الرجل دفتره ووجد حساباً كتب في هامشه «آدم، صفارين». قالت كنزة إن أباها كان يعرف نصف حرفيي المدينة، فكيف يسأل عن واحد على بعد ثلاثة أزقة؟ أجاب المورد أن أباها لم يسأل عن حرفي؛ سأل عمن أعاد باب مخزن السفن إلى الحركة بعدما فشل ثلاثة نجارين في فهمه.

كان على كنزة أن تنتظر العصر. استغلت الساعات لزيارة السيدة التي تؤجر غرفاً للعمال قرب القصر. وجدت اسم صابر في دفتر النزلاء؛ أقام ليلة بعدما حذره شخص من الرجوع إلى بيته. قلبت الصفحات المحيطة بتاريخها بحثاً عن اسم أبيها، ثم أعادت الدفتر. دفعت ثمن الليلة

التي بقيت ديناً، وسألت المرأة إن ترك الرجل شيئاً. أعطتها المرأة ظرفاً فيه صورة بطاقة وأجرة حافلة. عرفت كنزة أن الخوف حين يشتد يجعل الناس يجهزون رحيلهم في أظرف صغيرة، ثم يعجزون عن الرحيل لأن أجرة ليلة أهم من تذكرة طريق.

في طريق العودة دخلت مقهى لتشحن هاتفها. كانت قد أرسلت إلى صابر رسالة تخبره أنها وجدت عنوان المرمّم. راجعت الهاتف ثانية؛ بقيت الرسالة بلا جواب. فتحت صور أبيها بحثاً عن صورة لا يبدو فيها متجهماً؛ كل صورة صالحة للبلاغ تجعله كأنه يعترض على اختفائه. وفي مقطع قصير نشره أحد أبناء الحي لمحته للحظة، قبل شهر، وهو يسلم لوحاً خشبياً لرجل يقف عند باب ضيق. أوقفت الصورة وكبرتها. ظهر وجه الرجل مطموساً، وفوق الباب قطعة من خشب الأرز نُقش عليها: ترميم الأبواب والأثاث.

كان الدكان مغلقاً حين وصلت، وامرأة تجادل صاحبه من النافذة المجاورة. توقفت كنزة عند أول الزقاق، ثم أدركت أن الرجل محبوس في الداخل؛ ترك المفتاح في القفل من الجهة الأخرى، وأغلق الباب حين جرب مزلاجه. كانت المرأة تدفع له سلكاً عبر شق ضيق وتقترح أن يكسر زجاج نافذته. رد بأنه أصلح الزجاج أمس. بعد محاولات خرج، حاملاً السلك في يد ومفصلة في الأخرى، واعتذر للمرأة عن

الحبل الذي استعار منها ولم يعده. قالت إن الحبل له، وإنه نسي ذلك أيضاً.

انتظرت كنزة حتى ذهبت. عرّفت نفسها باسم أبيها قبل اسمها، فرأت الرجل يضع المفصلة على الرف ببطء. قال إنه يعرف عبد الجليل، وإنه سمع بغيابه. استقبل خوفها بهدوء رجل يتوقعه، فغضبت قبل أن تعرف السبب. عرضت عليه الصورة والورقة الشفافة. انحنى نحو الهاتف في يدها، ثم سأل متى عاد أبوها إلى البيت آخر مرة. كان أول سؤال سمعته منذ أحد عشر يوماً لا يبدأ باحتمال أن الرجل أراد الاختفاء.

رأت ألوكارد يرفع رأسه إلى الرف، كأنه يبحث عن أداة، ثم ينحني فوق الرسم. أخبرها أن أباها جاءه بمقاس محور برونزي، وسأله كيف يمكن لباب لا تظهر له مفصلات أن يدور. شرح له احتمالات في حديث بين حرفيين. قالت كنزة إن أباها لا يأتي بمثل هذا السؤال من غير سبب. أجابها بأن الأسباب كثيرة في البيوت القديمة، وأن القصور تحتفظ بأبواب سدت بعد الحرائق، لا بأسرار فقط.

قالت: «أعرف الأبواب المسدودة. عملي أن أميز الجدار الذي بني مرة من الجدار الذي بني مرتين. لا أطلب منك حكاية تخيفني، ولا أطلب أن تدخل القصر معي. قل ما قاله أبي واترك لي فرزه. تنزعون

من الكلام ما يعجبكم، كمن يقتلع قطعاً من لوحة ثم يطلب مني أن أقرأ نقشها. تعبت منكم، والله. أبي غائب، وأنتم تحرسونني من سؤال!» ثم وضعت الورقة بينهما، وسحبت يدها كي لا يستطيع إعادتها إليها سريعاً.

قرأ ألوكارد كلمة «ساكن» مرة أخرى. قال إن عبد الجليل سأل عن أثر أخضر يظهر على النحاس عندما يلامس سائلاً قديماً، وإنه نصحه ألا ينظفه قبل تصويره. كان يستطيع أن يقول ذلك وهو ينظر إليها، لكن كنزة رأت عينيه تتجهان إلى الباب بعد صوت سيارة لم تقف في الزقاق. سألته عما يخشاه. قال إن من أخذ أباها قد لا يكون معنياً بإعادته ما دام يظن أن أحداً لا يعرف ما وجد. كان جواباً لا يقدر على قوله نجار لا يعرف شيئاً.

اشتد الخلاف بينهما بهدوء. اتهمته بأنه يقرر مقدار الحقيقة الذي تستحقه، فطلب منها أن تتوقف عن إرسال الصور إلى أرقام لا تعرف أصحابها. قالت إنها أرسلتها إلى حرفيين ومحام وشرطة، لا إلى غرباء، فأطرق. سألته إن كان يستطيع مساعدتها أم لا. احتاج وقتاً قبل أن يقول إن دخول القصر ليس عملاً يستطيع قبوله. لم يستعمل كلمة خوف. ولو استعملها لربما احترمته أكثر مما فعلت حين سمّاه عملاً.

جمعت الأوراق. خرجت ولم تأخذ بطاقة الدكان التي دفعها نحوها. عند الباب التفتت وقالت إن أباها وثق به لسبب لا تعرفه، وإنه

يستطيع أن يفكر في السبب حين ينهي إصلاح النوافذ. رأت في وجهه ما يشبه صفعة وصلت متأخرة، ثم أدارت ظهرها ومضت. كانت قد استنفدت طاقتها على الاعتذار للناس لأنها تبحث عن أبيها.

عادت إلى الورشة مع المغرب. وجدت أمها تنتظر على كرسي أمام الباب، تحمل كيس الخبز الذي خرجت لشرائه. وجدت في الباب قفلاً سليماً يرفض مفتاحهما، والضلفة التي صنعها عبد الجليل قبل ثماني سنوات منحرفة عن الحلق. أبعدت كنزة أمها ودخلت من السطح المجاور بمساعدة صبي النجار. كانت الأدراج مفتوحة، وقطع الزليج مبعثرة، وحوض صغير مقلوباً فوق أرض مبتلة. بقي صندوق النقد في مكانه. رفعت دفتر أبيها فوجدت أوراقاً نزعت من وسطه بدقة، لا بتمزيق غاضب.

وقفت أمينة عند العتبة بعد أن فتحت لها ابنتها. نظرت إلى الكرسي الخالي، ثم إلى الخبز في يدها، وقالت: «لم يضعه أبوك هنا. انظري إلى الغبار تحت رجله.» كان الكرسي قد حرك عن موضعه، وتحت إحدى قوائمه حفرة صغيرة أغلقها الجير منذ سنوات. جثت كنزة، وتحسست الحافة بأظفرها. كانت الحفرة فارغة. مررت إصبعها على حافتها النظيفة: حفروا في موضع محدد وتركوا النقود.

في تلك الليلة نامت أمها عند خالتها. بقيت كنزة في الورشة تلتقط القطع من الأرض، وتصور كل درج قبل أن تعيده. عند منتصف الليل وجدت تحت الخزانة شظية ورق شفاف، علقت بها نقطة زرقاء من صباغ كانت تستعمله. حملتها إلى المصباح. عرفت نسخة الرسم التي أخرجتها أمام المرمّم؛ انفصلت منها الشظية أثناء جمعها وسقطت من حقيبتها هنا.

تساءلت إن كانت قد جاءت بالرجل الذي فتش الورشة خلفها، أم أن الرجل كان ينتظرها قبل أن تعرف أن عليها أن تخاف.

الفصل الحادي عشر

ما تركه الرجل

بعد خروج كنزة، نقل ألوكارد المفصلة من الرف إلى جيبه، ثم إلى درج، ثم بقي واقفاً أمام الطاولة لا يعرف لماذا ما زال يمسك المسمار. كان عبد الجليل قد جلس في موضعها قبل ثلاثة أسابيع، وسأل السؤال نفسه عن باب بلا مفصلات، لكن صوته كان صوت رجل وجد صعوبة في عمله، لا صوت من وجد طريقاً إلى اختفائه. أجابه ألوكارد بما يعرفه، ورسم له محوراً يقوم على حجر مقعر. يومها اكتفى بالإجابة عن المفصل وترك القصر وسبب السؤال خارج الحديث، مطمئناً إلى حذره. رأى الآن من دفع ثمن ذلك الحذر.

عرف قصر السرو قبل أن تزرع شجرته الأولى، حين كان داراً يتلقى فيها موظفو سادن الغرباء. أما القصر الذي وقف فيه أمام الملك فصار وراءه، أعلى الهضبة، مزاراً لا يدخل الناس منه إلا قاعتين وجداري صور. انتقلت السلطة إلى مبانٍ أقل ظهوراً، وبقيت الأبواب

التي تحتاج إليها متصلة في الأسفل. ليس على حاكم عاش طويلاً أن يحتفظ بعنوان واحد، يكفيه أن يملك الطريق بين العناوين.

فكر في إغلاق الدكان بضعة أيام. كان يستطيع أن يذهب إلى قرية ساحلية يعرف فيها رجلاً يصلح القوارب، وأن يترك المدينة تتولى قضية عبد الجليل كما تولت قضايا كثيرة. فتح درج الأوراق، فأخرجت يده عقد كراء قديماً بدل جوازه. بقي الاسم السابق عليه، وتاريخ مولد اختاره موظف مقابل مال. في خانة الطوارئ رقم امرأة ماتت قبل تسعة عشر عاماً. أعاد الورقة إلى مكانها، ببطء هذه المرة، ولم يبحث عن الجواز.

كان تعبه من الرحيل حقيقياً، وفي الاستقرار منافع يعرف مقدار تعلقه بها. ساعد أشخاصاً ثم تركهم حين اقترب خطرهم من اسمه؛ عرف نجاة بعضهم، وانقطعت أخبار الآخرين. تعلّم عبر السنين أن الامتناع عن الافتراس لا يعفي المرء من كل ما يمكن أن يفعله. ولم يتعلم طريقة مريحة للعيش بهذه المعرفة. على الطاولة بقي خط رفيع من غبار ورقة كنزة، رسمته أصابعها وهي تدفعها نحوه. مسحه، ثم خرج قبل أن يعثر على عذر آخر.

مرّ ببيت مراد، فوجد القفل الذي ركبه سليماً وعربة طفل عند المدخل. البقال أخبره أن الأسرة لن تعود قبل يومين، وأن رجلاً جاء

يسأل عن التسجيل. احتفظ بالتسجيل، لكنه أراه موضع الكاميرا ظناً أن السؤال إداري. طلب ألوكارد نسخة أصلية من المقطع، لا النسخة المتداولة على الهاتف، ووضعها على ذاكرة صغيرة كان يحتفظ بها في علبة مسامير. سأله البقال إن كان هناك ما يخاف منه. أجاب بأن الرجل الذي يدعي أن طفلاً تعثر قد يهتم كثيراً بصورة اليد التي دفعته.

عند ورشة عبد الجليل رأى القفل الجديد والضوء في الداخل. دار إلى الزقاق الخلفي، حيث يستطيع شم من وقف طويلاً قرب الباب. وجد رائحة تبغ ثقيل وزيت بنادق، وتحتها أثر الذئب نفسه الذي وقف في المستشفى، لا ذئب الشاحنة. اجتمعت الحادثتان عند الرائحة نفسها. كيف يعرض ذلك على ابنة رجل مفقود؟ عاد إلى الواجهة، وطرق بظاهر أصابعه حتى رأته من النافذة.

سألته كنزة من خلف الباب إن تبعها أحد من دكانه، وأبقته على العتبة حتى أجاب. قال إنه لا يعرف، وإن عليهما أن يفترضا أن الورشة مراقبة منذ اختفاء أبيها. سكتت لحظة، ثم فتحت. رأى الأدراج المنزوعة وآثار الماء، وسأل إن كانت قد لمست القفل القديم. أشارت إلى كيس على الطاولة؛ صورته قبل أن تفكه واحتفظت به. لأول مرة منذ لقائهما نظر إليها بوصفها شريكة تستطيع أن ترفض اقتراحه، لا شخصاً جاء يحمل مشكلة.

اعتذر عن الرفض، ولم يطلب منها أن تنسى كيف قيل. قال: «أستطيع مساعدتك في قراءة ما تركه أبوك، وفي الوصول إلى بعض المواضع التي لا تدخلها الشرطة بسهولة. لكنني لا أستطيع أن أعدك بإعادته، ولا أن أشرح لك الليلة كل ما أعرفه عن الذين يعملون في القصر. إذا كان هذا غير كاف، سأعطيك ما لدي وتختارين طريقاً آخر.» ردت بأن ما لا يشرحه قد يكون هو ما يقتلها. أقر بذلك، ثم أضاف أنه سيقول كل ما يغير قراراً عليها اتخاذه، قبل أن تتخذه، لا بعده.

كتبت كنزة على ظهر إيصال أسماء من اتصلت بهم منذ غياب أبيها، وسألته أن يفعل الأمر نفسه لمن سيطلب مساعدتهم. وضع اسم إدريس، ثم شطبه؛ الرجل يزوده بالطعام ولا ينبغي أن يتحول إلى عنوان لكل مشكلة. كتب بدلاً منه «رحمة، سجل الماء». رفعت كنزة حاجبيها. قال إن رحمة موظفة متقاعدة تعرف خرائط المدينة التي غطتها خرائط أحدث، وإن الوصول إلى قبو القصر يبدأ أحياناً من مجرى شارع لا من حارسه.

قبل الخرائط كان عليهما أن يعرفا ما الذي خرج به عبد الجليل. أخرجت كنزة عقد العمل والصور وقائمة الأدوات المعادة. أشار ألوكارد إلى علبة الطعام. قال إن أباها كان يحمل دائماً أنبوباً أسود

لحفظ الرسوم، رآه معه في الدكان. غاب الأنبوب عن المتاع المعاد وعن القائمة التي أرفقتها الشركة. فتشت كنزة هاتفها، وعثرت على صورة قديمة للأنبوب مربوطاً خلف دراجته. أما الدراجة فبقيت مفقودة، بحسب إفادة الشرطة عن المحطة. اتصلا بصاحب موقف اعتاد أبوها استعماله، فأنكر معرفته حين سمع اسم القصر، ثم أغلق.

ذهبا إليه في ساعة فتح الفجر. اشترت كنزة قهوة، وجلست إلى جانبه على صندوق، وأخبرته أن الدراجة تخص أباها، وأنها لا تطلب منه اتهام أحد. بعد وقت أخرج الرجل مفتاح مخزن خلفي. كانت الدراجة فيه، مغبرة كأنها بقيت شهراً. قال إن شخصاً أحضرها وأعطاه أجرة أسبوع، ثم اتصل يطلب إبقاءها بعيداً عن الطريق. الأنبوب مثبت خلف المقعد، لكنه فارغ. انحنت كنزة تفحص العقدة؛ لم يربطها أبوها. كان يدير الحبل مرتين حول القضيب حتى لا يطرق المعدن ظهره، وهذه عقدة نقلها شخص من غير أن يعرف الغرض منها.

أرادت أخذ الدراجة، فقال صاحب الموقف إنه لا يملك إذناً بتسليمها. وضعت كنزة صورة أبيها فوق المقعد وسألته ممن ينتظر الإذن. ظل الرجل ينظر إلى المقعد. دفع ألوكارد الأجرة المتبقية، وأعطاه إيصالاً بخطه يفيد أنهما تسلما الدراجة بأجزائها الظاهرة. هذا

كل ما استطاع منحه لرجل يخشى أن يحاسبه الطرفان. خرجا بها على الأقدام، ولم يسأله الرجل عن وجهتهما.

في المخزن العلوي لبيت رحمة، حيث نقلت بعض نسخ الخرائط بعد أن استغنت عنها الإدارة، كانت الرطوبة قد رفعت أطراف الورق. وضعت المرأة ثقلاً خزفياً على خريطة، وقالت لألوكارد إن استعارته الأخيرة ما زالت ناقصة ورقتين. بحث في حقيبته، وأخرج ورقتين مختلفتين. أخذت منهما ما يخصها وأشارت إلى كرسيه القديم. أدركت كنزة أنه يأتي إلى هذا البيت منذ زمن، وأن المرأة لا تعرف كل شيء عنه لكنها تعرف ما يكفي لتطالبه بأغراضها.

سألت رحمة عن عبد الجليل، ثم أصغت من غير أن تقاطع. حين انتهت كنزة، أشارت رحمة إلى تاريخ اتصال قصر السرو بشبكة الماء الجديدة، قبل سبعة وعشرين عاماً، ثم مررت إصبعها فوق موضع الحوض الغربي الفارغ في المخطط. فتح المقاول مجرى مؤقتاً، وأغلق بعد أسبوع، وبقيت نفقة الإغلاق في الحساب من غير رسم يفسرها. نبهتهم إلى مقدار الإهمال في ملفات البلدية؛ مرّ عليها كثير من الخرائط الناقصة. غير أنها أخرجت خريطة أقدم، وأشارت إلى قناة تتفرع قرب حمام مهجور وتستمر تحت الرواق الذي عمل فيه الأب.

تعرفت كنزة إلى زاوية الجدار في الرسم. أخرجت الورقة الشفافة ووضعتها فوق الخريطة، فلم تتطابق. أدارتها ربع دورة، ثم فهمت أن أباها رسم وجه الجدار الداخلي لا واجهته. استقرت الزوايا. تحت كلمة «ساكن» بدا موضع حوض قديم بلا تصريف ظاهر. قالت إن المقصود قد يكون الماء الساكن، لا الباب. أجاب ألوكارد بأنه احتمال أفضل من تخمينه الأول، وأبعد يده عن الورقة كي تكمل القياس.

كان النهار قد اشتد. جلست رحمة قرب النافذة المفتوحة، وتجنب ألوكارد البقعة البيضاء على البلاط. راقبته كنزة وهو يمد قدمه لاستعادة قلم سقط في الضوء، ثم يسحبه بطرف المسطرة بدلاً من الانحناء. كانت تتعلم أن تجمع ما تراه قبل أن تختار له اسماً. طلبت نسخة من الخريطة، فأعطتها رحمة الأصل لتصوره في البيت، واشترطت أن تعيده هي، لا الرجل الذي يضع وثائق الناس في حقائب لا يفتحها إلا حين ينتقل.

في المساء ذهبت كنزة وحدها إلى أمها. أخبرتها عن الدراجة، وأرتها صورتها وهي في المخزن. بكت أمينة حين رأت الكرسي الخلفي الصغير الذي رفض عبد الجليل نزعه منذ كانت ابنته طفلة. ظنت كنزة أن الصورة ستطمئنها لأنه لم يهرب بدراجته، لكنها أدركت متأخرة أن

اختفاء وسيلة سفره يجعل غيابه أشد ثقلاً. جلست إلى جوارها ولم تضف تفسيراً يخفف عنها على حساب الحقيقة.

أما ألوكارد فذهب إلى المستشفى، لا ليرى أنجل كما قال لنفسه، بل ليسأل عن الرجل الذي حاول نقل الطفل. كان مراد يستعد للخروج. حين رأى ألوكارد اعتذر عن تغيير أقواله؛ ذكر في المحضر أن ابنه سقط أثناء مشادة، ولم يسم الرجل الذي دفعه. قال إن سعاد تريد أن تخرج العائلة من البيت بلا نزاع. أعطاه نسخة من المقطع في ظرف، وطلب أن يحتفظ بها حتى لو لم يستعملها. ثم قال إن باب البيت صالح، وإنه لا يدين له بشيء مقابل القفل.

وجد أنجل عند آلة المشروبات وقد عادت إلى العمل. اشترت كأسين، ثم ناولته أحدهما قبل أن تسأله إن كان يشرب القهوة. أخذ الكأس ووضعه بين يديه. سألته عن كتفه؛ تذكرت الضربة التي وصفها مراد، ولاحظت أنه يتحرك بلا حذر. قال إنه أفضل. انتقلت إلى سؤال آخر، وبقي الكذب الصغير يثقله أكثر مما فعلت استجوابات طويلة.

قالت إن الرجل صاحب البدلة اسمه منير، وإن بطاقته تحمل صفة مستشار قانوني لمؤسسة تتعاقد مع المستشفى. يعرف مداخل الإدارة أكثر مما يعرف الأطباء، ويأتي أحياناً لترتيب نقل أشخاص لا يملكون تأميناً يكفي المكان الذي ينقلون إليه. سألت ألوكارد لماذا يهتم. حكى

لها عن اختفاء حرفي، وعن زيارة ابنته، ولم يذكر الخريطة. أصغت حتى النهاية ثم قالت إن إصابة صابر، إن كان الرجل الذي وصفه، ليست الحادثة الوحيدة التي رآها قسم الطوارئ من مواقع تلك الشركة.

قالت إنها ستسأل من يوافق على الكلام بنفسه، وإن المعلومات الطبية ليست ممراً سرياً يستعمله من يظن أن غرضه طيب. أعجبه حزمها، وأخجله أنه جاء مستعداً ليطلب أقل مما يمكن أن ترفضه. قال إنه لا يريد تعريض أحد للخطر. نظرت إليه، ثم إلى الكأس الذي لم يشرب منه، وقالت: «الخطر موجود قبل أن نسميه. الذي أحتاج إلى معرفته هو مقدار ما تعرفه عنه وتتركنا ندخله من غير علم.»

لم يستطع الوفاء لها في ذلك المساء بالجواب. أعطاها رقم كنزة، بإذن كانت قد كتبته له في رسالة، وطلب ألا يتصل بها أحد من الإدارة. اتفقت أنجل أن تمر بالورشة بعد مناوبتها إذا وافق الشاهد على لقاء، ثم عادت إلى الداخل. بقي الكأس في يده حتى برد. أعطاه لعامل تنظيف سأل إن كان سيتركه على المقعد، موضحاً أن الكأس كامل. ضحك العامل وقال إنه كان سيسكب نصفه على أي حال، فالقهوة هنا أكثر مرارة مما ينبغي.

وجد كنزة تنتظره أمام الدكان، وقد أحضرت الدراجة. كان في الأنبوب الفارغ شيء فاتهما: غطاء داخلي رقيق يفصل بين الرسوم الرطبة والسطح المعدني. أخرجته فوجدت خلفه قصاصة بحجم راحة يد، عليها قياس حوض وثلاث نقاط من صباغ أخضر. على الظهر كتب عبد الجليل اسم صابر ورقماً من ست خانات، وتحته: لا ترفع القاع قبل إغلاق الماء. كانت تعليمات عمل وضعها الأب لنفسه أو لمساعده. مرّ المفتش عليها كما يمر على حساب مواد أو موعد تسليم.

اتصلت كنزة برقم أخت صابر. ردت امرأة وقالت إن أخاها لم يعد منذ العصر، وإن هاتفه تركه عندها حين خرج إلى الحمام القديم ليقابل شخصاً سيسلمه أجره. سألها ألوكارد عن اسم الحمام، فذكرت الحمام الذي يمر تحته فرع القناة في خريطة رحمة.

أخذ مصباحين، ومد يده إلى الخنجر المكسور، ثم إلى أداة حديثة أطول وأكثر نفعاً. وضع الاثنين في الحقيبة. كانت كنزة قد ارتدت حذاء العمل وأغلقت الورشة. أعطاها نسخة الخريطة، وقال إن عليها أن تقرر الآن إن كانت تريد النزول إلى موضع قد يوجد فيه من أخذ أباها. نظرت إلى القياسات التي كتبها عبد الجليل، ثم سألته أين يقع مدخل القناة.

الفصل الثاني عشر

تحت الماء

لم يكن الحمام مهجوراً تماماً. أقام رجل يبيع الفحم في الغرفة التي كانت موضع نزع الملابس، وترك في الخارج ميزاناً بلا كفة وكرسياً يجلس عليه في الأيام الجافة. وراءه امتدت القباب الصغيرة، تتخللها ثقوب ضوء سدت بالزجاج تارة وبقطع صفيح تارة أخرى. عرف ألوكارد المبنى، وتوقف يتفحص الكابل المستحدث عند المدخل والأرضية التي رفعها الإصلاح الأخير. تبدلت المدن التي عاش فيها، وكثيراً ما أخطأ حين اتبع ذاكرة طريق عوض النظر إلى الحجر تحت قدمه.

أطفأت كنزة مصباحها قبل أن يطلب. كان باب غرفة الفحم مواراً، وعلى المقبض لطخة سوداء حديثة. أشارت إلى نافذة مرتفعة ذات إطار مركب بالإسمنت فوق حجر أقدم، وقالت إن خلخلتها ستحدث ضجة. وجدا خلف المبنى فتحة تهوية يمكن رفع غطائها بعد فك سلكين، فنزل ألوكارد أولاً وأمسك السلم لها. شم دخاناً رطباً

وعطن ملابس بقيت في الماء، وبحث بينهما عن أثر صابر. وفي العمق رائحة دم لا يستطيع تحديد صاحبها.

توقفت كنزة عند البلاط. كان أحد المسارات قد جف، بينما بقي الجانبان رطبين، مما يعني أن أجساماً مرت فوقه منذ وقت قصير. تتبعت الأثر إلى غرفة التسخين القديمة، حيث كدست أكياس الفحم أمام باب صغير. أزاح ألوكارد كيساً فأخرج من جيبه جرساً معدنياً كان مربوطاً بخيط بين الأكياس. أمسكه قبل أن يصطدم بالأرض. نظر إلى كنزة، ثم وضعه في زاوية مرئية. كان مدخلاً مراقباً؛ الجرس والسلك يدلان على يد تنتظر عابرين.

وراء الباب نزلت درجات إلى مجرى لا يتسع لرجلين متجاورين. كان الماء يجري فيه إلى الجنوب، على خلاف السهم في خريطة رحمة. أخرجت كنزة القصاصة التي تركها أبوها، وقارنت الأرقام بحافة حجرية على الجدار. قالت إن السهم يخص الشبكة الحديثة، وإن المجرى القديم انخفض بعد انهيار في الجهة الشرقية. تابع ألوكارد إصبعها على الخريطة، ثم ترك لها اختيار الفرع وتولى الإصغاء.

بعد المنعطف الأول سمع صوت حذاء يجر فوق الحجر، ثم سعالاً حاول صاحبه حبسه. وجد صابر في تجويف جانب القناة، يضغط قطعة قماش على ساقه. حين رأى الضوء رفع يده يحمي وجهه، وقال إنه

لم يأخذ شيئاً. جثت كنزة وذكرت اسمها، فحاول النهوض قبل أن يسقط. تجمع قليل من الدم في موضعه؛ سال أكثره على الدرج قبل أن يزحف إلى التجويف. حدق ألوكارد في القماش، ثم جعل عينيه على وجه الرجل. سأل عمن جاء به، وهل ما زالوا في الداخل.

قال صابر إن منير طلب لقاءه لدفع الأجر وتسوية ورقة خروجه. وجد عند الحمام رجلين يعرف أحدهما من القصر، ففهم متأخراً. أرادوا اسم من تسلم نسخة رسم الحوض. قال إنه لا يعرف، فضربوه. حين سمعوا صوتاً من الأعلى تركوه تحت حراسة رجل واحد، فدفعه في الماء وجرى، لكنه وقع على قضيب بارز. قال إنه كان سيقول لهم أي اسم لو عرف اسماً يجعلهم يتوقفون.

أخرجت كنزة هاتفها فلم تجد إشارة. أرادت أن تصعد فوراً، لكن ألوكارد أمسك كمها وأشار إلى السقف. سمع ثلاث خطوات، توقفاً، ثم صوت المفتاح في الباب الذي دخلا من خلفه. كان هناك من وجد السلكين مفكوكين. طلب منها أن تضغط القماش وأن تبقى خلف انحناءة الحجر. قالت إن عليها أن تعرف ما يوشك أن يحدث. أجاب هذه المرة من غير مراوغة: «الرجال الذين يأتون ليسوا جميعاً بشراً مثلك. بعضهم يستطيع سماعك من وراء الجدار. لا تركضي إلى الضوء إذا رأيته؛ انتظري حتى نعرف من يحمله.»

لم يتسع وجهها للمعنى في لحظة. ظنته يتكلم عن قسوة أو عن حراس مدربين، ثم رأته يطفئ مصباحه ويسير في ظلام لا يستطيع إنسان أن يخطو فيه مطمئناً. أمسكت القماش على ساق صابر. كان الرجل يبكي بصمت، ودمه يسخن أصابعها. اختارت أن تؤجل السؤال لأنها عرفت أخيراً أي جزء من الحقيقة يغير قرارها الآن.

جاء الأول بلا ضوء. رآه ألوكارد عند التقاء الممرين، عيناه تلتقطان ما لا تلتقطه عين بشرية، وفمه مفتوح قليلاً ليميز الروائح. كان مصاص دماء حديث التحول، لا يملك صبر من تعلّم أن الجوع يخدع. خلفه جاء رجل بشري بمصباح وعصا، ومن جهة أعلى المجرى سمع ألوكارد ثقلاً آخر لا يشبههما. لم يعرف إن كان هؤلاء فريقاً واحداً أم حراسات تتقاسم المكان.

ضرب المصباح أولاً. ارتطم بالأرض وانطفأ، ثم اندفع المصاص نحوه. استدرجه إلى الجزء المنخفض من القبو، حيث يعيق السقف رفع ذراعه، ودفع كتفه إلى الجدار. حطم الحجر المتآكل جزءاً من الكم، ولم يتحطم العظم. ضربه الرجل البشري بالعصا فأصابت ظهره، فترك المصاص لحظة. تلك اللحظة كفت ليصل الثالث، وقد تبدل فكه وصار صدره أعرض تحت الثياب. شم ألوكارد الذئب قبل أن تمسكه الأسنان عند الساعد.

الألم كان حقيقياً، حاداً إلى حد فراغ الرأس. لم ينتظر أن يعرف إن كانت عضة كهذه ستبطل شفاءه كما يعرف عن قومه. أدار ذراعه إلى الداخل بدلاً من سحبها، ودفع رأس المهاجم تحت عارضة منخفضة، ثم ضرب المفصل خلف الركبة. سقطا في الماء. وجد ألوكارد أرضاً بقدمه، ورفع نفسه قبل أن يصل المصاص الثاني إلى عنقه. رأى في ضوء الهاتف الذي أشعلته كنزة، من بعيد، الخوف على وجهها وهي تفهم أخيراً أنه يقاتلهم بما لا يختلف تماماً عما يقاتلونه به.

كان يستطيع أن يقطع حلق الرجل الأقرب. امتدت يده إلى موضع يعرفه، ثم تحولت إلى القماش، وشده إلى فتحة جانبية. سمع نبضه البشري المتسارع، ورائحة عرق العامل تحت زي الحارس، فدفعه خلف شبكة حديدية وأغلقها عليه. عاد إلى الذئب، لكن الدم بدأ يسيل من ذراعه على الماء. ابتعد عنه المهاجم فجأة، بعنف أشد من خوفه من الضربة. فهم ألوكارد أنه شم الدم وتعرف إلى خطره. رفع ذراعه المصابة فوق صدره كي لا تتناثر قطراتها عليه.

عند آخر الممر صاحت كنزة بأن الماء يرتفع. كانت قد أدارت عجلة إغلاق قديمة ظنتها توقف التدفق، فاكتشفت أنها تحوّل الماء إلى فرعهم. أعادت المحاولة، لكن الصدأ منعها. صعد ألوكارد فوق حافة القناة وأمسك العجلة معها، بينما جرّ صابر نفسه إلى أول الدرجات.

أداراها ربع دورة حتى انفتح المسار الجانبي. اندفع الماء في الفرع الآخر، فاصطدم بالمهاجمين وأعاق تقدمهم، من غير أن يملأ التجويف الذي احتمى به الرجل البشري.

أرادت كنزة أخذ حقيبتها التي انزلقت قرب الحارس المحبوس. قال ألوكارد إن الرسم المصور يكفي، فردت أن داخلها دواء أبيها ووثائقه الأصلية. عاد خطوتين، وسحبها بخطاف السلم، ثم دفعها إليها. حمل صابر على كتفه وترك لها المصباح. كان الهرب هذه المرة بطيئاً، خطوة تتوقف عند كل حجر، والرجل المصاب يعتذر كلما ثقل جسده أو ضربت قدمه الجدار.

خرجوا من فتحة خلف دكان مغلق، حيث وضعت كنزة علامة على الخريطة قبل النزول. حفظ ألوكارد موضع الفتحة الجديدة وهو يخرج. كانت كنزة قد وجدت لهما طريقاً يجنب المصاب الرجوع نحو الحراس. مدّد صابر على سطح منخفض، ولف ذراعه بقماش لا يخفي الدم تماماً. اتصلت كنزة بأنجل بعدما تذكرت الرقم الذي أرسله إليها، وقالت إن معهم مصاباً وإن رجلاً باسم منير قد يبحث عنه. أعطتها عنواناً مضاءً عند موقف سيارات، ووصفاً للإصابة، ثم أصغت إلى أسئلتها ونفذت ما استطاعت.

وصلت أنجل مع ممرضة اسمها هناء وسائق نقل طبي يعمل مع عيادة الحي. قالت إن صابر يحتاج إلى علاج حقيقي لا إلى مخبأ، وإنها تستطيع بدء العناية به في العيادة ثم نقله إذا استدعت حالته. وقف ألوكارد يتردد بين السيارة وموضع المصاب. كان الضوء الأبيض فوق السيارة قاسياً، وذراعه تنبض بألم يتراجع أسرع مما ينبغي، ودم صابر قريباً. تراجع كي تعمل، فرأت أنجل أثر الأسنان بين ثنيات القماش.

غطت ذراعه بشاش نظيف وأشارت إلى المقعد. رفض أن يجلس داخل السيارة، فوضعت حقيبتها على الرصيف وانحنت لتفحصه هناك. قالت إن الجرح لا يلائم قصته عن اصطدام بقضيب. طلب منها فقط أن تنتهي من صابر أولاً. نظرت إليه طويلاً، ثم أخذت منه موافقة على أن يعود للفحص، كأنها تعرف أنه وعد لن تستطيع إجباره على الوفاء به.

في عيادة الحي كان الحارس نائماً على كرسي قابل للطي. استيقظ حين دخلوا، وأخذ يسأل عن الأسماء ليكتبها في دفتر الزيارات. قبل أن يجيب ألوكارد، قالت أنجل إنهم سيدخلون المصاب ثم يتمون التسجيل. في الداخل أعادت كل شيء إلى حجمه: فحص، اتصال بطبيب آخر، تنظيف الجرح، قرار بشأن النقل والمراقبة. وجدت في

علاج الساق عملاً تستطيع إنجازه وسط الأسئلة التي ازدحمت في رأسها.

جلست كنزة قرب النافذة، تستعيد حركة فك الرجل في النفق. كلما حاولت أن تردها إلى خداع الضوء تذكرت الظلام الذي تحرك فيه ألوكارد. جاء إليها بعد أن غسل وجهه، وذراعه معلقة. قالت، قبل أن يبدأ: «رأيت فكه يتغير. رأيته كما أرى هذا الكرسي. إياك أن تقول: الظلام خدعك. تكلم.» جلس على بعد كرسي، وأقر بأنها رأت مستذئباً، ورجلاً يعيش على الدم، وأنه هو أيضاً ليس بشراً مثلها.

نظرت إلى الباب الذي يرقد وراءه صابر، ثم إلى أصابع ألوكارد. سألته إن كان أبوها عرف. قال إنه لا يملك ما يثبت ذلك، وإن رجال القصر أخطر حين يعتقدون أن إنساناً فهم ما ينبغي ألا يفهمه. سألته عن نفسه، فقال إن طبيعته أقرب إلى الرجل الذي تحرك في الظلام، وإنه لا يأخذ دمه من الناس الذين يساعدهم. تركها تنظر وتبتعد قليلاً، ولم يتبع حركة كرسيها.

من الغرفة نادت أنجل. استعاد صابر ما يكفي من القوة ليتكلم، وطلب أن تسمع كنزة قبل أن ينسى. قال إن أباها لم يكتشف الغرفة بمجرد الطرق على الجدار؛ الحوض كان يسحب الماء حين يفترض أن يبقى ساكناً، فتتبع عبد الجليل التسرب ووجد مصرفاً أقدم من القصر.

خلفه باب حجري، وعليه كتابة لا يستطيع صابر قراءتها. حاول المشرف تنظيفها بمادة حمضية، فغضب عبد الجليل ومنعه. في اليوم التالي اختفى الحرفي، وأغلقوا الرواق وأخرجوا العمال.

أخرج صابر من حزامه قطعة صغيرة ملفوفة في كيس. كانت نسخة مطوية من نقش، ضغطها عبد الجليل على ورق رطب ثم تركها تجف. أعطاها لمساعده ليوصلها إلى الورشة، لكن صابر خاف حين سئل عنها فاحتفظ بها، ثم صار إخفاؤها أخطر من تسليمها. قالت كنزة إنه كان عليه أن يأتي في اليوم الأول. قال إنه يعرف، وأدار وجهه إلى الحائط. وضعت يدها على حافة فراشه، ولم تسحب القطعة من قبضته حتى فتحها بنفسه.

عرف ألوكارد هيئة النقش من قاعات قديمة؛ حاول أن يستعيد ما كان حوله من كتابة ووجوه. دائرة ناقصة تحيط بثلاثة أغصان، وفي وسطها شق طويل. تذكر أصابع سادن وهي تقلب المشبك الفضي، وإلحاحه في السؤال عن الأشياء التي تركتها أمه. كان التشابه أضعف من أن يثبت شيئاً، وأشد إقلاقاً من أن يتركه يعود إلى ظنه الأول عن التهريب.

بعد ساعة جاء منير إلى العيادة. أحضر نسخة من عقد تأمين وصورة هاتف لصابر، وقال إن عاملاً مصاباً غادر موقعاً تابعاً للشركة وإنهم

يريدون نقله إلى المستشفى المتعاقد. وقفت أنجل عند باب مكتبها، وطلبت موافقته المكتوبة من المصاب. قال إن الرجل قد يكون تحت تأثير أدوية لا تسمح بقرار واضح. ردت أن تحديد ذلك ليس عمل المستشار القانوني، وأنها وثقت رغبة المريض في البقاء إلى حين اكتمال التقييم.

كانت الممرضة هناء تسمع الحديث كله، وفتحت باب الاستقبال الواسع ليصل الصوت إلى الحارس والمنتظرين. غيّر منير نبرته. قال لأنجل إن العيادة تعتمد على تبرعات مؤسسات من بينها مؤسسته، وإن التصعيد لا يخدم المرضى. أجابت: «إذا كان دعمكم مشروطاً بتسليم رجل خائف، فاكتبوا الشرط وأرسلوه إلى الإدارة. أما الحديث في الممر فلن يجعلني أنسى من طلب الحماية ومن جاء يطالب به.» انتهى اللقاء بلا تهديد صريح. أخذ منير صورة لاسم العيادة من الخارج، ثم غادر.

أغلقت الباب وعادت إلى دفتر الأدوية، ورأت يدها ترتجف وهي تقلب الصفحة. كان الخوف قد تأخر حتى وجدت له وقتاً. جاء ألوكارد يقول إنه يستطيع نقل صابر إلى موضع آخر، فطلبت منه ألا يحوّل مرضاها إلى طرود تختفي ليطمئن. قالت إنهم سيحتاجون إلى مكان بعد استقرار حالته، لكن القرار سيكون معه، وبمشاركة من

يتحمل علاجه. اعتذر، وأصغى إلى ما تطلبه بدلاً من أن يعرض قوة لا تعرف حدودها.

قبل الصباح عادت لتفحص ذراعه. رفعت طرف الشاش، فوجدت الحافتين قد انطبقتا تقريباً. بقيت علامات الأسنان وردية، كجرح مر عليه وقت أطول بكثير من ساعات. توقفت يدها. نظر ألوكارد إلى الوجه الذي حاول أن يتعلم كيف يراه بلا خوف، وفهم أن الصمت الذي طلبه لن يستطيع أن يطول.

قالت بهدوء متعب: «هذه آثار أسنان، والجرح يغلق أمامي. أريد تفسيراً قبل أن تعود إلى العيادة.»

لم يتركها وحدها عند الباب. انتظر في الممر حتى انتهت من عملها، ثم مشى وراءها إلى السيارة على مسافة تسمح لها ألا تسير معه. وفي انعكاس الزجاج رأى رجلاً عبر الشارع يرفع هاتفه. كان يستطيع أن يلحق به. اختار أن يبقى حيث تستطيع أنجل رؤيته، إلى أن أغلقت باب السيارة وانطلقت.

الفصل الثالث عشر

ليلة الحريق

في الليلة التي احترق فيها مخزن الخشب، قبل أن تمتد المدينة إلى السهل وقبل أن يصبح للبحر طريق مضاء، انتظر ريّان انطفاء العارضة الأخيرة وهو يحسب عدد الرجال الذين يستطيع أن يجعلهم يقولون الشيء نفسه. كان رجلان قد خرجا معه من القصر. واحد منهما لا يزال واقفاً، وقد احترقت أهداب حاجبه؛ والثاني سُحب من تحت النافذة وضلوعه تصفر عند كل شهيق. أرسلوا عاملاً من المدابغ يطلب ماء لا يحتاج إليه الحريق بقدر ما يحتاج إليه الرجل المصاب. أما الفتى الذي أرسله الملك لإعادته، فلم يكن في أي مكان يراه.

لم يأمرهم سادن بالقتل بكلمة يستطيع الكاتب إثباتها. قال إن وجود الغريب يضع الهدنة في خطر، وإن الطريق خارج المدينة لا ينبغي أن يترك احتمالاً لعودته. سأل ريّان إن كان المطلوب تسليمه إلى العشائر. نظر إليه الملك طويلاً ثم عاد إلى المشبك الفضي. فهم القائد كما يفهم

الرجال الذين خدموا طويلاً: السؤال الثاني لا يزيد المعنى وضوحاً، بل يجعل صاحبه مسؤولاً عن جهله في المرة الأولى.

الآن صار عليه أن يقرر ما الذي سيعيده. في موضع النافذة وجد أثراً داكناً على العارضة وحزاماً من جلد لا يعرف صاحبه. دخل من الباب بعد أن اختبر الحجر بطرف سيفه. كان الدخان يرتفع من جوف الأرض، والرطوبة تخرج من الزوايا التي لم تصلها النار. على الجدار الداخلي أثر يد، وعلى الأرض معدن سخن يضيء تحت الرماد. التقطه بقطعة قماش؛ كان مشبك حافظة صغيراً، عادياً، لا علاقة له بما في يد الملك. بقي عليه جزء من جلد متفحم، يكفي ليعرف أن الفتى ترك متاعه هنا، ولا يكفي ليعرف أين ترك جسده.

تحرك الرجل المحروق خلفه وقال إن السقف وقع قبل أن يستطيع أحد الخروج. كان اسمه بشير، ولم يكن غبياً بما يكفي ليقول إنه رأى الجثة. سأله ريّان عن الفتحة الخلفية. أجاب بأنها مغلقة بعوارض ظلت مشتعلة حتى الآن. مشى القائد إلى هناك، ورأى ما يؤيد كلامه. كان المكان محكماً من كل جهة ظاهرة؛ وهذا ما جعله يصر على النظر تحت القدمين.

قرب الحائط الشرقي انخفض الرماد عن بقية الأرض. مد سيفه فدخل بين لوحين، وارتفع أحدهما بسهولة لا تلائم خشباً تمدد بالماء.

انحنى. وجد حافة شق قديم، وفي طرفه ألياف انكسرت حديثاً، لا اسوداد عليها. تحتها ماء بارد يجري في الظلام. رأى على مسمار نتفة قماش زرقاء صغيرة، لم تصلها النار إلا عند طرف واحد. لم يحتج إلى معرفة كيف خرج الفتى. كان كافياً أن يعرف أن في المكان مخرجاً لم يضع عليه رجلاً.

أعاد اللوح إلى موضعه قبل أن يراه بشير.

قال للحارس إن عليه أن يعود إلى رفيقه المصاب، ثم انتظر حتى سمع خطاه خارج الباب. رفع اللوح مرة أخرى ومد ذراعه إلى الماء. لم يجد جسداً ولا سلاحاً ولا الدم الذي يستطيع تتبعه بعيداً وسط رواسب المدابغ. كان المجرى أضيق من كتفيه، لكنه ليس أضيق من كتفي شاب حديث الاستيقاظ. خرج من المخزن ونزل إلى الساقية الخارجية، حيث تلتقي ثلاثة مجارٍ قبل أن تتفرق في البساتين. هنا انتهت فائدته كصياد؛ كل رائحة صارت جزءاً من رائحة أخرى.

كان الفجر قريباً. لم يحتمل الضوء كما تحتمله بعض الأجساد القديمة التي روت عن نفسها حكايات قوة، ولم يرد أن يقضي النهار محصوراً تحت شجرة، يصغي إلى العمال وهم يبحثون في الحريق. طلب من بشير أن يسد الطريق ويمنع الناس من الدخول حتى المساء. سأله الرجل عما يكتب في سجل الخروج. قال ريّان: لم يعد أحد من المطلوبين. لم يكذب

بعد كذبة كاملة؛ ترك للعبارة أن تفعل ما يحتاج إليه، وأجّل الثمن إلى حين يصل إلى القصر.

في الطريق مرّ بدار خزيمة. كان بابها مفتوحاً للحراس، وفي الساحة صناديق أوراق ربطت بالحبال. رأى الناسخ العجوز جالساً على عتبة غرفته، يراقب صبياً يحمل دفاتر لا يستطيع رفعها دفعة واحدة. لم يكن الرجل مقيداً، لكن معصمه حمل أثراً داكناً من يد قبضت عليه بقوة. توقف ريّان، وسأله إن كان قد عرف من استضاف. رد خزيمة بأنه عرف ابن رجل كتب إليه، وأن الضيافة ليست امتحان أنساب ينجح فيه صاحب الدار أو يختفي.

أراد ريّان معلومة عن الفتى، فوجد نفسه يصغي إلى حساب بسيط: دفع الغريب مالاً لم يأكله، واعتذر لأنه جلب الأذى إلى البيت، ولم يأخذ من الغرفة سوى أشيائه. سأل إن كان قد ذكر موضعاً يذهب إليه بعد الخروج. قال خزيمة إنه لم يسأل ضيفاً مطروداً أين سينام. كان الجواب يحتمل الصدق والعناد معاً. خلف العجوز وقفت المرأة التي خدمت الدار، ويداها مخفيتان في المئزر. تذكر ريّان أن أحد حراسه لم يجد الفتى عند البوابة الكبرى رغم أنه أمر بمراقبتها. نظر إلى النافذة العليا، ثم إلى المرأة. لم يسألها.

كان يعرف نفسه بما يكفي ليعرف أن تركها ليس رحمة خالصة. إذا فتح باب تحقيق جديد، صار عليه أن يثبت لماذا أخفق الحراس ولماذا وصل الفتى إلى المدابغ. كل شاهد إضافي قد يقوده إلى اللوح المرفوع. أمر بإبقاء الدار مغلقة إلى حين ورود تعليمات، لكنه منع نقل خزيمة إلى الأقبية. قال إن الناسخ كبير السن وإن موته قبل الاستجواب سيضيع المعلومات. رأى العجوز يفهم العذر ولا يشكره، فشعر بارتياح لم يكن مستعداً للاعتراف به.

في القصر انتظره نوفل عند باب غرفة الملك. كان الموظف يحمل صحيفة صغيرة، وقد ترك في آخرها فراغاً لاسم الميت ووقت الوفاة. لم يسأله هل نجح. أشار إلى الفراغ، وقال إن سجل المغادرين يجب أن يغلق قبل أن تصل رسالة من تازرون. عرف ريّان أن الخبر سبق الواقعة إلى الورق. سأل عن صيغة الأمر الذي وصل إلى نوفل، فقال الموظف إن الغريب غادر حدود الحماية بعد رفض إقامته، وما يحدث بعد ذلك لا يدخل في مسؤولية المدينة.

جلس ريّان ووجد في يده القلم. كان يستطيع أن يكتب: لم يعثر على الجسد. أربع كلمات تقفل باباً وتفتح آخر، وقد رأى رجالاً يهلكون لأنهم ظنوا أن دقة العبارة تحميهم من المعنى الذي يريده من يقرؤها. قبل سنوات عزل سادن قائد بوابة لأنه أفلت رسولاً يحمل اسماً غير

صحيح. لم يعاقبه على الخيانة، بل على العجز عن التمييز بين المظهر والحقيقة. تذكر ريّان تلك الجملة الآن، وهو الذي فرق بالفعل بين المظهر والحقيقة ويستعد لبيع الأولى.

ترك الفراغ كما هو ودخل.

كان سادن يقف قرب ستارة غليظة، يقرأ رسالة لم يرفعها حين دخل القائد. على الطاولة المشبك الفضي، وقد وضعت إلى جواره قصاصة قماش قديمة لا يعرف ريّان من أين جاءت. قال الملك: «هل تبعك أحد؟» فأجابه بأن الطريق أغلق. سأل بعد ذلك عن الشهود، وعن الرجل المصاب، وعن الموضع الذي انتهت إليه المطاردة. لم يسأل اسم الفتى. كان الاسم قد صار غير ضروري بعد أن عرف ما يريد معرفته منه.

روى ريّان الوقائع حتى الحريق بدقة. عرف أن كثرة الكذب تجعل الإنسان يضطر إلى حفظ تفاصيل لا يحفظها الصادق، فاكتفى بتحريك النهاية. قال إن المطلوب بقي داخل المبنى حين سقط السقف. سأل سادن: «رأيته يبقى، أم لم تره يخرج؟» كان الفرق صغيراً في النطق، واسعاً في الغرفة. أحس ريّان بثقل القماش المتفحم في جيبه، وبالماء البارد الذي بلل كمه قبل قليل.

أخرج مشبك الحافظة ووضعه على الطاولة. قال إنهم فتشوا الداخل بعد انطفاء العوارض وإنه لم يبق ما يصلح للنقل. لم يذكر أن النار تترك من العظام ما لا يزول بهذه السهولة؛ كان الملك يعرف ذلك، وهو يعرف أن الملك يعرف. دفع سادن القطعة بإصبعه من غير أن يلمسها، ثم قال إن الفتيان الذين يعيشون أكثر مما ينبغي يصيرون رجالاً يطالبون بما لا يفهمونه. لم يشرح ما يمكن للغريب أن يطالب به. انتظر حتى رفع ريّان رأسه، وأعاد السؤال في صيغة أخيرة: «هل انتهى أمره؟»

قال ريّان: «نعم، مولاي. مات في الحريق.»

خرج الصوت ثابتاً. أدهشه ذلك أكثر من أشياء كثيرة سيفعلها لاحقاً. كان يظن أن الجسد يفضح صاحبه حين يعبر خطاً لا رجعة فيه، فإذا بالفم يؤدي عمله المعتاد، والقلب الذي لا يبطئ كثيراً يبقى كما هو. كتب سادن كلمة واحدة على الصحيفة وسلمها إليه. لم يمنحه مكافأة، ولم يبدُ عليه ارتياح. أمره بالتخلص من بقايا المبنى، وإبعاد أهل دار النسخ، وإغلاق الملف من غير احتفال. حين سأل ريّان عن تعميم وصف الغريب على بوابات المدن، أعاد سادن الصحيفة الموقعة إليه وقال: «تبحثون عنه فيأتيني المجلس يسأل عمن نخشى بقاءه. الرجل مات؛ احفظوا خبر موته.»

حين عاد ريّان إلى نوفل، ملأ الفراغ. كتب الاسم كما سمعه: ألوكارد بن رافع. ثم تردد عند خانة الأم. قال نوفل إن اسمها لا يلزم في سجل الغرباء، وشطب الخانة كلها بخط مائل. بقي ريّان ينظر إلى البياض الذي قسمه الحبر. لم يعرف إن كان حذف الاسم إجراء عادياً أو جزءاً من الأمر. أدرك فقط أن الرجل الذي يمحو سطراً قد يكون أكثر خطراً من الرجل الذي يشعل مخزناً، لأنه لا يترك دخاناً يدل الناس على موضع الفعل.

لم ينم في ذلك النهار. أرسل بشير ليرافق المصاب إلى المعالج، ثم استدعى عاملين من شؤون القنوات وطلب سد الفرع الذي يمر تحت المخزن. قال إن الحريق كشف ضعف الأساس، وإن الماء يهدد الطريق. حين سأله أحدهما إن كان أحد سقط في المجرى، أجاب بأن ذلك ما يريد منعه. وقف يتابع ملء الفتحة بالحجارة والجير، حتى اختفى طرف اللوح الذي رفعه. جعل العمال يثبتون تاريخ الإصلاح في دفتر النفقة، لا في سجل المطاردة. كان يفصل آثار كذبته بين أوراق لا يجمعها قارئ واحد بسهولة.

بعد الغروب أرسل دورية إلى البساتين. أمرها بالبحث عن لص مصاب، ولم يعطها اسم الفتى أو وصف عينيه. عادت بخبر قميص مسروق من حبل، وآثار أقدام قرب ساقية، وشهادة فلاح عن شخص

أصلح له حاجز ماء ورفض المبيت. لم يستطع ريّان أن يعرف إن كان المطلوب هو ذلك الشخص. لو ذهب بنفسه ربما عرف، لكن الذهاب يعني أن رجال الدورية سيسألونه لماذا يبحث القائد عن رجل أعلن موته. وضع التقرير في كيس خاص، وأخبر نوفل أن اللص فر إلى الجنوب.

أما خزيمة فحمل كتبه إلى بلدة داخلية بعد ثلاثة أيام. لم يسمح له بأخذ سجلات المراسلات، لكنه استطاع إخراج أثاثه وماله وامرأة الدار ومساعده. راقب ريّان العربة من بعيد. كان يعرف أن الناسخ قد يكتب إلى ابن رافع إن عرف له مكاناً، وأن تركه حياً يترك طريقاً للماضي. ومع ذلك لم يأمر بمنعه. لم يعد قادراً على معرفة أي جزء من القرار يعود إلى رجل لا يريد قتل عجوز، وأي جزء يعود إلى قائد يريد تقليل عدد الجثث التي سيسأل عنها أحد.

في اليوم السابع وصل رسول من تازرون. لم يدخل على ريّان؛ سلّم كتاباً مختوماً إلى نوفل ثم غادر قبل حلول الليل. رأى القائد على الشمع علامة البيت الذي خرج منه الفتى، لكن الكتاب لم يمر به. سأل الموظف إن كان يتعلق بالغريب. قال إن عهد الهدنة يتجدد، وإن ما مات لا يدخل في حساب البيعة. اكتفى ريّان بذلك في الظاهر. في

الداخل حفظ موضع الكتاب في الخزانة، كما يحفظ الإنسان مكان شيء لم يقرر بعد إن كان سيحتاج إلى سرقته.

احتفظ بنتفة القماش الزرقاء زمناً. لم تكن دليلاً على موت أحد، بل على الاحتمال الذي دفنه. وضعها في علبة خشبية مع تقرير الدورية، وكلما فتح العلبة شم رطوبة قديمة لا يعرف إن كانت بقيت فيها أو بقيت في ذاكرته. مرت سنوات، ثم صار الحريق حادثاً يذكره سكان المدابغ حين يختلفون على حدود قطعة أرض. مات العمال الذين سدوا المجرى، ومات نوفل في نزاع لم يعرف ريّان كل أطرافه، وبقيت الكذبة في سجل أنظف من وجوه الذين صنعوها.

حين هدموا المخزن بعد ذلك بسنوات طويلة ليقيموا مكانه بناء جديداً، حضر القائد باسم موظف يراقب تصريف الماء. رأى العمال يكشفون الحجارة التي أمر بوضعها، ولم ير أحداً بينهم يعرف لماذا كان الجير أحدث من الأساس. أعادوا وصل المجرى بما يناسب البناء الجديد. لم يعد للهرب طريق يمكن اقتفاء خطوه، ولا للحريق هيئة تشبه ما رآه في تلك الليلة.

لكن ريّان لم يكن ينتظر جثة بعد ذلك. كان ينتظر وجهاً.

كلما جاء إلى القصر خبر عن مصاص دماء بلا سجل، أو رجل يعبر الشمس أكثر مما يحتمل غيره، طلب الصورة أو الوصف قبل أن يطلب

الملف. لم يجد الفتى. ومع مرور الزمن تعلّم أن يسمي خوفه حرصاً على الحدود، كما سمّى سده للمجرى إصلاحاً، وإخراج الناسخ حماية للشهود. كان في وسعه أن يعيش طويلاً بهذه الأسماء. لم يكن في وسعه أن يضمن أن صاحب الوجه الذي تركه في النار سيقبلها إذا عاد.

الفصل الرابع عشر

الختم

بعد ثلاث ليالٍ من خروجهم من القناة، اشترى ألوكارد خزانة حديدية صغيرة للأوراق، ثم أضاع مفتاحها قبل أن يضع فيها شيئاً. بقي المفتاح في جيب المعطف المعلق وراء الباب، وبقي هو يفتش الأدراج، فيما انتظرت أوراق كنزة على الطاولة.

لم تختف آثار العضة تماماً إلا في الليلة الثانية. فحصها على ضوء المطبخ، مستعيداً ما عرفه عن جروح الذئاب في أجساد قومه. رأى مصاصين يموتون منها بعد أيام، ورأى آخرين يقطعون اللحم المحيط بها قبل أن ينتشر الأذى. أما ذراعه فعادت إلى حركتها، وإن بقيت فيها حساسية خفيفة حين يشد مفكاً. لم يكن ذلك برهاناً يرضيه عن نفسه. سجل التاريخ على ورقة، لا لأنه صار منظماً، بل لأنه احتاج إلى شيء لا يستطيع أن يغيره الخوف بعد شهر.

انتقل صابر، بموافقته، إلى بيت أخته بعدما قرر الطبيب أن حالته تسمح وأن المتابعة ممكنة. رتبت أنجل زيارات الممرضة ولم تسلم عنوانه

إلى ألوكارد إلا حين وافقت الأسرة على حضوره. فعلت ذلك بوضوح كي لا يظن أن غرابة ما رأته تمنحه حقاً على معلومات الناس. جاء بطعام يكفي يومين وبعكاز مستعار من رجل أصلح له كرسياً. نسي المطاط الواقي لطرفه، فعاد إلى الدكان وأحضره قبل أن يستعمله المصاب. لم يضحك صابر؛ شكره بامتنان جعل ألوكارد يتمنى لو أنه لم ينس شيئاً بهذه البساطة.

قال صابر إن عبد الجليل لم يقرأ النقش كله. استطاع تمييز كلمة عهد وكلمة نسل، وأصر على تصويره قبل أن يمسه المشرف. في تلك الليلة دخل إلى الرواق رجل الندبة، وبقي مع العامل وحده. سمع صابر من خلف الباب عبارة واحدة: «من رأى الوجه الآخر؟» ثم خرج عبد الجليل شاحباً وأعطاه الورقة المطوية. لم يقل له إن حياته مهددة؛ قال إن الورقة ستفسد إن تركها قرب الجير، وطلب إيصالها إلى الورشة. ذلك ما جعله يؤجل. ظن أنه يحمل رسماً، لا أمانة رجل فهم ما سيحدث له.

سألت كنزة لماذا لم يخبرها أبوها. لم يجب صابر، ولم يقدم ألوكارد تفسيراً جاهزاً عن الآباء الذين يحمون أبناءهم بالصمت. رأى وجهها يتصلب. كانت قد سمعت منه اعتذاراً مشابهاً قبل أيام، ولن يزيد الأمر احتمالاً أن يعرف أن رجلاً آخر اختار لها الجهل. قالت إنها تريد

العثور عليه لتسأله هذا السؤال بنفسها، ثم أغلقت دفترها وطلبت من صابر أن يرتاح.

نسخت النقش بخط واضح، وتركت الفراغات كما هي. على حافته ثلاثة أغصان تحيط بشق، وتحتها بقايا حروف لا تظهر كاملة في الصورة. اقترح ألوكارد عرض النص، دون اسم المكان، على امرأة تعرف الوثائق القديمة. اسمها دانية، تعمل في ترميم المخطوطات وتراجع نسخ عقود العقارات التي تملكها الأسر القديمة. يعرف أنها من قومه، وأنها ليست في خدمة سادن المباشرة، لكنه لا يستطيع أن يضمن ولاءها إذا تعلق الأمر بالمجلس. قال هذا كله قبل أن يأخذ الورقة.

وافقت كنزة على إرسال الكلمات وحدها، بلا الرمز ولا القياسات. سألته إن كان يستطيع قراءتها بنفسه بعدما عاش، كما أخبرها، زمناً طويلاً. قال إنه تعلم ما احتاج إليه، وأن العمر لا يجعل صاحبه يتقن كل خط كما لا يجعلها معرفة الزليج خبيرة في كل حائط. أعجبها أنه لم يستعمل السنوات لإسكاتها، لكنها لم تقل ذلك. رسمت الحروف على ورق جديد، وأبقت الصورة الأصلية في ذاكرة لا تتصل بالهاتف.

استقبلتهما دانية في دار منخفضة لها بابان، أحدهما للعمل والآخر لا يفتحه الزوار. بدت في الأربعين، وكان شعرها مجموعاً بشريط أسود.

سألت دانية ألوكارد إن كان الاسم الذي يعرفه الناس به الآن آدم أيضاً، وأشارت لرفيقته إلى المقعد. أجاب بأنه استقر عليه منذ سنوات. قالت إن الاستقرار الطويل يجعل الأوراق أكثر أهمية، ثم دفعت السؤال جانباً ولبست نظارتها.

قرأت النسخة بصمت. عرفت أن خطها منقوص ومنقول عن نقش، وأن صاحبتها تعمدت حذف الرسم المحيط به. قالت إن الصيغة تتصل بما يسمونه عهود الإقرار، وهي مواضع تحفظ شهادتها في الحجر والدم، لا في دفتر يمكن تغييره. سألت كنزة هل هو قفل. أجابت دانية بأن القفل يمنع من لا يملك مفتاحاً، أما الختم فيثبت هوية من يلمسه وفق العهد الذي أنشئ له. بعض الأختام مات بانقطاع أصحابها أو تلف حجرها، وما بقي منها لا يعرفه إلا قلة.

أخرجت مجلداً فيه نسخ من نصوص قديمة، وقلبت إلى صورة محفورة. اختلف الرمز، واتفقت صيغة الإقرار: يقر الموضع لمن يحمل الدم المعهود، ويبطل الإقرار إذا استعمل دم محفوظ أو جسد ميت أو سائل مزج خارج صاحبه. سألت كنزة كيف يفرق الحجر. قالت دانية إنها تستطيع شرح ما شهدته المجالس وما كتب، لا ادعاء أنها تعرف كيف صار العهد إلى ما صار إليه. ثم نظرت إلى ألوكارد وقالت إن

العبارة الأخيرة في النسخة، إن كانت منقولة بدقة، تخص بيت المؤسسين، لا أسرة من الأسر الفرعية.

ترك ألوكارد يده على طرف الطاولة. حمل صورة أمه سنوات: امرأة يبحث عن قبرها. الآن أخذ يتأمل صدر الصفحة الذي يشغله نسب المؤسسين. سأل إن كانت أختام المؤسسين قد بقيت بعد انقطاع البيت. قالت دانية إن المجلس أعلن قبل زمن طويل أنه لم يبق من يجيبها، وإن كثيراً منها هدم أو غمر. عدم وجود من يفتح موضعاً لا يعني أن الموضع زال. أغلقت الكتاب، ثم سألت عما يبحثان عنه فعلاً.

قالت كنزة إن أباها اختفى بعدما رمم جداراً، وإنها تريد الوصول إلى المكان الذي رآه. وضعت صورته قرب النسخة، لترد الحديث من عمر الحجر إلى الرجل الغائب. قالت دانية إنها تستطيع الاحتفاظ بصورة الحروف ومراجعتها، لكنها لا تستطيع أن تعد بكتمان نص يتعلق بأصل البيعة إن ثبت أنه حقيقي. كانت قد أقسمت عند قبولها في دار السجلات أن تبلغ مجلس الأقدمين بما يمس شرعية الوصاية. اعترض ألوكارد بأن القَسَم يجعلها طريقاً إلى سادن. ردت: «يرِد الطلب في سجل المجلس قبل إحالته إلى الملك. هذا يمنحنا شاهداً على وصوله، ولا يضمن حمايتنا. وأنا مقيدة بقَسَم الإبلاغ؛ ينبغي إثبات ذلك بيننا الآن.»

استعادت كنزة النسخة وغادرا. طوال الطريق، أخذ ألوكارد يحسب من سيعرف بأمرهما إذا رجعا إلى دانية. قالت كنزة إنها لا تفهم لماذا يظن أن الختم سيستجيب له. أخبرها بما حدث للمشبك عند سادن، وبأن أمه كانت مصاصة دماء أخفى أبوه اسم أهلها، وبأن الملك حاول قتله بعد أن رآه. قال إن سادن قد يكون خاف من الهجين وحده، أو من اسم يعرفه، لكنهما يحتاجان إلى اختبار أقوى من ارتباك رجل على طاولة.

أرادت كنزة أن تعرف ماذا سيحدث إذا لم يفتح. قال إنهما سيبحثان عن مدخل آخر، وإنه لن يسحبها إلى قضية تخصه وينسى أباها. وضعت على الطاولة في الدكان ترتيباً واضحاً: تصوير الموقع، البحث عن أثر عبد الجليل، ثم اختبار الختم إن لم يعرضهما للتأخر أو الانكشاف. قبل. عندما مدت يدها لتجمع الأوراق، سألته إن كان قد أكل ما يكفي. نظر إليها متفاجئاً، فقالت إنها لا تريد أن تتعلم حدود الجوع وهما تحت الأرض.

استعاد من إدريس ثلاث قوارير بمال عمل أنجزه في ذلك النهار. لاحظ القصاب علامات الذراع، ثم عاد إلى إغلاق القوارير وأخبره أن رجلاً جاء إلى المسلخ يسأل عن المشترين الذين يأخذون الدم بانتظام. قال له إدريس إن المشترين يستعملونه سماداً، وإنه لا يحفظ

وجوههم. طلب ألوكارد ألا يكذب من أجله مرة أخرى إن شعر بالخطر. رد الرجل بأنه كذب قبل أن يعرف إن كان السؤال عنه، وإن عليه ألا يتخيل نفسه سبب كل قرار يتخذه الآخرون. أخذ القوارير، وشكر إدريس، وبقي واقفاً برهة يبحث عما يزيده على الشكر.

نزلا إلى القناة من فتحة أخرى بعد منتصف الليل، حين قلّ تصريف المحلات. هذه المرة حملا حبلاً ومصباحاً احتياطياً ونسخة ورقية من الطريق، وأرسلا إلى أنجل موعداً يعودان عنده إلى الاتصال. طلبا أن تحتفظ بصورة مخطط المخرج لتسليمها إلى من يقررون استدعاءه إذا غابا. وافقت بشرط ألا يكتفيا برسالة غامضة تجعلها تختار بين الشرطة وخوف لا تفهمه. أعطاها ألوكارد عنوان دانية أيضاً، وكتب أن المرأة تعرف من يستطيع دخول الموضع ليلاً.

عند الفرع الذي غمره الماء في الليلة السابقة وجدا شبكة جديدة. اختبر ألوكارد الشبكة، ثم تركها خشية أن يصل صرير الحديد إلى القصر. قاست كنزة المسافة بين الجدار والسقف، ثم أشارت إلى قناة صيانة ضيقة ترتفع فوق مستوى الرأس. كانت مرسومة في الخريطة القديمة ولم تدخل في الإصلاح الحديث. احتاجا إلى ساعة ليعبراها، يتبادلان الحقيبتين أمامهما، ويعودان خطوة كلما اصطدم الحبل بحديدة. في منتصف الطريق أسقط ألوكارد كيس الأدوات إلى

الأسفل، فحبس الشتيمة بين أسنانه. بقي معهما مصباح واحد، وشفرة صغيرة في جيب كنزة، والخنجر الذي ربطه هذه المرة إلى حزامه.

خرجا خلف الحوض الغربي. خلا الرواق من الحرس. فوق باب حديث أضاء مصباح أحمر لجهاز يجهل ألوكارد مداه. أمسكت كنزة كتفه قبل أن يعبر، ووجهت الضوء إلى خيط دقيق قرب الأرض. سلك حساس مستحدث يمتد على جدار قديم. سارا على الحافة، ثم أعادا لوح الخدمة إلى موضعه، وتأكدت كنزة من إمكان رفعه من هذه الجهة قبل أن يبتعدا عنه.

عثرا على حذاء عمل واحد تحت الرف، لا يخص الأب؛ على جانبه حرفان من اسم صابر. أما عبد الجليل فترك ما يعرفانه من طريقته: أرقاماً صغيرة على ظهر القطع المنزوعة، وخطاً فحمياً يحدد مستوى الماء، وكتلة جير موضوعة في إناء كي لا تجف. قرب الجدار وجدا أثراً بنياً على قماش استعمل للمسح. انحنى ألوكارد إلى القماش. اختلطت رائحته بالمواد، فأعاده إلى موضعه وهز رأسه لكنزة.

انخفض الماء كما توقعت كنزة حين أغلقت الصمام الصحيح. ظهرت خلف الحوض بلاطة ليست من حجر الجدار. نزعا الحافة التي أضعفها عبد الجليل، فبدت حلقة برونزية مطمورة. رفعها ألوكارد، ودارت قطعة أرضية على محور يطابق الرسم الذي جاء به الأب إلى

الدكان. تحتها درجات قصيرة تنتهي إلى باب حجري، لا قبو سجن. وجدت كنزة على أول درجة علامة صنعها أبوها بطرف قلم: سهم صغير يعود إلى الخارج. لمسَته، ثم سحبت يدها كأنها خشيت أن تمحوه.

كان الختم في الباب، دائرة ناقصة وأغصان وشق في الوسط. على الحافة قرآ العبارة التي أكملتها دانية، وتحتها نص آخر: لا إقرار إلا من حاضر يعلم ما يطلب. وقف ألوكارد عند كلمة «يعلم». كان الموضع يتطلب فعلاً يقصد صاحبه ما وراءه، لا مجرد دم يلامس الحجر. طلب من كنزة أن تصوره كاملاً قبل أن يفعل شيئاً، وأن تبقى الكاميرا ثابتة من موضع يظهر يده والباب معاً. سألته إن كان يريد التوقف. قال نعم، ثم أضاف إنه سيفعل ما جاء من أجله رغم ذلك.

جرح جانب إصبعه بحد الشفرة النظيفة، ووضع كفه على الشق. قال بصوت يسمعه هو وكنزة: «أطلب الإقرار، إن كان لي في هذا الدم حق.» لم يطلب ملكاً، ولم يفكر في عرش. أراد أن يعرف لماذا مات أبوه وهو يحمل له رسالة، ولماذا أخذ سادن من يده آخر قطعة تخص أمه ثم أرسل رجاله خلفه. بقي الحجر بارداً لحظات. بدأت كنزة تخفض الكاميرا قليلاً، ثم توقفت.

تحرك الدم إلى الداخل، عكس ميل الكف. اختفى عن الجلد وظهر تحت الحجر، خيطاً داكناً يتفرع حتى وصل إلى الأغصان الثلاثة.

سمع ألوكارد نقرة عميقة، ثم انفتح خط في وسط الباب، لا يتسع بعد إلا لظل. ارتجفت يده. كان يستطيع أن يقاتل رجلاً يشك في نسبه، لكنه لم يعرف كيف يقف أمام حجر لا يشك.

انفرج الباب ببطء. خلفه غرفة ضيقة، فيها مقعد حجري ورفوف مغلقة، وعلى الجدار أسماء منقوشة تآكل بعضها. غطى العتبة غبار متصل، تتراكم حباته في الشقوق. فهمت كنزة قبل أن تتكلم: أبوها لم يدخل هذه الغرفة. كان قد وجد الباب، ووجد غيره سبباً كافياً لأخذه.

في الداخل لوح معدني يثبت العهد الذي وصفته دانية، وفي أعلاه اسم البيت الأول بصيغة قديمة تعثر ألوكارد في نطقها. كان هذا المكان أقدم منها ومن أبيها، ولا يعرف أحفاده واحداً واحداً. أعطاه جواباً عن الأصل، وترك له الناس الذين جعلوا ذلك الأصل حياة. صورت كنزة اللوح والأسماء والعتبة، ثم بحثت عن أثر يدل على موضع احتجاز خلف الجدار. وضعت كفها على الحجر المغلق، وشعرت لأول مرة منذ بدأت البحث بأن المعرفة تستطيع أن تكبر فيما يبقى الرجل المفقود بعيداً كما كان.

سمعا الحركة في الأعلى قبل أن يكملا التصوير. انقطع صوت المضخة، ثم أضاء الرواق من شق الباب. عاد ألوكارد إلى العتبة،

وأبعد كفه عن الختم، لكن الباب لم يغلق حتى مرّا معاً إلى الخارج. انطفأ الخيط تحت الحجر وتلاشى الشق. بقيت في يده نقطة دم، وفي ذاكرة كنزة مقطع لا يزيد على دقائق، وفي المكان أثر لا يستطيعان محوه: الحوض لم يعد إلى موضعه تماماً.

اختارا قناة الصيانة نفسها. أسرعا إلى الخروج وتركا الموجودات مكانها؛ كانت الخطوات فوقهما تقترب. عند الشبكة الجديدة سمع ألوكارد صوتاً يعرف هدوءه، ولو اختلفت اللغة التي يستعملها ليوجه رجاله. قال ريّان إن الماء أغلق من الداخل، وإن عليهم البحث في الموضع المرتفع قبل المجرى. دفع ألوكارد الحقيبة إلى كنزة وطلب منها أن تواصل. خرج صوته مبحوحاً حين تعرف إلى صوت المطارد القديم.

خرج الاثنان قبل الفجر بقليل. عند أول موضع فيه إشارة أرسلت كنزة إلى أنجل: خرجنا. ثم جلست على الرصيف، وحاولت فتح مقطع الختم. اشتغل الصوت قبل الصورة، فسمعت صوت ألوكارد يقول إنه يطلب الإقرار. أوقفت التسجيل. رفعت عينيها من الشاشة إلى وجهه.

قالت: «فتح لك الحجر. جيد. أبي ما زال وراء جدار آخر، لن أتركه لأقف أتفرج على تاجك.»

أجابها بأن الختم لن يعيد أباها وحده، وأن الخطوة التالية هي العثور على من يعرف إلى أين ينقلون العمال. جلس يفكر في الحق الذي أثبته

الحجر، وفيما قد يطلبه الناس منه بسببه. أخذ حقيبتها حين رأى يدها ترتجف، وأعطاها المصباح كي تحمل شيئاً تستطيع التحكم فيه. مشيا حتى ابتعدا عن باب القصر الذي لم يرياه، ثم افترقا عند شارع بدأ عمال النظافة يغسلونه بماء جديد.

الفصل الخامس عشر

ما لا يصلح إخفاؤه

أغلقت أنجل باب العيادة عند الثامنة صباحاً، ثم وقفت داخله تعيد عد المفاتيح. كان مفتاح خزانة الأدوية موجوداً، ومفتاح المكتب كذلك، أما الثالث فلا تتذكر ما يفتح. تعرف هذا النوع من التعب: لا يسرق المهارة التي يحتاج إليها المريض، بل يبدأ بالأشياء الصغيرة بعدما يخرج آخرهم. وضعت المجموعة كلها في حقيبتها ولم تبحث عن جواب الآن. في الخارج انتظر ألوكارد، يحمل كيس خبز وقنينة ماء، وقد اختار بقعة ضيقة من الظل لا تصلح لجلوس شخصين.

قال إنه جاء ليفي بوعده. خفض صوته حين مرّ عامل في الممر، وانتظر حتى ابتعد. اقترح مقهى قرب البحر، فاختارت هي مطبخ العيادة، بعد أن طلبت من هناء أن تبقى في مكتب الاستقبال إلى حين تنتهي. فهم الاختيار، ولم يبد عليه جرح رجل ظن أن حسن قصده يكفي كي يطمئن الآخرون. جلس إلى طاولة عليها علبة سكر وقائمة من مواد نفدت، ووضع كيس الخبز في منتصفها.

بدأ من اسمه. قال إن آدم اسم في أوراقه، وإن اسمه ألوكارد. ثم أخبرها أنه ليس مريضاً بمرض يجعل جروحه تلتئم سريعاً، وأن ما رأت في ذراعه من عضة حقيقية، وأن الكائنات التي تسميها الحكايات مصاصي دماء ومستذئبين تعيش بين سكان المدينة. سكت بعد ذلك، لا ليجعل للكلام وقعاً، بل ليترك لها حق إيقافه. سألت عن الدم الذي يحتاج إليه، ومن يحصل عليه، وما الذي يحدث حين لا يحصل على كفايته.

أجاب بالتفصيل الذي كان يخشاه. أخبرها عن الحيوان، وعن أن الإنسان الحي يمنح أمثاله قوة أكبر، وعن الجوع الذي يبدأ تشوشاً في السمع ويصير رغبة لا يجوز له أن يختبرها قرب شخص عاجز. قال إنه لم يشرب من مريض حمله، ولا من إنسان أخفى عنه ما يفعل. اعترف بأنه ابتعد عن الطفل في الزقاق لحظة لأنه شم جرحه، وأنه استدعى آخرين للمساعدة كي لا يجعل حياة الصغير رهناً بثقته في نفسه.

وضعت أنجل كفيها على الطاولة. تذكرت حركته إلى الخلف، وكانت قد فسرتها خوفاً من الدم. قالت: «دخلت بين مرضى ينزفون. ما الذي كان يمكن أن يحدث لو جعت أكثر؟ أحتاج جواباً، ألوكارد، لا طمأنة. ومن الآن تخبرني قبل الدخول. تقدير سلامة القسم مسؤوليتي أيضاً.»

قال إنه سيخبرها، ولن يأتي إلى موضع فيه نزف إذا لم يكن قد تغذى بما يكفي. صححت له: لن يكون ذلك قاعدة طبيعية يمكنها ضمانها؛ سيكون التزاماً منه تستطيع محاسبته عليه. أقر. سألته بعد ذلك إن كان دمه مؤذياً للبشر. قال إنه لم ير ما يثبت ضرراً من ملامسة جلد سليم، لكنه لا يعرف كل ما قد يحدث إذا دخل جرحاً أو نقل إلى جسد آخر، وإنه لا يعطي دمه للعلاج. أخبرها بما يعرفه عن أذاه للذئاب، ولم يقدم التجربة التي نجا منها بنفسه برهاناً على سلامة الآخرين.

احتاجت إلى وقت قبل أن تسأله عن عمره. قال إنه ولد حين كانت تازرون تحكم الوادي من قصبتها، وإنه لم يعد يعد كل سنة على حدة بعدما تغيرت التقاويم التي يستعملها في أوراقه. يستطيع تحديد بعض الحوادث التي شهدها، لا كل تاريخ يحفظه الناس اليوم. ظل وجهه وجه شاب، وهذا ما جعل الكلام أصعب. قالت إن معرفة رجل عاش ما يصفه وهو يختبئ خلف عمر مزيف تشبه الدخول إلى غرفة لا يرى المرء إلا بابها. أقر بثقل فرق العمر؛ يخفي خلف وجهه تاريخاً تحتاج إلى معرفته كي تختار الاقتراب منه.

حكى لها عن أبيه، وعن استيقاظه في ساحة قصبة، وعن أخ دفعه الخوف خطوة إلى الوراء ثم أنقذه من القتل. توقف عند الماء الذي

سأله عنه في آخر لحظاته، ثم وجد نفسه ينظر إلى القنينة التي حملها معها اليوم. تعثر صوته، فأخذ نفساً وأكمل. رأت أنجل الجهد الذي يبذله كي يخرج الكلام واضحاً. أبقت يدها قرب الكأس ولم تمدها إليه لمجرد أن الصمت احتاج إلى شيء.

حين سألته عن أخيه، قال إنه حي، وإنه يحكم الجهة التي يبدأ عندها الطريق إلى الجبل. لم يشرح كيف امتد عمره، يعرف أن الحكم يحمل عهداً، ولا يعرف ما بقي من شروطه في المجالس المغلقة. قالت إن عليه أن يكره أخاً نفاه. أجاب بأنه يكرهه في بعض الأيام، ويشتاق إليه في أيام لا تأتي بعدها بالضرورة، وأنه لم يجد عبر السنين طريقة تجعل أحد الشعورين يلغي الآخر. خرج الجواب عفوياً، ثم انشغل ألوكارد بفتات الخبز على الطاولة.

ثم أخبرها بالختم. أراها مقطعاً كاملاً، وتركها تشاهده مرتين. قالت إن الصورة وحدها لا تثبت ما يقول، وإنها لو رأتها قبل ذراعه لظنتها خدعة. وافق. لهذا يحتاجون إلى شهود يختبرون الموضع نفسه، لا إلى نشر مقطع يجعل الناس يتشاجرون على تفسيره. سألت عما يريد فعله إذا ثبت حقه. قال إنه يريد أن يجد عبد الجليل، وأن يبقى الذين ساعدوه أحياء. نظرت إليه كأنها تنتظر بقية الجواب، فأضاف أنه لا

يعرف بعد إن كان يستطيع البقاء خارج صراع بدأ قبل مولده ثم دخل كل بيت يحاول الاختباء فيه.

نهضت لتفتح النافذة قليلاً. تحرك الضوء على الطاولة، فأزاح ألوكارد يده. راقبته من غير أن تطلب منه إثباتاً بالحرق. كان لديها ما يكفي من الأدلة الغريبة وما يزيد من الأسئلة. قالت إنها خائفة منه ومن الذين يتبعونه، وإن معرفتها لا تحول الخوف إلى ثقة فوراً. ثم سألته لماذا جاء الآن لا بعد أن تحولت العيادة إلى عنوان لمنير. قال إنه أخّر الحقيقة لأنه خشي أن يفقد المكان الوحيد الذي لم يسأله فيه أحد عن نسبه، وإن هذا سبب مفهوم له، لكنه ليس عذراً لما جعلها تتحمله بلا علم.

جاء الاعتذار واضحاً، فلم تحتج إلى استخراج نصفه الآخر. قالت إن مساعدتها لصابر ستستمر لأنها مسؤولة عن مريض اختار أن يبقى حياً، وإن علاقتها بألوكارد تحتاج إلى وقت لا يجوز له اختصاره بإنقاذ آخر. ستخبر هناء بما يلزم لحماية العاملين، وتستشير من تثق به إذا صار الخطر أكبر من قدرتها. وافق على أن تخبرها بطبيعته إن رأت ذلك ضرورياً، وطلب فقط ألا تعطي عنوان إدريس أو أسماء من لم يختاروا الدخول في الأمر.

ظل بينهما كيس الخبز مغلقاً. فتحته أنجل أخيراً، وأخذت قطعة صغيرة، ثم سألته إن كان يستطيع الأكل. قال إنه يستطيع تذوق بعض الطعام، وإنه لا يمنحه ما يحتاج إليه. دفعت نحوه قطعة وانتظرت أن يأخذها. أخذها وشم الخميرة قبل أن يقضم. ابتسمت للمرة الأولى منذ بدأ الحديث حين وجد في جيب معطفه ملعقة العيادة التي ظن أنه أعادها قبل أيام. وضعها على الطاولة وقال إنه يستطيع أن يشرح أشياء كثيرة، لكن ليس هذه.

ضحكت مرة قصيرة، ثم وضعت الملعقة في الحوض. تركت لهما الضحكة فسحة قصيرة قبل العودة إلى الأسئلة.

عادت أنجل إلى شقتها بعد اللقاء، ووجدت نبتة الريحان التي اشترتها قبل شهر تميل نحو النافذة. سقتها أكثر مما ينبغي، ثم فرغت الصحن الذي تحتها وفتحت الستارة. كانت هذه أول مرة تدخل فيها الشمس الغرفة بعد ثلاثة أيام من خروجها قبل الصباح وعودتها بعده. خلعت الحذاء عند الباب، وبقيت واقفة لحظة تتأمل المكان الذي لا يعرف شيئاً عن حياتها الجديدة. الأطباق في الحوض، وكتاب مفتوح على الصفحة نفسها، ورسالة من صاحبة الشقة تسأل عن موعد إصلاح تسرب في المطبخ. أجابت عن التسرب أولاً. احتاجت إلى مسألة يمكن حلها باتصال.

فتحت دفتراً تستعمله لملاحظات العمل غير المتعلقة بأسماء المرضى، وكتبت ما تعرفه عمن جاءوا إلى العيادة، وما رأته بنفسها، وما أخبرها به ألوكارد ولم تستطع اختباره. فرقت بين الثلاثة بخطوط بسيطة. كانت تخشى أن يمنحها خوفها يقيناً زائفاً كما يمنحها ميلها إلى الرجل عذراً سهلاً. عند السؤال الذي يخص شعورها تركت الصفحة بيضاء.

اتصلت بهناء قبل أن تغلق الهاتف. سألتها إن كان المدير قد أجاب عن طلب زيادة ساعة حراسة في المساء، وتحدثتا عن راتب السائق الذي تأخر، وعن مريضة تنتظر موعد متابعة. ثم أخبرتها أن هناك خطراً حقيقياً متصلاً بصابر، وأنها ستشرح ما يلزم وجهاً لوجه قبل المناوبة التالية. وحين سألتها هناء إن كان الرجل الذي يحمل المفاتيح سبباً في بقائها، قالت أنجل إن أسبابها كانت موجودة قبل أن تعرفه، لكنه جعل تجاهل بعضها أصعب. أغلقت الهاتف واستلقت فوق الغطاء، ونامت من غير أن تضبط المنبه؛ كانت قد طلبت من زميلتها أن تتولى الساعات الأولى، وللمرة الأولى منذ أيام قبلت المساعدة كما تقدمها للآخرين.

في المساء اجتمعوا في الدكان: كنزة، وأنجل، وألوكارد، ومعهم دانية التي قبلت أن تأتي بعد أن رأت صورة الختم وحده. أبقت المرأة هاتفها مغلقاً وطلبت من كنزة تشغيل التسجيل من الذاكرة الأصلية.

دققت في حركة الدم وفي النقش والعتبة التي لا تحمل غبار قدم حديثة، ثم قالت إن المشهد يستحق تحقيقاً من المجلس، وإنها لا تستطيع إعلان وريث على أساس شاشة. ارتاح ألوكارد إلى طلب الإثبات؛ أجاب عن أسئلتها وأعاد تشغيل المقطع.

شرحت دانية أن الوصاية التي يحكم بها سادن قامت على انقطاع الدم المؤسس، وأن ظهور من يجيب الختم يسقط أساسها إن ثبت بحضور الشهود المعتمدين. ليس معنى ذلك أن المجلس سيقبله طائعاً؛ في المجلس من عاش من حكم سادن، ومن يخشى فراغاً يأكل مدنه، ومن يعبد النسب لأنه يعفيه من الاختيار. لكنه يصبح مضطراً إلى سماع الدعوى، أو إلى خرق العهد الذي يزعم حراسته. قالت كنزة إن أباها قد يُقتل قبل أن يفرغوا من أسماء الشهود.

كانت هذه العقدة التي جاءوا من أجلها. اقترحت دانية إبلاغ عضوين معروفين باستقلالهما، بنسخة محدودة تطلب حفظ الموقع وحماية الحرفي المفقود بوصفه شاهداً. لن تعطي عنوان الدكان أو أسماء العاملين في العيادة. سيعرف العضوان أن شاباً أجاب الختم وأن شاهداً بشرياً اختفى قبله؛ وسيطلبان معاينة رسمية لا يستطيع سادن منعها بلا تفسير. لكن دانية رفضت الوعد بأن الخبر سيبقى سراً. لدى الأعضاء

كتبة وحرس، ويستطيع الخوف أو الطمع أن ينقل الكلام أسرع من ختم الطلب.

قال ألوكارد إن عليهم أن ينتظروا حتى ينقلوا أمينة وصابر إلى موضع أبعد. اعترضت كنزة أولاً؛ كل تأخير قد يعني نقل أبيها مرة أخرى. سألتها أنجل إن كانت تريد أن تعرف أمها الحقيقة قبل أن يأتي من يبحث عنها. فكرت كنزة طويلاً، ثم قالت إن يوماً واحداً للنقل لا يجعلها تتخلى عن أبيها. اتفقوا على ألا يرسل الطلب قبل تأكيد وصولهما، وعلى ألا يعتمدوا مكاناً يعرفه واحد منهم فقط. كتبت كنزة الأسماء على ورقة منفصلة، ثم احتفظت بها بعيداً عن صور الختم.

حمل نقل أمينة وجعاً فاجأ كنزة. جلست الأم على حافة السرير وقالت إنها لن تترك البيت إذا رجع عبد الجليل ولم يجد أحداً. أخذت كنزة دفتر أرقام الجيران، واختارت امرأة بقيت خارج البحث كله لتتلقى أي خبر عن عودته، ثم كتبت على ورقة داخل صندوق الرسائل رقم خالتها. قالت لأمها إن البيت يعرف كيف ينتظر رجلاً أكثر مما تعرفان كيف تحميان نفسيهما فيه. اعترضت أمينة على العبارة، وقالت إن البيوت لا تنتظر أحداً، ثم قامت تجمع ثياب زوجها معها.

ذهب ألوكارد إلى إدريس ليقطع موعد التسليم المنتظم. وجد المحل مغلقاً قبل وقته، وصاحب المسلخ جالساً في الداخل يحسب فواتير على

ضوء مصباح صغير. أخبره بأن السؤال عنه قد يتكرر، وأنه سينهي التعامل حتى يبعد الخطر عن المسلخ. غضب إدريس لأنه فهم الكلام كأنه قرار يتخذه زبون في حياة رجل آخر، ثم هدأ حين أعطاه ألوكارد ما بقي من دين الدواء وأخبره بأنه لا ينتظر خدمة إضافية. خرج ألوكارد ومعه عنوان مورد آخر، أعطاه إدريس بإصرار لأنه لا يريد أن يحوّل الصديق اعتذاره إلى جوع.

في اليوم التالي انتقلت أمينة إلى قريبة خارج المدينة، وصابر إلى مكان اختارته أخته بالتنسيق مع الفريق الذي يتابع علاجه. اكتفى ألوكارد برسالة وصول، وترك العنوانين مع من تولوا النقل. عندها فقط سلموا دانية النسخة. ذهب معها إلى دارها، وحمل مظلة رغم أن السماء صافية؛ بقيت آثار الشمس في يده من انتظار طويل عند محطة الحافلات. قالت إن بعض المولودين من قومها لا يستطيعون السير نصف ما سار حتى تحت القماش. كان قد سمع ملاحظة شبيهة من سليم منذ زمن يجعل عودة الكلمات موجعة.

كتبت دانية الرسالة أمامه، وأعطته نسخة. وضعت اسم ألوكارد الحقيقي بوصفه طالب الإقرار. تركت خانة الأم إلى حين ثبوت نسبها، وخانة الأب لمرحلة التحقيق. اعترض لحظة، ثم فهم أن مجلساً يستدعى إلى دعوى لا يستطيع التحقيق في اسم مستعار لا يخص أحداً. استعاد

خط توقيعه القديم ببطء. صار اسمه الآن بين أيدي من تفاداهم سنوات.

وصلت الرسالتان إلى العضوين قبل منتصف الليل. طلب العضو الأول تثبيت الموضع بحراسة مشتركة، وأحال الثاني الطلب إلى كاتبه لتسجيله خارج جدول الجلسات العادية. كان الكاتب بشرياً، يعرف من أسرار المجلس ما لا يعرفه كثير من خدم القصر، وقد بقي ابنه يعمل في مكتب منير بعد دين لم يسدد. قرأ اسم ألوكارد مرتين، ثم صور الصفحة بهاتفه وأرسلها إلى رقم لا يحمل اسماً. قال لنفسه إنه يبلغ الجهة التي تستطيع حماية ابنه من تحقيق قد يبتلع المكاتب الصغيرة أولاً.

بعد ساعة أغلقت بوابة قصر السرو من الداخل، ونقلت صناديق من الرواق الغربي إلى سيارة بلا علامة. رأى ذلك صبي يبيع السجائر عند رأس الشارع، فأخبر أخاه الذي يعمل مع كنزة في نقل المواد. حاولوا تمييز أحجام الصناديق من وصف الصبي، وتوقفوا عند السؤال عن سيارة ثانية. حين وصل إلى كنزة، كانت قد بدأت تظن أن الطلب الرسمي سيجعل العالم ينتظم في أوراق يمكن متابعتها. وضعت الهاتف على الطاولة ولم تتهم أحداً. قالت إنهم سبقوهم إلى حركة لا يعرفون معناها.

جاء اتصال دانية بعده بدقائق. أخبرتهم أن المعاينة تأجلت بحجة تسرب ماء، وأن حرساً من جهة سادن وضعوا يدهم على الموقع قبل وصول ممثلي المجلس. سألت ألوكارد إن كان اسم أمه سيرين. قالت إن الاسم ورد في استدعاء جاءها يطلب تسليم «الرجل المدعي» وكل النسخ التي في حوزتها. لم تكن قد كتبت اسم الأم في أي ورقة. عرفوا عندها أن الرسالة بلغت رجلاً يعرف سيرين، ويحمل عن ابنها أكثر مما أخبروه.

بقيت النسخة خارج أيديهم. عادوا إلى الطاولة لحساب ما يجب فعله الآن. قالت كنزة إنهم اختاروا طريقاً خطره معلوم، وإن غضبها لا يغير ذلك. لكن عليهم الآن أن يعاملوا الختم موضعاً قد يُمنع دخوله، لا حصناً يحميهم وحده. أخرجت الذاكرة الأصلية وقسمت النسخ بين موضعين، وأبقت قائمة العناوين منفصلة. طلبت من ألوكارد ألا يأخذ الأصل معه. كان قد مد يده إليه تلقائياً لأنه اعتاد أن يحمل ما يريد حمايته، ثم سحبها.

في آخر الليل دخلت أنجل الدكان لتخبرهما أن إدارة العيادة تلقت طلباً بمراجعة سجلات الصرف والزيارات، وأن منير اتصل يسأل عنها بالاسم. قالت إنها أبلغت زملاءها بما يكفي للاستعداد، وإنها ستبقى في العيادة حتى يؤمنوا الأدوية والملفات التي لا تخص القضية. حاول أن

يعترض، فتذكر ما اتفقا عليه في المطبخ. سألها بدلاً من ذلك عمن تريد أن يرافقها، وما الذي يمكنه حمله.

عند الباب أمسكت يده لحظة، وتحسست بإبهامها أثر الحرق الجديد، ثم أطلقتها. قالت إن عليه أن يتوقف عن معاملة جلده كما يعامل الأدوات التي يتركها في المطر. أجاب بأنه يحاول، ولم يضف مزحة. مضت إلى السيارة، وبقي يتأمل الموضع الذي لمسته.

حين عاد إلى الداخل كانت كنزة قد رفعت اللوحة الخشبية من فوق الباب. وضعتها على الطاولة وسألته أين يريد حفظها إذا اضطر إلى الإغلاق. نظر إلى الكلمات التي كتبها بنفسه: ترميم الأبواب والأثاث.

طلب منها أن تتركها حيث يستطيع صاحب النافذة العثور عليه حين يحتاج إلى إصلاح آخر.

الفصل السادس عشر

الحملتان

حين دخل ريّان على سادن في المساء التالي، كانت صورة ألوكارد مطبوعة على ورقة عادية، لا على الجلد الذي حفظ وجوه المطلوبين في العصور القديمة. التقطتها كاميرا عند باب مستشفى، في لحظة انحنى فيها ليسلم مفتاحاً إلى رجل. انثنت زاوية الورقة تحت كوب ماء، وترك الحبر الخفيف على الحافة مسحة زرقاء. كانت أول صورة واضحة تصل إلى الملك، وأكثرها إهانة للقائد: الفتى الذي جعله يموت في مخزن لم يعد من جيش أو قبر، بل من ممر علاجي، يحمل شيئاً صغيراً يخص حياة رجل آخر.

وضع سادن إصبعه على الوجه وسأل ريّان كم مرة قرأ تقرير الحريق خلال السنين. قال القائد إن التقرير بني على الشهادات وما وجد في المكان، وإنه لم تظهر بعد ذلك علامة مؤكدة على النجاة. انتظر الملك حتى أكمل دفاعه، ثم أخرج من درج الطاولة مشبك الحافظة المتفحم. بقيت القطعة التي ظن ريّان أن الملك تخلّص منها، محفوظة في كيس

قماش ناعم. قال سادن: «هذه لا تشبه عظمة، ولو تركناها في النار زمناً أطول.»

كان الاعتراف الكامل سيعطي الملك رجلاً يستطيع قتله ولا يفيده. اختار ريّان أن يقول إنه أخطأ حين جعل الاحتمال يقيناً. أقر بأن الفتى ربما خرج عبر الماء. نظر سادن إليه نظرة استقرت طويلاً على الندبة، ثم قال إن الأخطاء التي تعيش قروناً تحتاج إلى أكثر من اعتذار. أمره أن يستعيد الرجل حياً، وأن يمنع أي عضو في المجلس من الوصول إليه قبل اكتمال «التحقق من الخديعة». صارت حياته معلقة بالمهمة التي حاول دفنها.

قرب يد الملك ملف آخر، فيه عقد ترميم وصورة عبد الجليل ورقة دخول قديمة. سأل هل تتوقف عمليات النقل من الرواق. قال سادن إن ما يلزم نقله نُقل، وإن الموقع سيعلن غير آمن حتى انتهاء فحص الأساس. لم يضف أن الحجر الذي يستجيب للدم بقي هناك؛ لم يكن قادراً على حمل العهد في صندوق كما يحمل الأوراق. لكنه يستطيع أن يمنع الناس من أن يقفوا أمامه، وأن يسمي كل من يطلب المعاينة شريكاً في اختراق مدبر.

وصلت إلى أعضاء المجلس في تلك الليلة مذكرة تصف ألوكارد بأنه ابن البيت الحاكم في تازرون، أُرسل لاستعمال دم مختلط في خدعة

تهدد استقلال المدينة. أقرت المذكرة بحركة الختم، وطعنت في معناها: حامل الدم المختلط يستعمل دم العدو لاختراق حكم المدينة. اختار سادن الجزء الذي يستطيع إثباته من الحقيقة، وأحاطه بما يريدهم أن يخافوه. أما اسم سيرين فغاب من المذكرة، كما غاب من سجل المغادرين يوم الحريق.

في تازرون، وراء النوافذ التي صارت زجاجاً مزدوجاً فوق الحجر القديم، كان وارث يسمع عرضاً عن طريق شاحنات تعطلت عند الحدّ. تغيّر الأثاث والخرائط، وبقيت الطاولة في موضع يسمح له برؤية باب القاعة. لم يجلس وظهره إلى الباب منذ مات أبوه. أمامه رجال يحملون أسماء أحفاد الرجال الذين بايعوه أول مرة؛ بعضهم أبقى اللقب ليبدو امتداداً، وبعضهم غيره ليخفي ديناً قديماً. أما هو فبقي الوجه الذي لا يستطيع أحد أن يرثه ما دام حياً.

أدخل كاتبه ملفاً من المدينة، فأشار وارث إلى المتحدث أن يتوقف. رأى الصورة، ثم قلب الورقة كأنه يريد التحقق من شيء في ظهرها. بقيت أمامه يد ألوكارد على مفتاح، والكتف الذي يعرف ميله، والوجه الذي احتفظ بالعمر الذي غادره فيه. عرف نجاته منذ زمن، من خبر لا يملك الرجال في الغرفة حق السؤال عنه. ما أوقفه أن أخاه اختار أخيراً أن يترك اسمه الحقيقي في طلب إلى المجلس.

طلب إخلاء القاعة. حين بقي وحده، أخرج من الخزانة قطعة معدن صغيرة: الحلقة التي كانت تثبت حزام سيف قديم. كان الخادم يعيدها إلى الخزانة كلما نظفها، مستغرباً حرص الملك على حلقة مهترئة. وضعها قرب الصورة، ثم أعادها سريعاً قبل أن يسمح للكاتب بالدخول. سأله عن مصدر الخبر، وعن عدد النسخ التي خرجت، وعن المرأة التي شهدت الختم. كان يعرف أن أخاه، حتى في صورة رديئة، يقف كأنه ترك شيئاً خلفه وينوي العودة إليه.

قال الكاتب إن مجلس المدينة منقسم، وإن سادن سيطلب تعاون العشائر ضد متسلل يدعي حقاً لا يملكه. أعاد وارث الورقة إلى الملف، وأمر بعدم استعمال لفظ متسلل في بياناته. في مجالس الجبل سيقال إن سادن يأوي خطراً ولد من مخالفة العهد، وإن العشائر لا تسمح بتحويل دمها إلى ذريعة لملك آخر. كان يريد أن يجمع زعماء الطرق حول خوف يعرفونه، لا أن يبدو حارساً لعرش الساحل. صيغتان مختلفتان للرجل نفسه، وكل صيغة تصل إلى أناس لم يروا الطفل الذي ضعفت قوته في ساحة القصبة.

في الاجتماع التالي طالب رئيس فرع السهل بقتل ألوكارد قبل أن يجمع أنصاراً. كان يحمل لقب رجوان، لا عمره ولا ذاكرته، ويميل إلى الأمام بالطريقة نفسها التي وصفها وارث في عقله ألف مرة. رفع الملك

يده، فتوقف الرجل في منتصف العبارة. قال إن المطلوب يسلّم حياً إلى حرسه، وإن من يمسه قبل التحقيق يتحدى أمر التاج. خفض رئيس السهل رأسه، لكنه سأل إن كان الأمر حماية لأخ. بقي وارث ساكناً حتى بدأ الرجل يندم، ثم أجابه بأن القرابة لم تمنع النفي ولن تمنع الحكم.

لم يكن في القاعة من يعرف إن كان يقصد الحكم على أخيه أو الحكم بسببه. اكتفى الجميع بما يستطيعون ترديده خارجها: الطرق ستغلق في وجه المطلوب، ومن يؤويه يعطل أمن العشائر. وعندما خلا المجلس، بقي وارث ينظر إلى يده فوق الطاولة. الخاتم ضيق كما كان، ولم تتغير الأصابع حوله. ضغط بإبهامه على أثر قديم في راحته، ثم أغلق الملف من غير أن يمزق الصورة.

بدأت الحملتان في حياة الناس قبل أن تحمل اسميهما. عند مستودعات الحافلات تأخرت الرحلات بحجة مراجعة الهويات. في الأحياء القديمة جاء موظفون يحملون أوامر فحص للورش التي تعمل قرب مبانٍ مهددة. تلقى مراد اتصالاً يعرض عليه سكناً بديلاً إن وافق على توقيع إفادة بأن المرمّم تدخل في شجار لا يعرف أصحابه. رفض في البداية، ثم طلب مهلة ليتحدث إلى زوجته. فكر مراد في ابنه وفي باب البيت، وسأل كم سيبعد المسكن الجديد عن المدرسة.

وصل التحذير إلى ألوكارد من صاحب النافذة. جاء الرجل بلا نافذة هذه المرة، وبقي عند الباب كأنه يشتري شيئاً سريعاً. قال إن اثنين سألاه عن موعد تسليم العمل، وإنهما يعرفان أنه جاء إلى الدكان أكثر من مرة. أخبرهما بما حدث، ولم يعرف إن كان قد أضر به. قال ألوكارد إنه لم يفعل ما يستدعي الاعتذار، وطلب منه ألا يكذب إذا سئل ثانية. ثم أعطاه المفصلة الثالثة التي اشتراها خطأ، وقال إنها قد تلزمه للجهة الأخرى. قبض الرجل عليها وهز رأسه، ثم وضعها في جيبه.

بعد خروجه جمع ألوكارد ما يستطيع حمله. وضع ثلاث قطع خشب بلا فائدة في الحقيبة، وأغفل الدواء الذي يحتاج إليه صابر، ثم تذكر أن الدواء عند أنجل أصلاً. فتح درجاً يبحث عن الأوراق فوجد الحذاء الصغير الذي أصلحه، وقد نسي تسليمه. حمله إلى بيت الطفلة. أعطته أمها قطعة حلوى، وأرادت دفع الأجر، فاعتذر عن التأخر ولم يقل إنه قد لا يعود.

عند رجوعه كان رجلان من البلدية يقيسان عرض باب الدكان. خلفهما وقف حارس بشري، وفي الجهة الأخرى من الشارع رجل لا يتأثر ببرد المساء. دخل من ورشة الجار وصعد إلى السطح، حيث وجد كنزة تحمل ذاكرة الصور وحقيبة أمها التي لم تستطع أخذها في السفر. قالت إن دانية أرسلت عنواناً مؤقتاً، وإن عليهم الخروج من

جهة الحي المرتفع. سألها عن أنجل، فقالت إنها ما زالت في العيادة، تنقل المواد التي طلبت الإدارة حمايتها من الجرد المفاجئ.

كان يمكنهما الوصول إلى العنوان قبل إغلاق الطريق. من السطح رأى سيارة تقف عند أول الزقاق، ورجلاً يصعد نحو البيت الذي خرجت منه الطفلة قبل قليل. امتد التفتيش إلى بيوت من تحدث إليهم. رأى يد الرجل تحجز الباب الذي حاولت الأم إغلاقه. وضع الحقيبة على الأرض. قالت كنزة إن العودة ستكشف موقعه، ثم رأت وجهه ولم تطلب منه أن يتظاهر بأن الحساب مختلف.

علقت كنزة حقيبته فوق كتفها، ونزل هو من السلم الخلفي، وظهر عند مدخل الزقاق قبل أن يدخل الحارس البيت. ناداه باسمه الذي في الورقة: آدم، ثم قال إنه صاحب الدكان وإنه يستطيع الإجابة عن أسئلة المعاينة. التفتت العيون كلها إليه. خرجت الأم من خلف الباب تحمل الحذاء في يدها، وتوقفت حين رأت رجلين يقتربان من الجهتين. طلب منها ألوكارد أن تدخل، وأبقى صوته عادياً كأنه يعتذر عن ضوضاء إصلاح.

طلب الموظف بطاقة هويته. مد ألوكارد يده ببطء، ثم سمع من خلفه احتكاك معدن بحجر. قال إنه سيسلم نفسه إذا تركوا الجيران وشأنهم وسمحوا له بالاتصال بمحام. أراد أن يستدرج صاحب الأمر إلى

الرد. الرجل البارد وحده تقدم، وقال إن الأوراق لا تلزم في مسألة يعرف صاحبها اسمه الحقيقي. حمل صوته النبرة التي سمعها تحت القصر، وإن لم يكن ريّان نفسه.

انفتح شباك فوقهم، وطلبت امرأة أن يتوقفوا عن سد الطريق. ظهرت هواتف، كما ظهرت ليلة مراد. واصل الرجال تقدمهم تحت الهواتف المرفوعة. أمسك أحدهم بذراع ألوكارد، وسحب آخر قطعة قماش ثقيلة من حقيبته. رأى ألوكارد الفضي على طرف الإبرة، ولم يمنحهم فرصة ليعرف ما فيها. أدار يد الأول، ودفع الثاني إلى الحائط بقوة جعلت الجص يتساقط. صاحت المرأة في الأعلى. تعالى الصراخ حين رأوا قوة الضربة؛ بقي الرجلان يتحركان على الأرض.

اندفع نحو السلم، فانطلق خلفه الرجل البارد بسرعة رآها الحارس البشري فتجمد في موضعه. كان ألوكارد يعرف عتبة مكسورة عند المنعطف؛ أصلح الباب وترك العتبة لأن صاحب البيت لم يملك ثمن الحجر. قفز فوقها ورفع لوحاً كان يغطي حفرة صغيرة، فتعثر المطارد جزءاً من ثانية. تلك المهلة كفت لوصوله إلى السطح حيث ثبتت كنزة حبلاً إلى قاعدة خزان ماء. انتهى الحبل على ارتفاع أمتار فوق الشارع. أشارت إلى شرفة مقابلة، وقفزت قبله، وارتطمت ركبتها بالحافة لكنها أمسكت الحديد.

أمسك بها من معصمها وساعدها على إتمام النزول، ثم سحب الحبل. كانت كنزة قد اختارت الشرفة وأحضرت لهما طريق الخروج حين كان هو يجمع قطع خشب. خرجا من بيت وافقت صاحبته على فتح بابه الخلفي بعد أن رأت جارتها تشير من السطح. قالت فقط إن الرجال الذين يأتون لمعاينة بناء لا يحملون حقناً. كانت مدينة كاملة تبدأ تعلم الفرق من التفاصيل الصغيرة التي يظن أصحاب القوة أن أحداً لا يراها.

في العيادة، أوقفت أنجل فتح خزانة الملفات حين طلب رجل الجرد أسماء من زاروها في الليلة التي عولج فيها صابر. أعطته السجل الإداري الذي يخص عمله، ورفضت تسليم الملفات الطبية من غير سند واضح يجيز ذلك. كان مدير العيادة على الهاتف، يقول إن عليهم التعاون وإن الخلاف قد يوقف التبرعات. طلبت منه أن يرسل تعليماته كتابة، وأبقت خزانة الملفات مغلقة وهي تنتظر جوابه.

وصل ألوكارد وكنزة إلى الباب الخلفي عند تبدل المناوبة. رأت هناء ركبة كنزة النازفة فأدخلتها قبل السؤال. أراد ألوكارد أن ينتظر في الشارع، لكن أنجل جاءت إليه وقالت إن اسمه صار في ورقة بحث داخلية عممت على حراس بعض المؤسسات. أراها الحارس نسخة وصلته، بعدما تعرف إلى الرجل الذي أعاد مفتاح بيت مراد. طلبت

من ألوكارد أن يدخل إلى المخزن، بعيداً عن المرضى، ريثما يقررون طريق الخروج. هذه المرة أقر بأنه لم يأكل منذ مساء الأمس، وأن عليه أن يحصل على ما يحتاج قبل أن يبقى بينهم طويلاً.

نظرت إليه مباشرة، ثم طلبت من هناء إخراج حقيبته المبردة من السيارة التي أحضرتها كنزة. أشارت إلى مقعد المخزن، ثم خرجت وأغلقت الباب من غير أن تدير المفتاح. ظل ينتظر صوت القفل لحظة، استعاد بدلاً منه وقع خطواتها وهي تبتعد. جلس وشرب حتى عاد سمعه إلى حجمه المحتمل. حين خرج، وجد أنجل قد وضعت له على الطاولة قطعة قماش نظيفة ليغسل وجهه، وورقة كتبت عليها ما تحتاجه من مساعدة لنقل صندوقي مستلزمات.

كان انسحابهم من العيادة خروجاً من عمل، لا فراراً في الظلام. أكملت أنجل تسليم المناوبة، وأبلغت المدير أنها لن تستجيب لاستدعاء من الشركة خارج القنوات الرسمية، ثم خرجت مع هناء والصندوقين في سيارة النقل الطبي. انتظر في مستودع مجاور حتى أغلقت البوابة الأمامية وانصرف فريق الجرد، ثم سار إلى الشارع الخلفي مع عامل يعرفه، مرتدياً سترة صيانة. مرّ قرب حارس كان ينظر إلى صورة شاب بلا سترة، وترك الرجل يتذكره بعد أن صار بعيداً.

عند أول حاجز على الطريق المرتفع، أوقفوا السيارة الطبية. طلب الحارس أسماء الركاب، ثم نظر إلى أنجل وقال إن عليهم الرجوع من حيث جاءوا لأن الطريق مغلق. في الجهة الأخرى من الطريق مشى ألوكارد في ممر زراعي موازٍ مع كنزة، التي استطاعت مواصلة السير رغم الرباط حول ركبتها. سمع المحادثة من وراء جدار قصير، ورأى الرجل يطيل النظر إلى الصندوقين. أدرك أن يد الجبل وصلت إلى مخرج ظنه من طرق المدينة، وأن الاتجاهين اللذين يستطيع الهرب عبرهما صارا يحتاجان إلى إذن من رجلين يعرفان اسمه.

رجعت السيارة كما أمر الحارس. طلبت أنجل من السائق أن يلتف ببطء؛ تابع الحارس السيارة حتى ابتعدت. اتصلت بدانية وطلبت طريقاً داخل الحدود، لا خارجها. أعطتها عنوان مغسلة قديمة في حي أقيم على أرض مختلف على تبعيتها. كان صاحبها بشرياً اسمه يوسف، يعمل أخوه في صيانة قنوات الأحياء القديمة. لا ينتمي الرجل إلى مجلس أو عشيرة، لكنه فتح مخزنه من قبل لمن احتاجوا إلى ليلة لا يسألهم فيها عن الفاتورة. قالت دانية إنه وافق على استقبال ثلاثة أشخاص، لا على أن يصير بيته مقراً لحرب، وإن عليهم احترام الفرق.

وصلوا إليه قبيل الفجر. فتح يوسف الباب وهو يمسك مصباحاً، وسأل أولاً عما إذا كانوا مطاردين بسبب قتل. قالت كنزة لا، ثم

ذكرت رجلين أصيبا في القناة والحي، لأنها لم ترد أن يبدأ الأمان بكذبة. نظر إلى ألوكارد الذي بقي في الخلف، وقال إنه يعرف ما يكفي عن الأجساد التي لا يطابق عمرها وجوهها، ثم وضع المصباح على الأرض وقال: «الغرفة هناك. والباب أفتحه أنا، لا تأتوني بأحد وراء ظهري. وأنت»، أشار إلى ألوكارد، «قل لي ماذا تأكل من الآن. عندي صغار يصعدون من البيت السفلي صباحاً.» وافق ألوكارد، وشكره باسمه.

في الداخل علقت رائحة الصابون بالحجر، وبقيت فوق الأرض قنوات ضيقة كانت تحمل ماء الغسل. وضعت أنجل الصندوقين قرب الجدار، ثم جلست كأن ركبتيها تذكرتا التعب دفعة واحدة. كنزة اتصلت بأمها من هاتف يوسف، وأخبرتها أن ركبتها بخير وأنها وجدت ما يدل على سبب اختفاء الأب، من غير أن تزعم أنها اقتربت من مكانه. سألتها أمينة إن كان حياً. ترددت كنزة، فأعادت أمها السؤال بصوت أعلى. قالت كنزة إنها لا تعرف بعد، وبقيت تسمع تنفسها حتى استطاعت الأم أن تقول إنها ستنتظر اتصال الغد.

أما ألوكارد فأخرج الخنجر المكسور، ووضعه على حافة حوض قديم، ثم بحث عنه بعد دقيقة في حقيبته. رأته أنجل ولم تصحح له فوراً. كانت تعرف الآن أن النسيان لا يختفي حين يتسع الخطر، وربما

يزداد حين يصبح كل شيء مهماً. أشارت إلى الحافة، فأخذه وجلس إلى جوارها. سألها إن كانت تندم على بقائها. قالت إنها تندم على أشياء محددة، منها أنها لم تنم حين أتيح لها النوم، وإنها لا تريد تحويل قرارها كله إلى جواب يطمئنه. ثم أسندت رأسها إلى الجدار وأغمضت عينيها.

في الهاتف ظهرت رسالة من دانية: المجلس استلم المذكرة المضادة، والمعاينة ممنوعة إلى حين إحضار صاحب الطلب. تحتها صورة لقرار صادر عن جهة الجبل، يجرّم إيواء الرجل نفسه الذي تسميه جهة المدينة جاسوساً للعشائر. وضعت كنزة الورقتين جنباً إلى جنب على الشاشة. قالت إن كل ملك يريد من رعيته أن تخاف ألوكارد للسبب الذي يجعلها تثق بملكها أكثر.

قرأ ألوكارد اسم وارث في أسفل القرار. كان الخط مختلفاً عن الخط الذي عرفه، أو ربما صار القلم موظفاً آخر من موظفي الحكم. تذكر أخاه على السور، يوم اعترف بأنه بكى عند تحوله الأول، وتذكر أنه لم يعرف كيف يواسيه إلا بالصمت. أراد أن يغضب بما يكفي ليختصر الرجل في توقيع، فلم يستطع. احتفظ بالصورة، وأغلق الهاتف قبل أن يلاحظ أحد طول نظره.

جاء يوسف بكوب شاي لنفسه، وسأل عما سيفعلونه بعدما ينامون. كان يحق له السؤال؛ البيت بيته، والخطر لا يصبح أقل لأن ضيوفه

مرهقون. قالت كنزة إنهم سيبحثون عن الرجل الذي نقل أباها، وإن الطرق التي تستعملها شركة القصر قد تبقى مفتوحة حتى حين تغلق على الناس. قالت أنجل، من غير أن تفتح عينيها، إن عليهم أولاً حماية من ظهرت أسماؤهم في سجل العيادة، وإنها ستتولى الاتصال بهم بطريقة لا تزيد خوفهم ولا تكشفهم. انتظر يوسف جواب ألوكارد.

نظر إلى الباب الذي أدخلهم الرجل منه، وإلى الصندوقين، وإلى الحقيبة التي تحمل صور حجر اعترف به أكثر مما اعترف به أهله. طوال سنوات كان يختار مكاناً يستطيع أن يتركه عندما يعرفه الآخرون. أصبح ترك المكان الآن يعني ترك أشخاص اختاروا البقاء معه على الرغم مما عرفوه. تأمل وجوههم، خائفاً من قرار يخطئه ويدفعون ثمنه.

قال ليوسف إنهم سيغادرون بيته حين يجدون مكاناً لا يفرضون عليه خطرهم، لكنهم لن يغادروا المدينة ويتركوا من أخذ عبد الجليل يأخذ من يشاء. ثم طلب ورقة ليكتب أسماء من ينبغي تحذيرهم قبل الصباح. أعطته كنزة دفترها، وفتحت له صفحة جديدة.

كان أول اسم كتبه اسم رجل يصلح الدراجات. وبعده اسم بقال، وامرأة في بيت أعاد إلى ابنتها حذاء، وصاحب مسلخ، وموظفة خرائط لا تزال تنتظر ورقتين. لم يكتب لقباً واحداً قبل أن ينتهي من الذين يمكن أن يصل إليهم الخوف بسببه.

وراء الباب بدأت المدينة تستيقظ. فتح يوسف النافذة العليا ليدخل الهواء، فوقع الضوء على طرف الصفحة. سحب ألوكارد يده قليلاً وأكمل الكتابة في الظل.

الجزء الثالث

عرشان يخافانه

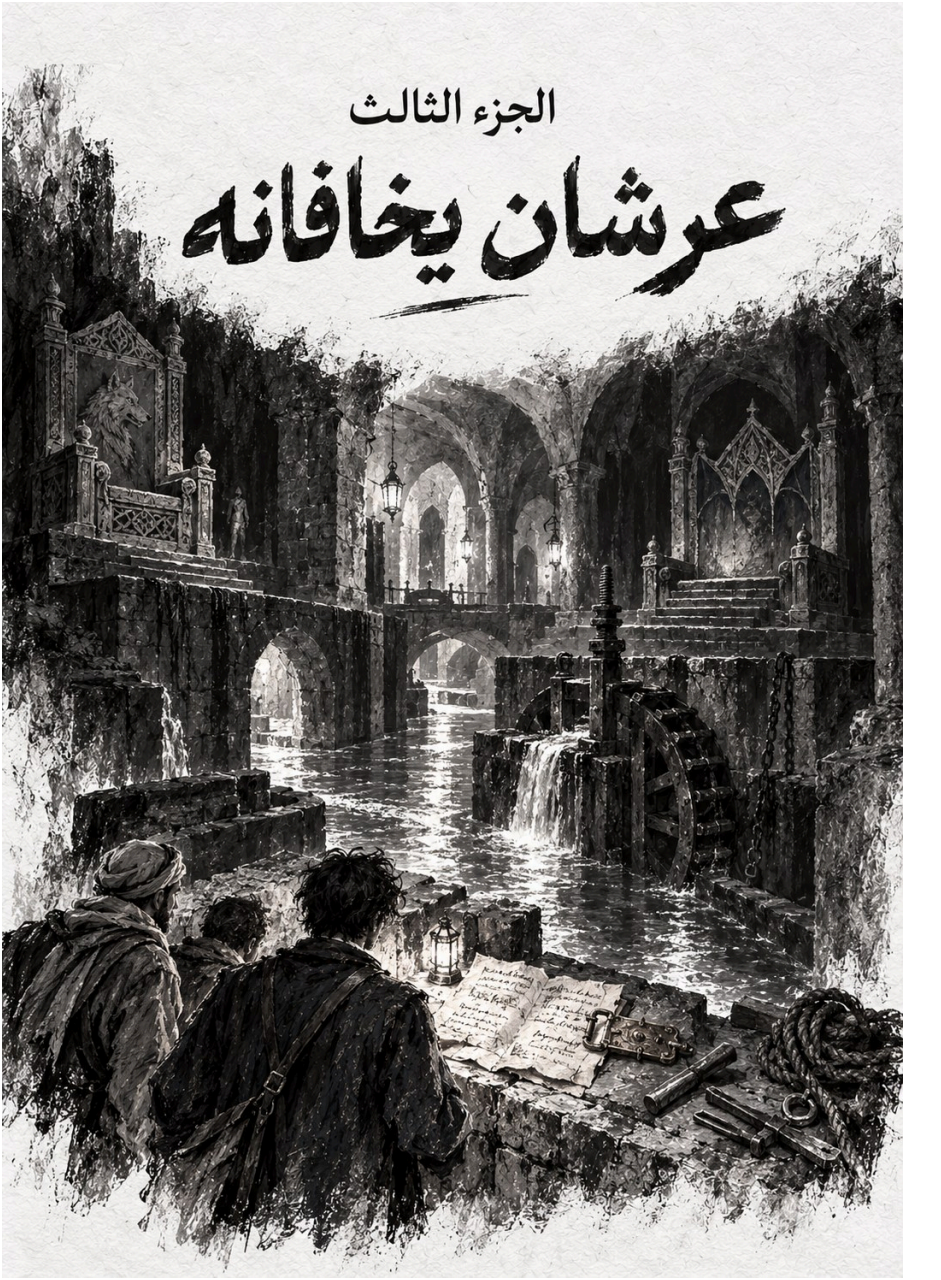

الفصل السابع عشر

المطاردة

في الصباح كان أول من مزق قائمة ألوكارد طفلاً يبحث عن ورقة يرسم عليها. أخذ نصفها من طرف الطاولة، قبل أن تنتبه كنزة وتوقف يده، وبقي اسم بائع الدراجات مقسوماً بين الورقتين. اعتذر يوسف عن حفيده، ثم رأى ألوكارد يجمع القطعتين بشريط لاصق، فقال إن عليه أن يضع أسراره أعلى قليلاً؛ الصغير يبلغ كل ما يظنون أنه بعيد عنه. نقل ألوكارد الدفتر إلى رف الصابون، وبعد دقائق عاد يسأل أين وضعه.

ناموا أقل مما احتاجوا. أنجل على فراش قرب النافذة المسدودة، وكنزة بين صندوقين، وألوكارد جالساً إلى الحائط، يستيقظ كلما تغير صوت الماء في القناة. في الأسفل تحرك أهل يوسف في مطبخهم، وصعدت رائحة البصل المقلي قبل الظهر. كان للبيت نهار عادي يصعب عليهم الاشتراك فيه، لكنه منع الخوف من أن يستولي على

الغرف كلها. حين جاء الحفيد ثانية يسأل عن قلمه، فتش ألوكارد جيبه وأعاده إليه مع غطاء قلم آخر.

قسموا الأسماء بحسب ما يحتاجه أصحابها، لا بحسب قربهم من ألوكارد. يتولى يوسف إبلاغ بائع الدراجات والبقال عن طريق أخيه، وتزور كنزة رحمة لاستعادة الخرائط وترتيب حفظ أوراقها. قالت أنجل إنها ستذهب إلى العيادة لتعرف ما وصل إلى الموظفين، ثم تتصل بمن وردت أسماؤهم في الليلة التي عولج فيها صابر. بقي إدريس وصاحب النافذة وبعض الجيران لألوكارد. كتب إلى جوار كل اسم موعداً للاتصال، وترك خانة لمن يرفض المساعدة. سأله يوسف عن معنى الخانة، فأجاب أن من حقهم أن يبعدوه عن بيوتهم.

خرج يوسف بعد الاجتماع ليشتري ما يحتاجه البيت، فعاد بأكياس أقل مما خرج من أجله. قال إن صاحب البقالة رفض البيع بالدين بعدما رآه يتحدث إلى رجال غرباء في الليلة السابقة. فتح دفتراً صغيراً فيه حساب الخبز والزيت، ووضعه أمام ضيوفه من غير خجل. كان في الصندوق ما يكفي أياماً قليلة، وأهل البيت يعيشون من غسل أغطية محلات توقفت عن إرسال العمل حين وقفت السيارة عند الزقاق. أخرج ألوكارد ما معه، فعدّ يوسف المال وأبقى جزءاً منه فقط. قال إنه يريد أجرة الطعام والماء، لا ثمناً لسكوت الجيران.

اقترحت كنزة أن تجمع له مستحقاته القديمة. أخذت منه أسماء المحلات، واتصلت بأصحابها واحداً واحداً بصفتها من يساعده في الحساب. بعضهم دفع فوراً، وبعضهم اعتذر، ورجل حاول أن يجعل أجر شهرين مقابلاً لخصم طويل، فرفعت صوتها عليه حتى سمعها يوسف من الغرفة الأخرى. في النهاية جاء صبي يحمل ظرفاً. وضعه على العتبة وانصرف قبل أن يدعوه أحد إلى الدخول. عدّ يوسف النقود ثم أعادها إلى الصندوق، وقال لكنزة إن أباها كان يختلف مع الزبائن بالطريقة نفسها حين يريد أن يعطيهم فرصة أخيرة لحفظ وجوههم.

كانت الإشارة إلى أبيها عابرة، فأوجعتها أكثر مما لو أعد لها الرجل حديث مواساة. خرجت إلى الحوض تغسل يديها، ووجدت تحت أظافرها غباراً من أوراق الورشة. وقفت تفركه حتى احمر الجلد، ثم توقفت حين لاحظت أنجل ذلك. ناولتها منشفة وسألتها عن جرح راحة اليد القديم. أجابت كنزة عن الجرح فقط. جلستا بعد ذلك دقائق تسمعان يوسف يعد النقود للصبي الذي جاء يسأله عن أجرة تنظيف المجرى. كانت الحياة تحتاج إلى الدفع في موعدها، حتى حين يتوقف موعد عودة رجل إلى بيته.

قبل أن يبدأ توزيع المهمات، طلبت أنجل عنوان أقرب مكان يستقبل حالة طارئة من غير تأخير في التسجيل. أعطاها يوسف اسم

طبيب يعرفه، وأضاف رقم السائق الذي ينقل مرضاه. كتبت الرقمين داخل حقيبتها وعلى ورقة علقتها قرب الباب. ثم سألت عن الأطفال في الطابق السفلي وأدوية الكبار. بدا السؤال لألوكارد بعيداً عن المطاردة، إلى أن رآها تسجل حاجات أشخاص سيقعون في طريق الخطر لمجرد أنهم يسكنون تحتهم. أضاف أسماءهم إلى قائمته، وترك عند بعضها مساحة يسأل أصحابها عما يريدون، بدلاً من أن يكتب احتياجاتهم كما يتخيلها.

وقع الخلاف عند العيادة. كان ألوكارد قد اتصل بدانية قبل أن يستيقظ الآخرون، وطلب منها غرفة لأنجل في دار قريبة من السجلات. أخبرها الآن بأنه وجد لها مكاناً يبعدها عن منير. وضعت أنجل الكأس الذي كانت تغسل فيه فرشاة صغيرة، وسألته متى كان ينوي أن يسألها. قال إن الغرفة احتياط، وإن العيادة مكشوفة. قالت: «أنا التي أعرف المرضى والملفات والمناوبة. اسألني عما أحتاجه قبل أن تنقلني مثل صندوق.» حاول شرح خوفه، فرفعت يدها: «فهمت أنك خائف. هذا لا يعطيك سريري ولا جدولي.»

سمع يوسف الكلام وهو يصلح مصباحاً فوق الباب، فتركهما وأخذ حفيده إلى الأسفل. بقي ألوكارد يتأمل الغرفة التي اختارها لها في ذهنه؛ حسب بابها ونافذتها والطريق إليها، وأغفل الشخص الذي

سينام فيها. قال إنه سيتصل بدانية ليلغي الترتيب، ثم صحح نفسه: ليخبرها أن القرار لأنجل. أعطته أنجل عملاً واضحاً، تحتاج سيارة للنقل بعد المناوبة، وشخصاً يراقب المدخل من الخارج من غير أن يستجوب القادمين. كتبت الموعد بيدها في الدفتر، وخرجت بعدما اتفقت مع هناء على اللقاء.

عند منتصف النهار كان مراد في مكتب له زجاج معتم، ينتظر عودة الرجل الذي أخذ بطاقة هويته. على الطاولة عرض لسكن مؤقت، وإلى جواره صورة لابنه على سرير الطوارئ. وضع منير الصورة بنفسه، قائلاً إن المؤسسة تريد تصحيح الضرر الذي تسبب فيه موظف أخطأ التقدير. يستطيعون دفع أجرة سنة وتسوية ديون المحل. المطلوب إفادة بسيطة: أن المرمّم كان يعرف الرجال قبل المشادة، وأنه حرض الأسرة على مقاومة إخلاء قانوني.

قرأ مراد السطر ثلاث مرات. قال إن الرجل أصلح له الباب وساعد الطفل. أقر منير بالأمرين، ثم سأل كيف وصل بهذه السرعة، ولماذا احتفظ بنسخة التسجيل، وما الذي يعرفه مراد عن اسمه وعمره. كانت الأسئلة مرتبة بحيث يصير كل جواب مدخلاً إلى شك جديد. حين قال مراد إنه يريد الرجوع إلى زوجته، أخرج منير ورقة مطالبة

قديمة من صاحب المحل، وسأله أين سيضع دراجاته إذا نُفذ الحجز قبل نهاية الأسبوع.

في الغرفة المجاورة جلست سعاد مع الطفل. سمع مراد سعاله، ثم صوتها تطلب ماء. أمسك القلم. شطب كلمة «حرّض» وكتب «تدخل»، فتركه منير يفعل، كأن له سلطة حقيقية على الورقة. وقّع في الأسفل، ثم طلب حذف اسم البقال. قال منير إن البقال شاهد مستقل، وإن الإفادة تتعلق بما رآه مراد فقط. أعاد إليه البطاقة، ووعد بأن تصل مفاتيح السكن مساءً.

خرج مراد وفي يده نسخة لا تشبه تماماً الكلام الذي قاله. عند الباب تذكر أن المفتاح الجديد لبيته ما زال في جيبه؛ أخرجه ثم أعاده، وغضب من نفسه لأنه احتاج إلى إخفاء شيء لا يراه أحد. في الطريق اشترى لابنه عصيراً، وظل يضغط القارورة حتى انبعج البلاستيك. سألت سعاد عن الورقة فقال إنها تخص التعويض، واكتفى بذلك حتى وصلا إلى البيت.

بعد ساعات جاء أخو يوسف يحمل تحذيراً ورقم هاتف. عرفه مراد من السوق، وأدخله إلى الدكان. أخبره الرجل أن المرمّم يطلب إبلاغه إذا عاد من يسأل عنه، وأنه يستطيع مساعدتهم في نقل الأدوات إلى موضع آخر. وضع مراد الرقم بين أوراق الحساب. كاد يقول إنه وقّع،

ثم رأى ابنه عند الباب يحمل دراجة صغيرة، وطلب من الزائر أن يبلّغ ألوكارد شكره فقط. من السيارة المقابلة سجل رجل رقم اللوحة التي غادر بها أخو يوسف.

وصلت كنزة إلى بيت رحمة مع غروب الشمس. كانت المرأة قد رتبت الخرائط في حزم وربطت كل حزمة بخيط مختلف. قالت إن اثنين من الإدارة سألاها عن الأوراق التي احتفظت بها بعد التقاعد، وإنها أعادتهما إلى سجل الإتلاف الذي سمح بخروج النسخ. أرادت كنزة نقل الحزم كلها، فجلست رحمة فوق أكبرها وقالت إن السقف سيبقى فوق رأسها ما دامت تعرف أين وضعت مفاتيحها. اختارت النسخ المتعلقة بالقنوات، وطلبت أن ترسل إليها الأخبار مكتوبة؛ الهواتف تحمل من الذعر أكثر مما تتحمل أذناها.

في الحزمة وجدت كنزة قائمة إصلاحات قديمة لدار الملح. اهتمت بها لأن إحدى علاماتها تشبه العلامة التي رسمها أبوها تحت الحوض. اتصلت بألوكارد من دكان قريب، ووصفت الصفحة. طلب منها أن تصور ترويسها، ثم طال صمته. كان اسم خزيمة في هامش ملاحظة تخص أجرة نسخ، ومعه عنوان دار داخلية يعرفها من روايات متفرقة عن الناسخ بعد إبعاده. قال إنه بحث عن أهل الرجل في أزمنة مختلفة، وإن آخر أثر ضاع حين تغير اسم الحي. أعطته رحمة، من خلف كنزة،

الاسم القديم والجديد، وانتهت حيرة استمرت سنوات بتصحيح موظفة تعرف كيف يعاد ترقيم الشوارع.

في العيادة استدعاها المدير إلى مكتبه قبل أن تبدأ المرور على المرضى. كان ملف صابر على الطاولة، مغلقاً، وإلى جانبه كتاب من جهة التأمين. طلب منها كتابة تقرير ينفي وجود مانع طبي لنقله يوم جاء منير. فتحت أنجل ملاحظاتها وأشارت إلى ساعة دخوله وإلى حالته وقتها. قال إن المطلوب تسوية إدارية، وإن المؤسسة قد تسحب تمويل جهاز يحتاج إليه الحي. سألته إن كان يريد تقريراً عن مريض أو رسالة اعتذار إلى ممول. أخذ الملف من أمامها وأعاد السؤال بصيغة أشد: هل تضع العيادة كلها في مواجهة بسبب رجل واحد؟

دفعت كرسيها إلى الخلف. كان السؤال قد أصاب موضعاً متعباً فيها، موضعاً يحسب الأدوية والرواتب كل شهر. قالت: «أنا أكتب ما رأيت. تستطيع أن توقع كلاماً آخر باسمك.» ثم وضعت أمامه نسخة من اعتراضها على طلب البيانات، وطلبت رقم تسجيلها. رفض أولاً، فذهبت إلى مكتب الاستقبال وسجلتها هناك. حين عادت إلى المرضى كانت غاضبة إلى حد أن هناء أخذت منها صينية الأدوات، وأشارت إلى كأس ماء. شربت نصفه وأكملت عملها. في المساء وجدت على هاتفها استدعاء لمراجعة إدارية في اليوم التالي.

انتظرها ألوكارد في الموضع المتفق عليه. رأى خطواتها السريعة وفكها المشدود، ففتح باب السيارة وحمل حقيبتها، ثم سأل إن كانت تريد الحديث الآن أو بعد الوصول. اختارت الآن. حكت عن المدير، وعن الجهاز الذي قد يخسرونه، وعن الموظفين الذين سيحسب بعضهم أن عنادها حرم المرضى من علاج. قال إنه يستطيع دفع ثمن الجهاز إذا باع شيئاً يملكه في مدينة أخرى. التفتت إليه بحدة، ثم هدأت قليلاً: المال يساعد، لكنه لن يصلح الطريقة التي يبتز بها منير الجميع. طلبت منه ألا يتصل بأحد باسمها. وعدها، وهذه المرة احتفظ بالوعد عملاً صغيراً يستطيع تنفيذه.

عندما رجعا إلى المغسلة، وجد يوسف عند الباب رجلاً يحمل كيس فحم فارغاً. تعرف ألوكارد إلى رائحته قبل وجهه: المستذئب الذي وقف مع منير في المستشفى. تحرك نحوه، لكن الرجل رفع يديه وأبقى المسافة. قال إنه تبع أخا يوسف إلى الشارع، وإن آخرين قد يستطيعون فعل ذلك. خرج يوسف إلى العتبة وطلب منه الابتعاد عن البيت. أعطاه الرجل ورقة مطوية، ثم نظر إلى ألوكارد وقال إن صابر كان يجب أن ينقل إلى مكان لا تعود منه الأوراق إلا موقعة.

كان اسمه أيوب. ذكره مرة واحدة، ثم تكلم عن رقم سيارة وعن ساعة تبديل الحرس. قال إن أباه يعمل في مخازن الجبل، وإنهم

يحتفظون به ما دام الابن يؤدي ما يطلبونه. في المستشفى حسب أنه يستعيد عاملاً هارباً، وبعد القناة سمع الأمر بتهديد أخت المصاب. عندها فهم ما يفعله، على حد قوله. ردت كنزة من وراء يوسف بأن الفهم جاءه متأخراً. أقر بذلك وسألها إن كانت تريد سبب مجيئه أم عذراً. قالت إنها تريد مكان أبيها. أجاب أنه يعرف طريق سيارة تنقل المواد إلى غرفة تحت القصر، ويحتاج إلى يومين ليثبت ما يقول.

أخذ ألوكارد الورقة، وأعطاه موضع لقاء بعيداً عن المغسلة. قبل أن ينصرف أوقفه يوسف: «هذا الباب رأيته مرة. المرة الثانية تأتي بدعوة، أو أبقى أنا وأنت في الشارع.» هز أيوب رأسه، ومضى. ظل يوسف يتابع الطريق حتى اختفى. ثم التفت إلى ضيوفه وقال إنهم وعدوه بثلاثة أشخاص وليلة أو ليلتين، وإن الحفيد نام تحتهم اليوم. اتفقوا على البحث عن موضع آخر منذ الصباح، وعلى استعمال المغسلة للاستراحة المؤقتة إلى أن يكتمل النقل.

وضعت كنزة ورقة أيوب قرب خريطة رحمة، وأخرج ألوكارد قائمة الأسماء الممزقة. عند اسم مراد بقيت خانة الجواب فارغة. قال أخو يوسف إنه رآه متعباً لكنه بخير. كتب ألوكارد: نعود إليه غداً. كان يستطيع أن يتصل تلك الليلة، ثم اختار أن يترك للرجل وقتاً مع أسرته.

في الشارع المقابل للمغسلة، توقف عامل توصيل ليثبت صندوقه على الدراجة. رفع هاتفه إلى واجهة البيت، والتقط صورة تشمل باب الطابق السفلي ورقم عداد الكهرباء. بعد دقيقة تحرك، وبقي وراءه صوت محرك صغير يشبه عشرات المحركات التي مرت في ذلك اليوم.

الفصل الثامن عشر

اسم الأم

احتفظ آخر أهل خزيمة باسم الدار أكثر مما احتفظ بمهنة أجداده. كان يبيع ورق التغليف وعلب الحلوى، وفي الغرفة الخلفية رفوف من دفاتر بقيت لأن أحداً اختلف يوماً مع أبيه على ثمنها، فتركها إلى أن يجد مشترياً يفهم قيمتها. جاءته دانية قبل ألوكارد وكنزة، ومعها صورة الملاحظة التي وجدتها رحمة. وضع نظارته على جبهته وطلب منها أن تختار ما تحتاجه، بشرط أن تعيد كل ورقة إلى الملف الذي أخرجتها منه. أشار ألوكارد إلى نفسه وقال إنه سيكتفي بالقراءة، فناولته كنزة قلماً من غير غطاء، ليقل عدد الأشياء التي يمكن أن يضيعها.

في دفتر صغير وجدوا حساب نفقات عربة نقلت كتب خزيمة من الحجر. تحت الحساب ورقة بخط مختلف، عنوانها: ما بقي للغريب عندنا. تضمنت مبلغاً تركه ألوكارد يوم أغلق الحرس الدار، واعتذاراً قصيراً احتفظ الناسخ بأصله. عرف خطه، والحرف الذي أعاده فوق الكلمة بعدما سال الحبر. وضع إصبعه على آخر السطر، كان يعتذر عن إقحام

الرجل في مصيبة ظن أنها ستنتهي حين يخرج من بابه. قال صاحب الدار إن أسرته أبقت هذه الأوراق مع الأمانات، وإنه يجهل لماذا لم يطالب بها أحد.

قرأوا جواباً من فلاح إلى خزيمة، أرسله بعد الحريق بشهرين. ذكر شاباً أصلح حاجز الساقية، ونقصاً في نصل خنجره، وحرقاً عند الرقبة ستره بثوب خشن. أرفق الناسخ الشهادة برسالة إلى تازرون، وبقيت المسودة هنا. كان فيها: «رأيت أخاك في داري، وأعرف ما أخذه حين خرج. وهذا الرجل يصف ما رأيته، فاعلم أن باب الحداد الذي فُتح لك قد يكون على حي.» عند أسفل الورقة علامة وصول، نقلها خزيمة عن رد مختصر من الديوان. قرأ ألوكارد التاريخ مرتين، ثم أدار الورقة إلى ظهرها كأن الجواب الذي يحتاج إليه قد يكون هناك.

عرف وارث، إذاً، وهو ما يزال قريباً من عمر الفقد.

تركت كنزة له الورقة ومضت مع دانية إلى دفتر آخر. توقفت عند اسم سيرين في قائمة تخص صندوقاً نُقل إلى دار الملح قبل موتها. الرقم بجانبه يطابق مخزناً في طاحونة مهجورة، واسم امرأة من خدم الدار يرد في الوصل بوصفها من تسلمته. قالت دانية إن خزيمة الأب كان وسيط مراسلات بين الغرب وتازرون قبل أن يرث ابنه المهنة؛ تعاقب الاسمان جعل الأوراق تبدو صادرة عن رجل واحد. طلبت من

صاحب الدار تصوير الأختام قبل رفعها، وأخذت عنوان الطاحونة من سجل أجرة لا من رواية عائلية.

خرجوا بعد الظهر. بقيت دانية لتقابل صاحب سجل الأراضي، وسافر ألوكارد وكنزة في عربة نقل يقودها رجل يعرف يوسف. حملت كنزة ماء وطعاماً لها، وقارورتين في صندوق تبريد له، وحذرت السائق من فتح الصندوق ليبحث عن مشروب. تمدد ألوكارد خلف ستارة سميكة، وأعطاها هاتفه لتتابع الطريق. بعد ساعة اكتشف أن هاتفه في يده، وأن الذي أعطاها إياه هاتف يوسف. اتصلا به يعتذران، فسبّهما الرجل بكلمتين واضحتين ثم طلب منهما شحنه قبل إعادته.

كانت دار الملح أوسع من البلدة التي زارها ألوكارد أول مرة. أحواضها القديمة صارت أساساً لبيوت، وتحت الطريق ردم أبيض يتفتت إذا مرّت عليه شاحنة ثقيلة. نزل قرب حائط المقبرة التي بحث فيها عن أمه، ووقف يتأمل موضعاً اختفت منه شجرة. يومها نام هنا والغطاء الأزرق على ركبتيه. الآن مرت امرأة تدفع عربة خبز وسألته أن يفسح لها. تحرك، وعرف أن المدينة استطاعت أن تضع حياة كاملة فوق الليلة التي بقيت فيه كما هي.

وصلت دانية عند الغروب ومعها إذن من صاحب الطاحونة، حصلت عليه بعد أن شرحت أنها تبحث في أوراق أمانة قديمة. الرجل يعيش بعيداً ويريد بيع المبنى؛ وافق على دخول الغرفة العليا وتصوير ما يجدونه، وطلب تقريراً عن الشق في الواجهة. تولت كنزة الشق أولاً. قالت إن الخطر في العارضة فوق النافذة، وحددت موضعاً يتجنبونه عند الصعود. ألوكارد، الذي كان مستعداً لكسر قفل، حمل السلم وثبته، وانتظر حتى فرغت من فحص الخشب.

كان المخزن أصغر مما وصفه الدفتر، لأن جداراً جديداً اقتطع ثلثه. خلف ألواح رف قديم عثروا على صندوق نحاسي يحيط به غلاف من فخار متشقق. على النحاس خط دقيق وعقدة دم يابس تحت زجاج قاتم. قرأت دانية الاسم المحفور: سيرين بنت البيت الأول. ثم وجدت على الحافة صيغة تحفظ الأمانة لصاحبة الدم أو لمن يستمر دمها فيه. قالت إن هذه حافظة شخصية، وإن فتحها يثبت اتصال صاحب اليد بمن ختمها، أما حق الحكم فله شهادة الختم التي عرفوها في القصر.

جلس ألوكارد على الأرض ووضع الصندوق بين ركبتيه. احتاج إلى خنجره، فبحث في الجيب الخطأ، ثم وجده مربوطاً حيث وضعته كنزة قبل السفر. مد إصبعه إلى موضع القطع، وتوقف. كانت أمه إلى تلك اللحظة امرأة يستطيع أن يمنحها في ذاكرته ما شاء من رقة

وغضب. بعد الفتح ستكتب بنفسها، وربما قالت أشياء يعجز عن مسامحتها عليها. طلب من كنزة أن تبقى، ومن دانية أن تسجل حال الحافظة قبل فتحها. شق جلده ووضع الدم على العقدة، فدفئ الزجاج وتراجع الخيط النحاسي عن موضع الغطاء.

في الداخل رزمة ملفوفة بقماش مشمع، وخاتم صغير، وقطعة خشب محفورة من لعبة طفل. رفع اللعبة أولاً. كان في طرفها أثر سن، وفي أسفلها حرف ناقص، ربما من اسم بدأ أحدهم نقشه ثم انشغل عنه. قرّبها إلى أنفه، بقيت رائحة القماش والمعدن والرطوبة. انتظر أن يجد أمه في الرائحة، ثم وضع القطعة على كفه وبدأ يقرأ.

«أكتب هذا لأن الذاكرة التي يملكها الناجي وحده يسهل اتهامها. ما رأيته وأنا طفلة أرويه كما رأيته، وما عرفته بعد ذلك أرفقت دليله حيث استطعت. كان سادن وصياً على ابن عمي الصغير. دخل الرجال ليلة المذبحة من أبواب خدمتهم، وأغلقت البوابة الكبرى قبل سماع العواء. رأيت خاتم الوصي في يد الرجل الذي أمر بإخراج النساء إلى الرواق. بعد ذلك صارت النافذة أعلى مما أستطيع بلوغه، وحملتني امرأة تعمل في المطبخ عبر باب الفحم.»

قرأ بصوت منخفض، وتعثر عند وصف يد المرأة فوق فم الطفلة. استأذنته كنزة وأكملت سطراً، ثم أعادت إليه الصفحة حين مد يده.

تضمنت الرزمة أسماء خدم وأجور نقل ونسخة أمر بإخلاء طريق الحرس في تلك الليلة. جعل سادن الغارة رواية رسمية قبل دفن القتلى؛ خرجت العشائر من المذبحة متهمة بقتل بيت المؤسسين، وخرج هو وصياً على مملكة فقدت من كان يستطيع إنهاء وصايته. احتفظت المرأة بالطفلة في الغرب، بين أسر كانت تعرف أن السؤال عن النسب قد يستدعي رجالاً إلى الباب.

تقدمت سيرين في العمر، ثم توقف وجهها عند سنها كما تتوقف وجوه قومها. مات من آواها، وورث أبناؤهم الحكاية، وتعلمت هي أن تراجع الأسماء في الدفاتر قبل أن تثق بمن يحملها. جمعت الأدلة على مهل مؤلم: شاهد يعترف بعد موت سيده، وعقد أرض يكافئ رجلاً شارك في الليلة، ونسخة محفوظة لأن كاتباً استعمل ظهرها لحساب آخر. وفي إحدى رحلاتها التقت رافع، الذي جاء إلى حدود الغرب يتفاوض في أسرى اتهم رجالهم بغارة أخرى. اختلفت معه قبل أن تثق به، وأثبتت له أن بعض الأسماء في قائمته تخص موتى منذ عام.

«اخترت الزواج به وأنا أعرف ما سيكلفه. كانت أرضه أبعد المواضع عن يد سادن، نعم، لكنني أردت رجلاً يعرف من أكون ويقبل أن يبقى. طلب مني أن ننتظر حتى يثبت المجلس كذب الغارات، فقلت إن المجلس عاش من هذه الغارات أطول مما عاش من

الحقيقة. كنا شجاعين في الغرفة وحدنا، وحذرين أكثر مما ينبغي حين خرجنا منها. هذا نصيبي من الخطأ.»

ضمّت الرزمة أيضاً رسالة إلى رافع أعادتها سيرين إلى نفسها قبل إرسالها. كتبت فيها: «تقول إنك تريد زمناً تهدأ فيه العشائر. أسألك: أي عشيرة؟ الرجال الذين رأيتهم في السوق اليوم يريدون الماء وأجرة القمح، أما الذين يجلسون معك في القاعة فيريدون أن يبقى الخوف بحيث يطلب الناس حمايتهم. إذا انتظرنا أن يرضى هؤلاء عني، فسوف يكبر ابننا ويظن أن أمه عار ينبغي ستره. أريد أن أعرف ما الذي ستقوله له حين يسأل.»

في الهامش، بخط أهدأ، أضافت أنها ظلمت رافع في جزء من غضبها. كان قد فتح لناس من الغرب بيوتاً في الوادي، وأعاد أسرى اتهموا بما فعلته جماعة أخرى، وخسر بذلك رجالاً من مجلسه. لكنها خافت أن تصير تلك الأعمال الصغيرة بديلاً دائماً عن مواجهة الكذبة الكبيرة. وبين صفحتين من الأدلة وجدت كنزة حساباً لأجرة دواء لامرأة بشرية، وقائمة أقمشة يريدها وارث لكسوة التدريب. كانت سيرين تجمع شاهداً ضد وصي قاتل، ثم تعود إلى بيت ينتظر منه ولد أكبر أن تختار لون ثوبه.

قرأ ألوكارد الرسالة كاملة. تعرف في بعض العبارات إلى غضبه هو، وفي بعضها إلى ما كان يرفض سماعه من أبيه. ثم وجد وصفاً لمساء جلست فيه سيرين مع رافع بعد خلاف طويل. كتبت أنه أخذ حزام الطفل من فوق المصباح قبل أن يحترق، وأنها كانت قد وضعته هناك بنفسها حين بحثت عن إبرة. ضحكا، ثم عادا إلى الخلاف من موضع أقل قسوة. رفع ألوكارد رأسه عن الصفحة، وابتسم ابتسامة صغيرة جعلت كنزة تسأله عما وجد. أراها السطر من غير شرح.

توقفت دانية عند اسم خادمة ورد مرتين في شهادتين. في الأولى أنقذت سيرين الطفلة، وفي الثانية طلب أحد أحفادها استرداد بيت صودر عقاباً على الاختفاء. ربطت الورقتين بخيط مؤقت، وقالت إن هذه العلاقة يمكن إثباتها في سجل أرض مستقل. ثم أعادت النظر إلى ألوكارد وأضافت أن الاسم يستحق أن يبقى في الرواية التي ستخرج إلى المجلس، لا أن يصير تفصيلاً تحت لقب الأم. وافق، وطلب أن تصور الورقتان معاً. كان يتعلم أن معرفة نسبه تجعله مديناً لأناس خرجوا من كتب الملوك لأنهم عملوا في مطابخهم وأبوابهم.

في الورقة التالية تغير الحبر، وصار الخط أسرع. كان ألوكارد قد ولد، ورافع يريد إرجاء عرض الأدلة لأن الزعماء سيعدون الطفل دليلاً على خيانة البيت. كتبت سيرين أنها وافقت على تأجيل ثم

تأجيل، وأنها بدأت تخشى أن يصير العمر كله انتظاراً للحظة آمنة. خرجت إلى دار الملح لتقابل رجلاً يحمل آخر وصل يربط رجال سادن بمن دفع أجور البوابة ليلة المذبحة. وضعت الحافظة قبل اللقاء، وتركت عنوانها لدى خزيمة الأب. انتهت شهادتها قبل الطريق الأخير.

* * *

دار الملح — قبل قرون

كانت سيرين قد وصلت إلى الطاحونة قبيل شروق يوم بارد. وضعت اللعبة في الصندوق بعدما أخرجتها من جيبها؛ أخذها ألوكارد من أخيه ورفض إعادتها، فخبأتها لتصلح الكسر قبل أن يقع شجار جديد. أرادت أن تترك لرافع رسالة عن الطفل، ثم مزقتها. يعرف كيف يطعمه وكيف يحمله إذا بكى. الذي يحتاج إلى قوله هو لماذا خرجت، ولم تجد له عبارة تجعل الانتظار الذي طلبه أقل إيلاماً.

من النافذة رأت عربة تقف أبعد من الموعد المتفق عليه. تعرفت إلى لون القماش على كتف السائق؛ يستعمله رجال السهل. بدلت الطريق إلى الباب الخلفي، وحملت الوثيقة الوحيدة التي جاءت لأخذها. عند الحائط اعترضها رجل من حرس سادن. قال اسمها كما يقوله من تدرب عليه، لا كما يقوله من يعرف صاحبه. دفعته إلى حوض الملح، وبلغت

الطريق، لكن الآخر كان ينتظر عند المنعطف. رأت فكه يتبدل قبل أن يصيبها. تركت قطعة من كمها بين أسنانه، وضربته في عينه حتى أفلتها.

الجرح تحت كتفها بقي مفتوحاً. وصلت إلى بيت المرأة التي تتولى أجرة المخزن، وطلبت ماء وورقاً، ثم غيرت طلبها إلى حبل يربط الذراع. قالت إنها يجب أن تعود إلى ابنها. حين جاء المساء حاولت الوقوف، فمال السرير معها. عندها فهمت ما صنعته العضة في جسدها، وطلبت من المرأة أن تستدعي المعالج وأن تحفظ اسم رافع بعيداً عن الغرباء.

* * *

أخرجت دانية من أوراق أسرة خزيمة دفتر المعالج ونسخة إفادة المرأة التي آوت سيرين. قرب ألوكارد الدفتر من الضوء. دوّن المعالج ما استطاع في دفتر علاجه: جرح لا يلتئم، حمى، اسم امرأة قالت إنها جاءت من الغرب، ورجلان يسألان عنها عند السقاية. أثبتت المرأة لاحقاً، بشهادتها أمام خزيمة، أنها سمعت سيرين تسمي حرس سادن ورجال السهل، وأنها حملت خبر موتها إلى رافع. دفنوها عند جدار بستان الطاحونة تحت اسم المرأة التي استأجرت الغرفة؛ حماية البيت

اقتضت كذبة بقيت في سجل القبور، ثم سقط السجل في حريق تالٍ. احتفظ الناسخ بنسخة الإفادة مع أوراق الأمانة، منفصلة عن عنوان الحافظة كي يصعب جمعهما في يد من يفتش الدار.

قرأ ألوكارد وصف الجرح حتى انتهى السطر، ثم وضع الدفتر على الأرض. صار يعرف لماذا عجز سليم عن إخباره بشيء يطمئنه كلما سأل عن أمه. عرف أيضاً أن أباه احتفظ من الحقيقة بما يسمح له بتربية الطفل، وترك البقية في يد رجل ينتظر فرصة. حاول أن يتخيل سنوات رافع بعد وصول الخبر، ثم عاد إلى آخر طلب في دفتر المعالج: تريد أن تعود إلى ابنها.

خرج وحده إلى البستان. تبع الوصف الذي حفظته الإفادة، من بقية الرحى إلى الحائط، ثم إلى شجرة تين صارت جذورها أوسع من الموضع كله. كان المكان مضطرباً؛ انقلبت حجارة، وامتد بناء حديث إلى الطرف الآخر. اختار حجراً عند الجدار وجلس. جاءت كنزة بعد قليل، فناولها قطعة اللعبة. قلبتها بين أصابعها وقالت إنها تستطيع تثبيت الكسر من غير أن تغير أثر السن. قال إنه يريد الاحتفاظ به كما هو الآن، ثم سألها أن تلفه جيداً، لأنه قد ينساه في الجيب.

انتظرت دانية حتى رجعا. قالت إن الأوراق تثبت طريقاً للتحقيق: تُقابل الأختام بسجلات الديوان، وأسماء الرجال ببيوع الأرض،

وشهادة المعالج بإفادة المرأة. القراءة وحدها أراحت شيئاً فيه، لكن الملك يستطيع أن يسميها تزويراً. وافق على تصوير كل صفحة وإيداع نسخ في مواضع مختلفة. بقيت الحافظة معه، وأعطاها الخاتم لتفحص علامته أمام شاهدين.

في الطريق إلى الحجر اتصلت أنجل. سألته عما وجد، فأجاب أولاً بأنه عرف قبر أمه تقريباً. قالت إنها ستسمع البقية حين يصل، ثم بقيت على الخط بعدما سكت. كانت أصوات السيارة تملأ المسافة. أخبرها، بعد وقت، أن أمه كانت تنسى الأشياء أيضاً، تركت حزامه فوق المصباح حتى كاد يحترق، وكتبت عن ذلك في رسالتها إلى أبيه. قالها كأنها أهم من نسب البيت الأول. فهمت أنجل ما يحتاج إليه، فسألته عن اللعبة التي ذكرتها كنزة، وعن لون خشبها، وتركته يصف شيئاً يستطيع حمله بيده.

الفصل التاسع عشر

الأخوان

وصل استدعاء وارث إلى دار دانية في ظرف خالٍ من شعار. داخله صورة الضريح الحجري عند نهاية وادي تازرون، وتحتها موعد بعد الغروب. عرفت كنزة الموضع من وصف ألوكارد لرحيله، لكنها انتظرت أن يسميه هو. حمل الصورة إلى النافذة، ومرر إصبعه على حافة حجر تهدم منها جزء. قال إن قاسم شد له السرج هناك قبل أن يفترقا. أما السطر المكتوب خلفها فكان أقصر من أن يوقعه ديوان: تعال قبل أن يختار غيرنا مكان اللقاء.

قرأت أنجل الرسالة ثم أعادتها. سألت عن العائد الذي ينتظره من الذهاب، وعن الشخص الذي سيعرف موضعه إذا أغلق الطريق. قال إنه يحتاج إلى سماع أخيه، وإن وارث يستطيع اعتقاله إن أراد بطرق أسهل من استدعائه إلى ذكرى تخصهما. اعترضت كنزة بأن الذكرى قد تكون هي الطريق الأسهل. أخذ اعتراضها بجدية، وأرسل مع دانية شرطاً واحداً: أن يظل اللقاء خارج القصبة، وأن يعود إلى المدينة كما

جاء. ورد الجواب بخاتم وارث هذه المرة، مكتوباً بعبارة محددة عن أمان الطريق حتى نهاية الليلة.

اتفقوا أن تصحبه كنزة إلى نقطة بعيدة عن الضريح، وأن ينتظر السائق معها حتى الموعد الذي يحددانه. بقيت أنجل في المدينة لمتابعة صابر والمراجعة الإدارية. قبل خروجه ناولته قارورة ماء، ثم وضعت في يده قطعة قماش تغطي عنقه. قالت إن الاحتياط لا يصير أقل ضرورة لأن الرجل الذي ينتظره أخوه. ابتسم، ثم فتش جيبه عن مفاتيح الدكان قبل أن يتذكر أن الدكان مغلق بالشمع. أبقى المفاتيح معه رغم ذلك.

كان الطريق إلى تازرون مستقيماً أكثر مما ينبغي. شقوا في الجبل ممراً جديداً، وبقيت أجزاء الدرب القديم تتلوى فوقه نحيط انقطع عند كل منعطف. عند الحاجز الأول أعاد الحارس الصورة بعد أن قلبها، ونظر إلى وجه ألوكارد طويلاً. بدا الحارس في الخامسة والعشرين، قريباً من العمر الذي كان عليه وارث عند البيعة، لكن فمه يحمل ثقة رجل ولد والملك موجود، ويتوقع أن يموت وهو موجود أيضاً. أشار للسيارة بالمرور، وتابعها بعينيه حتى غابت.

عند الضريح وجد ألوكارد مقعدين خشبيين وشخصاً واحداً واقفاً قرب الجدار. عرف أخاه من طريقة توزيع ثقله على القدمين، قبل أن

يرى الوجه. الثياب داكنة وبسيطة، والشعر أقصر، واللحية تهذبت على هيئة تختلف عن صور الملوك القديمة. أما العينان فبقيتا كما هما، تحملان السؤال قبل أن يتحول إلى كلام. شعر ألوكارد برغبة سريعة في إصلاح ثنية كمّه، كما كان يفعل حين يأتي أخوه ليأخذه من المطبخ إلى الساحة. ترك الكم على حاله ومضى.

ابتعد الحارس الذي كان خلف السيارة حتى صار عند أول المنحدر. بقي وارث واقفاً. قال إن الطريق تغيّر، فأجابه ألوكارد بأن الضريح بقي في مكانه. كانت جملة صغيرة تحتمل كل ما عجزا عن قوله. مد وارث يده، ثم توقف عند منتصف المسافة، كأنه تذكر قماشاً قديماً بين كفين. رأى ألوكارد الحركة، ومد يده هذه المرة عارية. التقت الأصابع، باردة من جهته ودافئة من جهة أخيه، ثم اشتد القبض لحظة أطول من التحية.

جلسا. أخرج وارث من حقيبة إلى جواره خبزاً وزيتوناً وبيضتين مسلوقتين. نظر ألوكارد إلى الطعام، ثم ضحك ضحكة خرجت خشنة من حلق متعب. قال إن أخاه احتاج قروناً ليعيد ما سرقه من المطبخ. أجاب وارث بأنه أعاد البيض فقط، أما الأنف فقد أصلحه الدم من تلقاء نفسه. انفرج وجهه قليلاً، ولف أحد البيضتين بقشرة المنديل كي

يسهل حملها. كان يفعل ذلك بعناية رجل يريد إصلاح شيء صغير قبل أن يتحدث في الأشياء التي لا يملك لها إصلاحاً.

قال ألوكارد: «قرأت رسالة خزيمة.»

بقيت البيضة في يد وارث. وضعها على الغطاء، ومسح أصابعه ببطء. ثم قال: «عرفت منذ زمن. وصلتني رسالته، وأرسلت رجلاً إلى المزارع. وصف الخنجر وما فعلته في الساقية. وبعد سنوات جاءني خبر من الساحل عن شاب يصلح القوارب ولا يبقى في الشمس. كنت أتتبع ما يكفي لأعرف أنك حي، وأوقف السؤال قبل أن يصير طريقاً يصل إليك.» رفع عينيه وأضاف: «هذا ما كنت أقوله لنفسي، على الأقل.»

سأله ألوكارد عن عدد المرات التي أمكنه فيها إرسال كلمة. أجاب وارث بأنها كثيرة. كان بوسعه أن يكذب في العدد، أو أن يسرد المخاطر التي تحفظ وجهه، لكنه نظر إلى أخيه وقال إن كل سنة جعلت الرسالة الأولى أصعب. عندئذ غضب ألوكارد. ضرب راحته على المقعد، فاهتز الخشب. قال إنه نام على أبواب رجال غرباء، وإنه عاد إلى دار الملح يبحث عن قبر، وإنه احتفظ بأخبار تازرون لأن اسماً واحداً فيها يخصه. «كنت تستطيع أن تقول: أعرف أنك حي. لا أطلب عرشاً ولا دعوة إلى البيت. كلمة، يا وارث.»

ابتعدت يد الملك عن الطعام. قال إن الكلمة التي يرسلها ملك يمكن أن تصير وثيقة، وإنه أقسم أمام الزعماء أن البيت بريء من الدم المختلط وأن الابن الخارج منه لا يعود. لو أعاد ألوكارد إلى البيت باسم أخ، لطعن في الشرط الذي استقرت عليه البيعة. سأل ألوكارد إن كانت القرون كلها لحماية قسم قاله وهو خائف. رد وارث أن الرجال الذين سمعوه ماتوا، لكن أبناءهم ورثوا الأراضي والسلطة على أساسه، وأن نقضه يحرّك أكثر من ذاكرة.

قال ألوكارد: «إذن كنت حياً ما دمت خارج الكلام.»

هز وارث رأسه. كان يستطيع احتمال اتهام أقسى من دقة هذه العبارة. أخبره بأن حليمة عاشت في البيت الصغير داخل السور، وأنه حفظ لها راتبها وأبعد عنها رجال السهل. طلبت أن يرسل إليه خبراً حين يجد طريقاً، وظل يؤجل حتى ماتت. يومها دفن معها قطعة قماش كانت تخيطها لابن رافع الذي خرج. سأل ألوكارد عن لونها. قال وارث إنها زرقاء، ثم سكتا، وصلا إلى شيء لا يفيد فيه الدفاع.

سأل ألوكارد عن قاسم. قال وارث إن المعلم بقي في الساحة سنوات، وإنه ظل يرفض تخفيف التدريب لأبناء الزعماء، حتى حين صارت أسماؤهم أثقل من قدرته على حمل السلاح. في آخر عمره طلب أن يستريح في البيت القريب من الضريح، فبنى له وارث سقفاً جديداً.

مات في شتاء كثرت فيه الأمطار، وترك حذاءين أصلح أحدهما بنفسه، ودفتر حساب يطالب فيه الديوان بأجرة ثلاث عصي تدريب كسرها التلاميذ. ضحك ألوكارد حين سمع ذكر العصي؛ كان يعرف بالضبط كيف سيكتب المعلم طلب التعويض.

أضاف وارث أن قاسم سأله مرة إن كان عثر على أخيه. أجابه بأنه يبحث، فظل المعلم ينظر إليه حتى اضطر إلى خفض عينيه. «عرف أنني أكذب»، قال الملك، «ومع ذلك بقي. كلفته بتدريب أبناء من أرادوا قتلك، فكان يضربهم على أصابعهم إذا رفعوا السلاح على خادم.» حكى الجملة كأنه يعيد إلى رجل مات حقاً أخّره. ثم قال إن البقاء في تازرون حفظ له قبورهم كلها، لكنه حرمه القدرة على أن يتذكرهم خارج الطريقة التي ماتوا بها.

رد ألوكارد بأنه يفقد الوجوه. يظن أنه يتذكر صوت حليمة، ثم يسمع امرأة في سوق فيشك إن كان قد أخذ صوتها ووضعه مكانه. يستطيع إصلاح مفصل صنعه قبل مئة عام، ويعجز عن استعادة شكل يد أمه وهي تربط ردائه. نظر وارث إلى أصابعه، ثم وصف له عادة صغيرة لحليمة: كانت تجرّب حرارة الطعام بظاهر اليد نفسها، وتصفع بها أصابع الصبي الذي يقترب قبل الموعد. عادت الحركة كاملة إلى

ألوكارد، فمد يده فوق الغطاء كأنه يرى فيها يد المرأة. شكر أخاه، وبقي الشكر بينهما إلى جوار ما عجزا عن مسامحته.

بعد وقت وضع ألوكارد حافظة سيرين على المقعد بينهما. حكى ما وجد، وقرأ فقرتين من شهادتها. عرف وارث خاتمها الصغير، وأخذه كما يأخذ المرء شيئاً من غرفة أغلقت منذ طفولته. قال إنه يتذكر صوتها وهي تناديه من الدرج، وإنه ظل سنين يغضب منها لأنها جعلت أباه يختار سراً يهدد البيت. قرأ الأمر المنسوخ عن ليلة المذبحة، ثم طلب نسخة. سأله ألوكارد إن كان سيحفظها في خزانة أم يعرضها على زعمائه.

أجاب بأن العرض الآن يفتح حرباً قبل أن يثبت كل ختم. كان صوته قد عاد إلى صوت الملك. قال إن سادن سيحرق المخازن ويغلق طرق الطعام قبل أن يسمح للمجلس بخلعه، وإن البشر سيدفعون الثمن لأنهم يعيشون فوق الأنفاق وفي طرق العربات. أشار ألوكارد إلى العمال الذين اختفوا بالفعل، وإلى الأطفال الذين تدفعهم شركاته عن أبوابهم. رد وارث بأنه يعاقب من يتجاوز الأمر حين يعرف، وأن مملكة كاملة لا تقاس بما فعله رجلان في زقاق. قال ألوكارد إن الزقاق هو المكان الذي يعيش فيه الناس الذين يتحدث عن حمايتهم.

اشتد صوتاهما، ثم خفضه وارث أولاً حين لمح الحارس يتحرك عند المنحدر. كان ما يزال يحرس صورة المجلس حتى في لقاء أخيه. عرض عليه بيتاً خارج طرق الملكين، ومالاً يأتيه من جهة لا ترتبط باسمه، وأوراقاً تسّهل انتقال أنجل وكنزة ومن يريد اصطحابهم. سيتولى إخراج عبد الجليل إذا قبل ألوكارد أن يسحب طلب الإقرار ويغلق اسمه مرة أخرى. قال إن العرض حماية، وإنه يمنحه أخيراً ما عجز عن منحه يوم النفي.

سأله ألوكارد كيف يضمن إخراج الحرفي من قصر سادن. تأخر وارث قبل أن يقول إن بين الحكمين أبواباً يتكلم منها من يبقون خارج الحرب. احتفظ ألوكارد بالتأخر في ذهنه. كان يستطيع أن يسمع نبض أخيه، وأن يعرف أنه اشتد عند السؤال، لكنه احتاج إلى دليل غير جسد يعرف كيف يخاف. وضع الحافظة في حقيبته وقال إن عبد الجليل ليس ثمناً لسكوت أحد، وإن كنزة ستختار بنفسها أين تعيش بعدما يعود.

نهض وارث ومشى إلى الحائط. قال إن أخاه يقفز دائماً إلى ما يجب أن يكون، ويترك للآخرين حمل ما هو قائم. منذ مات رافع وهو يطفئ تمرداً ويشتري موسماً من الهدوء ويمنع السهل من ابتلاع القرى الأصغر. سأله ألوكارد عن القرى التي أخذها في المقابل. استدار

الملك، وفي وجهه غضب خالص هذه المرة: «أنت تستطيع أن ترحل. أنا أبقى حين ينتهي كلامك، وأدفن الذين يسقطون.» ثم رأى أثر العبارة في وجه أخيه، فمد يده كأنه يريد استردادها، لكن ألوكارد كان قد وقف.

قال إنه رحل لأن أخاه أمره بذلك، وإنه يعود الآن إلى مدينة يعرف أن الهرب منها أسهل. أشار إلى الخنجر عند حزامه: «هذا الذي بقي من البيت. أخذته معي حتى حين صار أقصر من أن ينفع في قتال. فلا تشرح لي كأنني اخترت العالم وتركته لك.» أخرج النصل ووضعه بينهما، بعيداً عن يديه. رأى وارث الكسر القديم والخدوش التي أضافتها السنين، فجلس ثانية. مرر إبهامه على المقبض ثم أعاده إلى أخيه.

ظل الأمان الذي وعد به قائماً. حين انتهى الموعد أشار وارث إلى الحارس أن يبتعد عن السيارة، وأعطى ألوكارد ورقة تسمح له بالعبور في تلك الليلة. طلب منه أن يرسل إليه إذا ضاق الطريق، ولو رفض العرض. سأله ألوكارد إن كان سيرد هذه المرة، فقال نعم. جاء الجواب سريعاً، على نحو جعله أقل طمأنينة مما أراد صاحبه. أخذ الورقة وترك البيضة الثانية على الغطاء.

ناداه وارث وهو يبتعد، وسأله إن كان ما يزال ينسى الماء. رفع ألوكارد القارورة التي أعطته أنجل، ثم أكمل السير. عند السيارة وجد كنزة تقف خارجها، وقد أبقت المحرك دائراً منذ تأخر عشر دقائق. سألته إن حصل على شيء يساعد أباها. قال إن وارث عرض إخراجه مقابل اختفائه. أغلقت كنزة الباب بقوة، ثم جلست إلى المقعد الآخر، وطلبت منه أن يروي الحوار من بدايته، بما فيه ما يفضل الاحتفاظ به لنفسه.

في الطريق أعاد ما قيل بأكبر قدر يستطيع من الدقة. توقفت كنزة عند «الأبواب بين الحكمين»، وعند علم وارث باسم أبيها قبل أن يذكره ألوكارد في اللقاء. دوّنت الأمرين. أما هو فظل ينظر إلى الظلام خلف النافذة. عثر على أخيه، وأضاع في اللقاء فرصة أخرى لأن يكون الأمر مجرد عودة إلى بيت.

الفصل العشرون

الجماعة

جاء أيوب إلى اللقاء وفي يده بطاقة أبيه، لا سلاح. وضعها أمام كنزة على طاولة مخزن فارغ، ثم أخرج ورقة حركة لشاحنة خدمات تدخل قصر السرو كل ليلة ثالثة. كانت الورقة أصلية، فيها أثر ضغط القلم على نسختين وتوقيع عامل الميزان. قالت كنزة إن ورقة يمكن سرقتها كما يمكن سرقة قصة، فأجاب بأنه يعرف. طلبت منه أن يصف موضع إنزال المواد، ورسمت ما يقول على ورق. توقف عند باب سفلي لا يعرف ما وراءه. وضعت القلم وقالت إن اعترافه بالحد الذي يقف عنده أصلح من رواية يعرف فيها كل شيء.

كان ألوكارد يراقبه من الجهة الأخرى. في المستشفى وقف الرجل خلف منير وتركه يطالب بالطفل، وهذه حقيقة لا يمحوها دخوله المخزن بيدين فارغتين. سأله عمن حمل صابر إلى الحمام. سمى أيوب الحارس البشري الذي أغلق عليه ألوكارد الشبكة، وقال إنه حي، وإن القصر حمّله مسؤولية إفلات العامل. سأله إن كان يستطيع الوصول

إليه. قال إن الرجل اختفى من سكن العمال، وإن من يبحث عنه الآن سيصل إلى أخته قبل أن يصل إليه. اتفقوا على تأجيل ذلك، وعلى اختبار الطريق الذي قدمه أولاً.

في اليوم التالي ذهبت كنزة مع عامل نقل تعرفه منذ عمل أبيها في الورش. أخذت صندوق قطع تالفة إلى باب الخدمات، بحجة إعادتها إلى المورد الذي كتب عنوان القصر على الفاتورة. كان هدفها أن ترى الحوض الخارجي والرافعة والباب الذي وصفه أيوب. انتظرت نصف ساعة، وتشاجرت مع الموظف الذي أراد أخذ الصندوق بلا توقيع. خرج المشرف أخيراً، فأراها موضع التسليم، ورأت وراءه العلامة نفسها التي رسمها أبوها على أوعية الجير كي يميز نسب الخلط. عادت ومعها توقيع الموظف ومعرفة أن المواد التي يطلبونها تصل إلى ورشة ما زالت تعمل.

أحضر أيوب بعد ذلك إيصالين باسم عامل صيانة محتجز داخل الموقع، مشفّرين برقم لا باسم. قارنت كنزة المقاسات بأوراق أبيها، فوجدت تعديلين كان يستعملهما حين يحسب تمدد النحاس في الماء الساخن. قالت إن شخصاً قد ينسخ حساباته. أقر ألوكارد بذلك، ثم أشار إلى اختلاف الرقم الأخير في الإيصال الثاني؛ هذه مراجعة

جديدة، صادرة بعد اختفاء الرجل. صار لديهم سبب عملي لتفقد الغرفة، من غير أن يعدوها بوجوده فيها.

اجتمعوا في المغسلة مساءً بموافقة يوسف، الذي حدد ساعتين ثم طلب خروج الزوار. حضرت دانية، وأيوب، وهشام، الطبّاع الذي لجأ إليها بعد أن رفض تزوير بطاقات لعمال اختفوا. حمل الرجل طبيعة مصاص دماء حديث التحول، وصعوبة دائمة في الجلوس قرب الطعام البشري. أخبرهم بأنه خرج من مخزن الدم التابع للقصر بعدما رأى أسماء المتبرعين تتحول إلى أرقام ديون. يتولى عادة طباعة نسخ الوثائق وحفظها، ويعرف كيف تمر الأوامر بين المؤسسات. أراد استعمال معرفته في شيء أقوى من الاختباء.

جلس أيوب أقرب إلى الباب. بقي هشام في الجهة المقابلة، وكلما تحرك أحدهما تابع الآخر يده. عرض ألوكارد ما يعرفونه عن عبد الجليل، ثم طلب من كنزة شرح الغرفة المائية. فتحت الرسم، ووضعت ثلاثة أكواب لتمثل أحواض التوزيع. مد يوسف يده إلى أحدها يشرب، فأمسكت الكأس قبل فمه، وضحك لأول مرة منذ دخلوا. بدلت الأكواب بقطع صابون، وبدأت من جديد. كان الضحك قصيراً، لكنه أتاح لهم أن يروا بعضهم في وضع لا يحتاج إلى سلاح.

اعترض هشام على إنقاذ رجل واحد بينما في القبو ملفات تثبت ما فعلوه بعشرات. قال إن عليهم إحراق المضخات وخزانات الدم حتى يخرج الحرس عاجزين. ردت أنجل بأنهم يجهلون من يعتمد على تلك الخزانات، وأن الجوع قد يدفع المصاصين إلى البيوت قبل أن يدفعهم إلى الاستسلام. قال الرجل إن من جاعوا من قومه تعلموا الحصول على دم الناس منذ زمن. احتدت: «وأنت تريد أن تجعل الحي وجبتهم الليلة؟ ارسم لي أين يذهبون حين تحرقه، ثم تحدث عن النار.»

ضرب الرجل حافة الطاولة. قال إنه رأى أخاه يموت في ذلك المخزن، وإن الحديث عن الاحتمالات سهل لمن تستطيع مغادرة المكان عند الصباح. توقف ألوكارد عن رسم الطريق، وأصغى إليه حتى فرغ. سأله عن اسم أخيه، فذكره الرجل بصوت خافت، ثم طلب ألا يكتبوه. أبقى ألوكارد القلم على الطاولة. قال إنهم سيأخذون ما يستطيعون من الأدلة، وإن إحراق ما يحتاج إليه السكان سيجعلهم يحاربون من جاؤوا لإنقاذهم. بقي هشام غاضباً، لكنه عاد إلى الكرسي حين طلبت منه كنزة تحديد خزانة الملفات على الرسم.

كان خلاف أيوب مختلفاً. أراد إخراج أبيه أولاً من مستودع الجبل، لأن اكتشاف تعاونه سيصل إلى الرجل قبل نهاية الليلة. قال ألوكارد إنه يستطيع ترتيب المال والنقل، لكن الطريق يحتاج إلى

شخص يعرف الحراسة. أجاب أيوب بأنه ذلك الشخص، وإنه سيغيب يوماً إذا أرادوا مساعدته بعد ذلك. اتهمه هشام بأنه يشتري لهم خطة لينقذ أباه. رفع المستذئب رأسه وقال: «نعم. هذا أبي. جئت لأنني أريد إخراجه حياً، ولأنني سئمت إخراج آباء الناس من بيوتهم. تريد سبباً أجمل، اطلب رجلاً آخر.»

دخل يوسف من الممر وأغلق الباب الذي ارتفع الصوت وراءه. قال إن أحفاده يسمعون كل كلمة. خفضوا أصواتهم، وبقيت الجملة معلقة بينهم. اقترحت دانية اتصالاً بموظف قديم يستطيع طلب نقل الأب إلى مستشفى خارج المستودع بناء على ملف مرضه الحقيقي. يحتاج الأمر إلى توقيع طبي من الطبيب الذي يتابعه، لا تقرير تختلقه أنجل. تولت الوصول إلى الملف، واتفقوا أن يتوقف عمل أيوب معهم حتى يصل أبوه. كان ذلك أول قرار يكلف الجماعة وقتاً من أجل شخص ليس محور بحثهم.

بعد خروج الزوار أخذ يوسف ألوكارد إلى الغرفة السفلى. أراه طفلاً نائماً فوق دفتر مدرسي، وقال إن نقل الجميع إلى مبنى آخر يجب أن يتم قبل نهاية الأسبوع. المخزن الذي اقترحه أخوه يحتاج إلى إصلاح بابين وستر نافذة واسعة، ويمكنه استقبال بعضهم منذ الغد. وافق ألوكارد على العمل فيه مع كنزة، وعلى نقل الأدوية والنسخ أولاً.

بقيت المغسلة موضع نوم مؤقتاً لأن عبد الجليل، إذا وجدوه مصاباً، سيحتاج إلى ماء ومكان دافئ. قال يوسف إنه يقبل هذه المهلة وحدها، وأخذ منه موعداً محدداً.

في اليوم التالي صحب ألوكارد أيوب إلى طرف المستشفى الذي نقل إليه أبوه، وبقي في المقهى المقابل بينما دخل الابن. كان قد عرض أن يأتي معه إلى الغرفة، فرفض أيوب، يريد أن يخبر أباه بما فعل بنفسه. طال الانتظار، ووصلت إلى ألوكارد رسالة من كنزة تسأل عن رقم مورد النحاس. أعطاها الرقم ثم اكتشف أنه رقم الرجل الذي يصلح الساعات، فاتصل به يعتذر ويطلب رقم جاره. حين عاد أيوب وجد ألوكارد يكتب الرقم الصحيح على ظهر فاتورة قهوة باردة.

جلس المستذئب وقال إن أباه وصفه بالأحمق. قضى الرجل عمره يحافظ على عمله في المخازن، ويرى في خروج ابنه على العشيرة تهديداً لما جمعه. سأله إن كان سيستطيع أن يحمي أخته حين يرجع الحرس، فاعترف بأنه يحتاج إلى مساعدة. غضب الأب أكثر حين سمع ذلك؛ كان يريد ابناً يضمن الأمور لا ابناً يطلب من غرباء إنقاذه. شرب أيوب الماء ثم قال إن أباه، قبل خروجه، أعطاه معطفه لأن الجو بارد. بقي المعطف فوق ذراعه الآن، ضيقاً عليه عند الكتفين، لكنه حمله كما هو.

قال ألوكارد إن عليهما ترتيب سكن للأخت قريب من المستشفى، وإن الجماعة تستطيع دفع الأجرة من المال الذي بقي. رفض أيوب أن يأخذ مبلغاً من غير أن يعرف ما سيتركه ذلك للآخرين. فتحا الحساب على الطاولة، وكتبا كلفة السيارة والغرفة والمواد. شطبا شراء جهاز جديد للطباعة، وقررا استعمال جهاز قديم يحتاج إلى إصلاح. حين عرضا القرار في المساء، اعترض هشام لأن الجهاز القديم قد يفسد النسخ في وقت حرج. أعطته كنزة خيارين في الإصلاح، واتفقوا على اختبار نسخة قبل الاعتماد عليه. كانت المساعدة، للمرة الأولى، شيئاً يعدل خطة العمل بدل أن يضاف إليها في عبارة طيبة.

عمل ألوكارد في المخزن الجديد ليلتين. كان مبنى على طرف سوق مهجور، تعلوه غرفة لحارس مات وترك أقاربه يبحثون عن مستأجر. أصلح المزلاج، وركّب للنافذة حاجزاً من الخشب يمكن نزعه من الداخل. أخطأ في قياس أحد الألواح لأنه قرأ الرقم الذي كتبته كنزة مقلوباً، فاضطر إلى وصله بقطعة أخرى. جاءت أنجل تحمل طعاماً لها وقارورة له، وجلست على صندوق تراقب غضبه من المسطرة. قالت إن عليه أن يتوقف عشر دقائق، فأجاب بأنه أوشك أن ينتهي. أشارت إلى اللوح: «هذا جواب قلته قبل نصف ساعة.»

جلس أخيراً. أخبرته بأن الاستدعاء الإداري انتهى إلى تعليق مؤقت لبعض صلاحياتها، وأن زميلاً تولى متابعة المرضى الذين قد يتضررون. كانت ستبقى في العمل بالمقدار الذي يسمح لها، وتوثق ما يحدث. طلبت منه أن يسمع الخبر كله قبل أن يعرض مالاً أو بيتاً جديداً. سمعه. ثم حكى لها عن وارث، بما فيه طلبه كلمة وعن حليمة التي انتظرته حتى ماتت. مدت يدها إلى الكأس وبقيت تمسكه، تاركة له الوقت الذي يحتاج إليه كي يقول اسمها مرة أخرى.

قال إنه يخاف أن يجعلها تنتظر شيئاً لن يستطيع إعطاءه. سألته عما يقصده، فتحدث عن العمر، وعن الأيام التي سيظل فيها وجهه كما هو بينما يتغير وجهها. أجابت أنها تفكر الآن في الأسبوع المقبل، وفي أن تقضي ليلة تعرف أنه سيخبرها إذا غير خطته. الزمن البعيد يستحق حديثه، لكنه لا يبرر أن يقرر عنها الحاضر. ثم أضافت، بصوت أهدأ، أنها تريد أن تكون معه، وأنها تخاف أيضاً، وأن الأمرين يجتمعان من غير حاجة إلى حل فوري.

وضع يده على الطاولة قرب يدها، وانتظر. اقتربت هي، ولمست الخد الذي بقي يحمل خدشاً من إصلاح النافذة. كانت قبلتهما الأولى بطيئة، مرتبكة قليلاً بسبب المقعد الضيق والضوء الذي انطفأ حين تحرك سلك المصباح. ضحكت أنجل في الظلام، وأمسك ألوكارد المصباح قبل أن

يقع. بقي جبينه قرب جبينها وهو يعيد تثبيت السلك، ثم ترك الأداة وجلس إلى جانبها. هذه المرة ترك العمل ناقصاً عن قصد.

حين رجعا إلى المغسلة وجدا كنزة مستيقظة، تراجع الحسابات تحت مصباح يوسف. رفعت عينيها، ورأت ما يكفي، ثم أشارت إلى موضعين في الرسم. قالت إنها تحتاج إلى رأيهما في نقل المصاب، لا في المضخة وحدها. جلسا معها. اختارت أنجل طريقاً أطول لكنه يتسع للنقالة، واعترض ألوكارد على موضع مكشوف بين بابين، فوجدت كنزة فتحة يمكن توسيعها قبل الدخول. انتهى النقاش إلى خطة تحمل تعديلاتهم جميعاً، وضع كل واحد اسمه إلى جوار الجزء الذي سيتولاه، كي يعرف الآخرون من يسألون إذا تغير شيء.

عاد أيوب في الليلة الثالثة. وصل أبوه إلى المستشفى، وأخذت أخته غرفة قريبة تبقى فيها معه. عرض رسالة الطبيب وموعد الزيارة قبل أن يسأله أحد. جلس بعيداً عن هشام بمقدار كرسي واحد هذه المرة، وفتح خريطة الخدمات. قال إن شاحنة المواد ستدخل في الليلة التالية، وإن المشرف طلب زيادة ساعات العامل في الغرفة السفلية. ضغطت كنزة على القلم حتى انكسرت سنه. أعطاها ألوكارد قلمه، ثم فتش جيبه عنه بعد دقائق، فدفعته إليه وهي تضحك من غير صوت.

قبل انفضاض الاجتماع، وضعت أنجل شرطها للعملية: إذا كان عبد الجليل في حال لا تسمح بالنقل، يعودون إلى القرار بدلاً من جرّه إلى الطريق ليقولوا إنهم أنقذوه. اعترضت كنزة فوراً، ثم سكتت حين سألتها الطبيبة كيف تريد حمل أبيها إذا توقف تنفسه في المجرى. احتاجت إلى وقت، وخرجت إلى السطح ثم رجعت. قالت إنها ستقبل التقييم، لكنها ستكون معه حين يسمعه. وافقوا، وأدخلت دانية الشرط في الورقة التي تلخص أدوارهم.

في نهاية الليل جلس يوسف يعد الأكواب. وجد واحداً ناقصاً، ونظر مباشرة إلى جيب ألوكارد. أخرج الرجل مفتاحاً وقطعة خشب ومنديل أنجل، ثم رفع كفيه. كان الكأس عند هشام، الذي أخذه إلى النافذة ونسيه هناك. جمعه يوسف وهو يتمتم بأنهم جاءوه بمملكتين كاملتين وعجزوا عن رد ستة أكواب إلى موضعها. سمعوه جميعاً، وتركوه يتذمر. كان في صوته حق منزلي صغير يحتاجون إلى بقائه أكثر مما عرفوا في تلك اللحظة.

الفصل الحادي والعشرون

الأب المفقود

كانت رائحة الجير أول ما وصل إلى كنزة من الباب السفلي. وقفت وراء صندوق نحاس فارغ في شاحنة الخدمات، وأغمضت عينيها لحظة. تعرف هذه الرائحة من صباحات الورشة، حين يسبقها أبوها إلى العمل ويترك فطوره قرب الدلو حتى يبرد. الآن جاءت مختلطة برطوبة عميقة ووقود المولد، فأعادت فتح عينيها وشدت رباط الحقيبة. أمامها نزل أيوب يحمل ورقة التسليم، وترك ألوكارد في الظل خلف الرافعة. كان هشام عند المخزن الخارجي يعد العائدين من المناوبة، ودانية تنتظر أول إشارة لتشغل الديوان بطلب معاينة عاجلة للختم.

كسبتهم المعاينة عشر دقائق من ارتباك الحرس. اتصل موظف القصر بالمشرف ليسأله عن الموضع الذي ينبغي أن يؤخذ إليه وفد المجلس، فصعد المشرف وهو يلعن الموعد. بقي حارسان عند باب الخدمات، يعرفان أيوب من عمله مع منير. قال إن النحاس يجب أن

ينزل إلى الغرفة قبل إغلاق الماء، وإن العامل طلبه بنفسه. سأله أحدهما عن المرأة، فأجابت كنزة بأنها تحمل المقاسات وأن الحمّال يخلط بينها. دفعت إليه إيصالاً حقيقياً من المورد، وبقيت تتذمر من تأخر الأجر حتى ملّ الاستماع وأشار لها بالنزول.

عند آخر الدرج انحرفت القناة عن الرسم. كان جدار إسمنتي حديث قد أغلق الفرع الذي توقعته كنزة. توقفت، وأخرجت المصباح من تحت المعطف. ساعدها ألوكارد في تحسس الحافة، وسمعا من خلف الجدار صوت طرق معدني منتظم. ثلاث ضربات، انتظار، ثم ضربة أخف. وضعت كنزة كفها على الحجر وقالت إن هذه طريقة أبيها حين يثبت حلقة ويختبر صوتها. استطاع ألوكارد أن يسمع رجلاً يسعل بين الضربات، لكن الرغبة في التصديق جعلته أكثر حذراً. بحثا عن الباب الذي يصل الصوت منه، بينما بقي أيوب عند أول المنعطف يراقب الطريق.

وجداه من خلال نافذة صغيرة فوق فتحة صيانة. كان عبد الجليل جالساً على صندوق، يمسك قطعة نحاس بملزمة مثبتة في الأرض. بدا أنحف من الصور، وشعره أبيض عند الجبهة أكثر مما تذكر كنزة، لكن الطريقة التي يدير بها المعصم بقيت هي نفسها. عند الباب جلس حارس بشري إلى سخان ماء، يتابع مقطعاً على هاتفه. خلف الأب مضخة

قديمة لها ثلاث عجلات، وحوضان حجريان يفصل بينهما جدار رقيق. رأى ألوكارد خطوطاً داكنة تحت سطح الحجر تشبه ما رآه في الختم، إلا أن موضع اليد هنا كان محاطاً بقيود معدنية.

قالت كنزة اسمه بصوت يكاد لا يخرج. رفع الرجل رأسه. تحركت شفتاه باسمها، ثم اتجهت عيناه فوراً إلى الحارس. تراجع عن النافذة وأخذ يطرق بصوت أعلى، ليغطي ما قد يصدر عنها. رأت في الحركة نفسها خوفه عليها وغضبه من مجيئها، وكل الأيام التي أمضتها تتخيل أنه سيضحك حين يراها. كان عليها أن تنتظر نصف دقيقة إضافية بينما يقترب ألوكارد من الباب الآخر. بدت لها أطول من الأيام كلها.

دخل أيوب أولاً، وسأل الحارس عن سجل ساعات العمل. حين انحنى إلى الدفتر، أمسك ألوكارد ذراعه وأبعد الهاتف. قاوم الرجل وفتح فمه، فدفعه أيوب إلى الكرسي وطلب منه أن يبقى هادئاً. قال الحارس إنه ينفذ عملاً وإن له أطفالاً. أجابه أيوب بأنه يعرف بيته، وأن أحداً لن يذهب إليه إذا سمح لهم بالخروج. رفع الحارس عينيه إلى أيوب عند ذكر بيته. كانت كنزة قد تجاوزتهم ووصلت إلى أبيها.

لم تحتضنه فوراً. توقفت عند يديه المقيدتين بسلسلة طويلة تسمح له ببلوغ المضخة. أخذت السلسلة ورفعتها كأنها شيء يمكن فهمه إذا رأته من جميع الجهات. قال لها عبد الجليل: «أعطيني حقيبتك. ثقيلة على

كتفك.» عندها انحنت عليه، ووضعت وجهها عند رقبته. شمّت الجير والعرق والصابون الرخيص، وبكت بقوة أغضبتها من نفسها. بقيت يداه على ظهرها، تتحركان ببطء رجل يخشى أن يستيقظ إذا أسرع.

فك أيوب القيد بمفتاح الحارس. طلب الأب مهلة لإيقاف الماء، وإلا اندفع إلى القناة التي سيخرجون منها. ظن ألوكارد أنه يريد تأخيرهم خوفاً من العقوبة، لكن كنزة رأت المؤشر المعدني يتجاوز العلامة الحمراء. تركت العناق وأمسكت عجلة إلى جانبه. أخبرها أن تديرها على دفعتين، لا مرة واحدة، ووبخها حين شدت قبل أن ينهي العد. ابتسمت وهي تبكي، وأدارتها كما طلب. عاد بينهما صوت العمل قبل أن يعرفا كيف يعود صوت البيت.

من الخارج جاء صفير قصير من هشام، ثم صوت حذاء على الدرج. ظهر حارس من قوم سادن عند الباب، فتلقى ضربة ألوكارد قبل أن يصل إلى العامل. ارتطم بعمود، وتعافى أسرع مما توقع أيوب، فمد يده إلى جهاز الإنذار. ضربت كنزة الجهاز بالملزمة فتهشم، لكنها جرحت راحة يدها بحافة المعدن. اتسعت عينا المصاص. عرف ألوكارد اتجاهه قبل أن يقفز، واعترضه عند الحوض. دار القتال في مساحة ضيقة، والماء يرتفع عند أقدامهم، وعبد الجليل يصرخ باسم ابنته كي تبتعد عن العجلة.

حاول أيوب التدخل، فأوقفه ألوكارد بذراعه السليمة. كانت يد المصاص قد شقت كتفه، وخطر دمه على المستذئب أقرب من خطر القبضة. رمى إليه قطعة قماش ليغطي الجرح، ثم دفع المهاجم إلى تجويف الصيانة وأغلق عليه الباب الثقيل. بقيت الضربات ترج الحديد. احتاجوا إلى وقت يكفي عبور الممر، لا إلى انتصار كامل. حمل أيوب الأب من تحت الإبط، وأخذت كنزة حقيبة الأدوات التي أصر على اصطحابها. قال إن فيها شيئاً يثبت ما فعلوه، وإنه سيرميها بنفسه إذا أعاقتهم.

عند المنعطف التقت بهم أنجل. كانت قد تقدمت من نقطة الانتظار حين سمعت الاضطراب، ومعها الحمالة القماشية التي أعدوها. فحصت عبد الجليل بسرعة، وسألته عن الألم والدواء وآخر مرة شرب فيها. أجاب عن بعض الأسئلة، ثم أشار إلى ابنته طالباً فحص يدها. قالت إنها ستفعل، وطلبت منه أن يساعدها بالجلوس. حملوه على الحمالة في الجزء الضيق. كان واعياً، لكنه يفقد قدرته على تثبيت رأسه كلما ازداد ميل الطريق. ثبتت كنزة القماش عند كتفه، ومشت إلى جانبه وهي تعد الدرجات بصوت يسمعه.

في منتصف المجرى رأوا ماء يتسرب من شق جديد. توقف ألوكارد، وتذكر كيف أنقذته قناة قديمة من الحريق. هذه المرة أمامه

رجل لا يستطيع الزحف وحده. طلب من أيوب العودة إلى العجلة، لكن عبد الجليل أمسك ذراع كنزة وأشار إلى فتحة أعلى الحائط. قال إن المجرى سيتوقف عن الارتفاع حين يبلغها؛ هي مفيض احتياط، وإن الصوت الذي يسمعونه يدل على أن الماء خرج إليه بالفعل. انتظروا بضع ثوانٍ، فانخفض الضغط. شكرته أنجل وقالت إن عليه الآن أن يدعهم يحملونه، فاستسلم للمرة الأولى من غير اعتراض.

خرجوا إلى المخزن في موعد متأخر عن الخطة بسبع دقائق. كانت دانية قد استنفدت حججها عند القصر، وغادرت حين طلبوا منها تسليم هاتفها. أخذ هشام نسخة من سجل العمل وبعض الإيصالات، وترك الملفات الأثقل حين سمع الصفارة. أغلق أيوب الباب الخارجي خلفهم، ثم عاد وفتحه للحارس البشري الذي احتجزوه في غرفة الأدوات. قال له إن الخروج من الجهة الغربية آمن. رأى ألوكارد الرجل يركض نحو الضوء، وأبقى الطريق مفتوحاً حتى ابتعد.

استقبلهم يوسف عند المغسلة بماء ساخن وأغطية. نظر إلى السلسلة التي بقيت حلقتها حول معصم عبد الجليل، ثم فتح الغرفة التي قال إنه يريد إخلاءها. وضعت أنجل المصاب على الفراش، ورتبت فحصه مع طبيب يعرف يوسف ويقبل أن يأتي إلى البيت. احتاج إلى علاج ومراقبة، وإلى تعويض ما نقصه من طعام ودواء خلال الأسر. قالت

لكنزة إن الليلة ستطول، وإن عليها أن تأكل وتغسل الجرح في يدها. جلست الابنة على الأرض قرب الفراش، تتناول الخبز بيدها الأخرى وتراقب صدر أبيها يرتفع.

استيقظ بعد ساعات وطلب الهاتف. كان أول ما سمعته أمينة منه سؤاله عن تسرب سقف الورشة. صرخت في وجهه، ثم بكت، ثم شتمته لأنه يسأل عن السقف وهي تحسب الأيام. وضع الهاتف بعيداً قليلاً عن أذنه، وظهرت على وجهه ابتسامة متعبة. حين استطاعت أن تسأله عن حاله، قال إنه في مكان دافئ وإن كنزة معه. أرادت العنوان لتأتي فوراً. تولت الابنة شرح النقل الذي يرتبونه لها، وأكدت أنها ستراه في الصباح إذا استقرت حالته. بقيت أمينة تقول اسمه في آخر الاتصال، كأنها تختبر أن الصوت ما زال يجيء حين تنادي.

قبل وصول أمينة جلس ألوكارد قرب الفراش، ووضع كأس الماء في الموضع الذي تستطيع يد عبد الجليل بلوغه. كان الرجل قد استيقظ، وبقي يتأمل وجهه في الضوء الضعيف. سأله إن كان هو المرمّم الذي جاءه بمقاس المحور، فقال نعم. قال الأب إن ابنته أخبرته بما يكون، وإنه يحتاج إلى أن يسمع ذلك منه. أجابه بقدر ما طلب، وترك له الوقت بين السؤال والآخر. سأل عبد الجليل إن كان يفهم

الآن سبب تعلق ابنته برسم قديم، ثم ضحك من نفسه؛ هو الذي بدأ الأمر كله، ومع ذلك يتكلم كأنها ورثت العناد من رجل غريب.

أراد ألوكارد أن يعتذر عن تأخرهم، فقاطعه الحرفي وطلب وصف الختم. أصغى إلى ما حدث عند الحجر، ثم أغلق عينيه. قال إنه حين وجد الباب ظن أن وراءه قبراً أو مخزناً، وإن المشرف منعه من تنظيف الكتابة قبل أن يقرأها. ألح لأن الحجر كان يتآكل، ولأن كل ما أتلفه العمال قبله سيصبح عيباً يحاسب عليه هو عند التسليم. «كنت أدافع عن عملي»، قال، «ثم وجدتهم يسألونني عمن دفعت إليه النسخة. في أول يومين ظللت أظن أنني سأشرح لهم فيفهمون.»

سأله ألوكارد عن الطريقة التي أبقته واقفاً. أشار إلى حقيبة الأدوات. كان يحصي ما فيها كل ليلة، ويضع الأشياء في ترتيب يخصه، ثم يعيدها إذا فتشها الحرس. بعد أيام بدأ يحسب زمن إصلاح المضخة بطريقة تبقيه ضرورياً؛ ينجز ما يمنع الانهيار، ويؤجل ما يجعلهم يستغنون عنه. شعر بالخزي حين قال إنه أصلح لهم موضعاً يستعملونه في ما يجهله. أجابه ألوكارد بأن البقاء حياً في أيديهم كان عملاً صعباً بما يكفي. طلب منه الحرفي أن يقول هذا لكنزة إذا رأته غاضبة من سكوته، ثم تراجع: «لا. سأقوله لها أنا. ساعدني فقط حين أطلب الماء.»

في الصباح جاءت أمينة تحمل معطفه وعلبة الطعام نفسها. وضعتها على الطاولة بحدة، وسألته إن كان سيعيد الزيتون مرة أخرى. فتح العلبة وأخذ حبة، ثم قال إن الملح زائد. ضربته على كتفه بخفة، بعيداً عن الموضع المؤلم، وجلسا متلاصقين كما يجلس زوجان في غرفة انتظار اعتادا ضيقها. خرجت كنزة إلى الممر. سمعت أمها تسأله إن ضربوه، ثم خفضت الباب حتى صار الصوت بينهما وحدهما.

قضى عبد الجليل يومه الأول في النوم والكلام المتقطع. وفي اليوم الثاني أصر على معرفة من جاء به. جلس أيوب عند القدمين، وشرح أنه كان يعمل مع الرجال الذين أخذوه. طلب الأب أن يرى وجهه جيداً، ثم سأله إن كان من وقف عند الباب ليلة غيابه. قال إنه كان في الخارج. طال صمت الرجل، وأخيراً قال إنه يحتاج إلى وقت قبل أن يشكره. قبل أيوب الجواب، وترك له الماء قريباً من يده. كان ذلك أصدق ما استطاعا بلوغه في تلك الزيارة.

أما مع كنزة فوقع الشجار بعد الظهر. أحضرت له الأوراق التي وجدتها في الأنبوب، وسألته لماذا تركها تسير وراء أشخاص يملكون غرفاً يقيدون فيها العمال. قال إنه أراد أن يتحقق أولاً، وإنه ظن أن معرفتها ستجعلها في الخطر. دفعت الورقة على الفراش: «ها أنا فيه. دخلت إلى القبو لأصل إليك، وأنت ما زلت تتكلم كأن إخفاء الرسم

كان سيحميني. علّمتني أن أفحص الجدار قبل أن أسنده، ثم أرسلتني إلى جدارك بعينين مغمضتين.»

غضب بدوره. قال إنها ابنته، وإنها تعرف كيف تتكلم بعد أن وقع كل شيء. ثم سمع نفسه، فرجع بظهره إلى الوسادة. كان قد استعمل العبارة التي يكرهها حين يقولها المشرف للحرفيين. طلب الورقة ثانية، وأراها الموضع الذي حذف منه جزءاً قبل أن يعود إلى البيت. قال إنه خاف عليها، وإن الخوف جعله يختار أسوأ طريقة ليبقيها خارجه. جلست على حافة الفراش، وأخذت الورقة من غير أن تمزقها أو تسامحه فوراً.

أخرج من حقيبة الأدوات ملفاً صغيراً غلفه بورق عازل. فيه قياسات المضخة، وقائمة أوقات تشغيلها، ونسخة من علامة محفورة بين الحوضين. شرح أنه وجد الختم أولاً حين تتبع ماء الحوض، ثم استدعوه إلى الغرفة الأخرى ليفك انسداداً يهدد موعداً يسمونه التجديد. حاول المشرف إرغامه على تحطيم الحجر حول الأنبوب، فرفض لأن الضغط سيشق الأساس. حين أدركوا أنه الوحيد بين العمال القادر على إصلاحه من غير تدمير، أبقوه مقيداً وأرسلوا بقية الرجال إلى الخارج.

سألته دانية عن الحوضين. قال إن أحدهما يستقبل دماً من جهة القصر، والآخر من رجل يأتي من تازرون ومعه حافظة مختومة. رآه يضع الحافظة بين يدي سادن، ويسجل رقماً على اللوح ثم ينتظر حتى يسحب الحجر اللون إلى داخله. أكد عبد الجليل أن السائلين يمران في قناتين منفصلتين؛ حتى نقطة التسرب كان يؤمر بعزلها فوراً. ظن أول الأمر أنه طقس مقزز يخصهم، ثم سمع المبعوث يسأل عن قدرة الموضع على حمل دورة أخرى. في ذلك اليوم عرف معنى سؤال ريّان: من رأى الوجه الآخر؟

تركهم الأب يفحصون القياسات، وطلب من كنزة إصلاح رجل الكرسي الذي يجلس عليه يوسف. احتجت بأن عليه الراحة، فقال إن الراحة صارت تؤلمه في الظهر، وإنه يريد استعمال يديه في شيء يختاره. أحضرت الكرسي والأداة، وجلست إلى جانبه. حدّد الشق وأمسك الخشب بينما أدخلت هي الغراء. قالت إن الوصلة القديمة رديئة. رد بأن صاحبها ربما عمل مستعجلاً. من الباب قال ألوكارد إنه صاحبها، فرفع عبد الجليل عينيه إليه وقال إنهم سيتحدثون عن الأجر بعد أن يتعلم قياس الزاوية.

ضحكت كنزة، ثم فاجأها بكاؤها في منتصف الضحكة. بقي أبوها ممسكاً بالخشب كي تستقر الوصلة، وانتظر حتى عادت إلى العمل. قال

لها إنهما سيغيران ترتيب الورشة حين يرجعان؛ الطاولة الطويلة ستكون لها، وهو يأخذ الموضع القريب من النافذة. اعترضت بأنه سيظل ينقل أدواتها إلى مكانه، فأجاب بأن ذلك جزء من التعليم. اتفقا على رسم الترتيب في المساء، ووضعت الورقة الفارغة تحت علبة الطعام حتى لا تضيع.

الفصل الثاني والعشرون

التفاهم الخفي

دخل ريّان غرفة الديوان بعد انتهاء التحقيق في فرار العامل. بقيت على الطاولة أكواب ماء لم يشرب منها أحد، وورقة يسجل فيها الكاتب أسماء الحرس الذين عوقبوا. كان اسمه في أعلى الصفحة، ثم شطب بخط واحد وأعيد إلى الهامش. منحه سادن يومين لاستعادة ألوكارد والحرفي، وسحب منه حق الاطلاع على أوامر النقل القديمة. عرف معنى الإجراء قبل أن يبلغوه: صار القائد الذي يعرف الملفات أقدم مما ينبغي، وصارت معرفته عبئاً على الرجل الذي حفظ له منصبه.

في غرفة الأرشيف احتفظ الموظفون بخزانة تختلف عن سائر الخزائن. مفاتيحها عند صاحب الوصاية، لكن الصناديق تنقل منها إلى مكتب المراجعة في نهاية كل دورة. أشرف ريّان على نقلها مرات كثيرة، ورأى قبل قرون كتّاب تازرون الذي وصل بعد الحريق. كان يريد الوصول إليه منذ ذلك اليوم، ثم جعل التأجيل عادة مريحة. الآن وقف أمام الصندوق المفتوح وسأل نفسه إن كان يبحث عن دليل

ينقذ آخرين أو عن ورقة تمنع الملك من التخلص منه. وجد السببين في اليد التي امتدت إلى الغلاف.

لم يأخذ الكتاب وحده. صوّر صفحة القيد التي تثبت مكانه ورقم نقله، وأخذ وصل التجديد المقترن به، ثم وضع في موضعهما ورقتين بالحجم نفسه كي يؤخر اكتشاف النقص. كان يعرف أن الوقت الذي يشتريه يقاس بساعات. في الممر اعترضه الكاتب وسأله عن إذن الاطلاع. أراه ريّان خاتم منصبه، فقال الرجل إن الإذن الجديد يجب أن يكون مكتوباً. للمرة الأولى منذ زمن، صار الخاتم أقل قوة من ورقة لم تصل بعد. دفع القائد الباب وخرج، وترك الكاتب يتصل بالحرس.

وصل إلى دانية عبر وسيط من دار السجلات، في حمام قديم أغلق صاحبه قسمه الخلفي للإصلاح. جاء ألوكارد معها، وأبقى كنزة في موضع تستطيع منه مراقبة الباب الخارجي. حين رأى ريّان، عاد إلى فمه طعم دخان بعيد. نظر إلى ندبته، وإلى الكف التي أغلقت عليه طريق المخزن. قال القائد إنه يعرف ما يحق له أن يتوقعه من هذا اللقاء. أجاب ألوكارد بأنه جاء من أجل أوراق، وإن الكلام عن الحق سيطول إن بدأوه الآن.

وضع ريّان الغلاف على الحجر الدافئ. فتحته دانية بقفازين، وفحصت الخيط والختم ثم صفحة القيد. سألت عما أخذه سادن من الأرشيف

بعد صدور أمر عزله عن الملفات. قال إن ملف سيرين نقل إلى جناح الملك، وإن سجلات الهجوم القديم بقيت ضمن مراسلات الهدنة لأنها تتعلق بتعويضات الحدود. كانت هذه طريقة السلطة في حفظ ما تخجل منه: تضعه تحت اسم الحساب الذي احتاجت إلى تسويته.

قرأ ألوكارد كتاب تازرون أولاً. يحمل ختم وارث، وتاريخاً بعد حريق المخزن بأسبوع، والصيغة التي مرّ بها ريّان في الديوان: عهد الهدنة يتجدد. في المتن إقرار بما قدمه صاحب الوصاية من دم في دورة البيعة، وتثبيت لاسم وارث بوصفه متلقي العهد. وأسفل الصفحة شرط إخراج الابن المختلط من البيت الحاكم، ووصفه بأنه انقطع عن حق الرجوع. كان موت ألوكارد الوارد في سجل المدينة خبراً مستقلاً أرفق بالكتاب لاحقاً؛ لم يتضمن توقيع وارث إقراراً برؤيته ميتاً.

أعادت دانية ترتيب الصفحات. قالت إن التفريق مهم: وارث أقسم على الإقصاء، أما سادن فخوّل الإقصاء إلى موت موثق. بعد ذلك استطاع الاثنان الاستفادة من السجل نفسه من غير أن يكتبا الكذبة بالطريقة ذاتها. سأل ألوكارد عن الدم. أشارت إلى وصل مختوم باسم سادن، وفيه علامة تطابق ما نسخه عبد الجليل بين الحوضين. تحتها تاريخ الدورة المقبلة، بعد أقل من شهر. سكتت لتعيد قراءة العدد، ثم طلبت من ريّان أن يصف ما شهده بنفسه، لا ما سمعه من الموظفين.

قال إنه كان يحرس باب غرفة التجديد، وإن سادن يدخلها قبل كل دورة ويخرج منها متعباً على نحو يتعمد إخفاءه. تصل حافظة من تازرون، ثم تعود فارغة ومعها وصل، وأحياناً يتبادل المبعوثون حوافظ أخرى في الطريق. كان يعرف أن الطقس يخص أعمار الملوك، لكنه اعتبر التفاصيل من شأن من يجلسون على العروش. دانية لم تقبل العبارة. سألته كم عام احتاج ليعرف أن حراسة الباب مشاركة في ما يجري وراءه. نظر إليها وقال إنه احتاج إلى أن يرى اسمه في الهامش. كان الجواب قبيحاً بما يكفي لتصدقه.

في الملف الثاني ورد طلب من رجوان بإضافة رجال إلى خدمة بوابة تازرون قبل الهجوم. الحجة نقص الحمّالين في أيام اجتماع الزعماء. إلى جانبه كشف صرف من شركة قوافل تابعة لسادن، يدفع أجور الرجال أنفسهم في الفترة نفسها. وفي رسالة قصيرة يطلب صاحب الوصاية أن تؤخذ «الملاحظة على الابن بعد الخطر»، وأن يبقى رافع حياً إلى أن يتضح أثر التجربة. وفي ذيلها أمر بإبقاء تجديد عهد رافع في موعده: «الضغط عليه بدم التجديد ينبّهه إلى شكّا، وقد يخفي الابن قبل أن نراه». كان التوقيع مختصراً، لكن ختم التسجيل يطابق أوامر أخرى في الصندوق.

ثبتت يد ألوكارد على الصفحة.

صار للهجوم ترتيب. شكّ سادن في أن سيرين أنجبت قبل موتها، وأرسل يسأل عن ولد رافع الأصغر. جاءت الأخبار بطفل ضعيف، يتأخر تحوله، ويحجبه أبوه عن الفحص كلما اقترب المعالج من الدم. عرض رجوان الاضطراب الذي يحتاج إليه مقابل دعم انقلاب يضعه قرب الحكم. فتح رجاله بوابة الخدمة، ودخل العطاشى في أيام الهدنة ليصنعوا خطراً يكفي لإيقاظ ما في جسد الفتى. أما موت رافع فجاء في الفوضى التي أطلقها الحليف المحلي؛ سجل سادن اعتراضه على «إتلاف الطرف قبل اكتمال المعاينة»، كأن الرجل الذي مات بين ابنيه قطعة استعملت بعنف.

خرج ألوكارد إلى غرفة الماء. تبعه ريّان خطوتين ثم توقف حين التفت إليه. سأل ألوكارد إن كان يعرف بهذا الأمر يوم طارده. قال إنه عرف اسم الأم وما يريده الملك من الغريب، أما ترتيب البوابة فقرأه في الملف الذي يحمله الآن. أراد ألوكارد أن يضربه حتى يفقد القدرة على الكلام بهذه الدقة. قبض على حافة الحوض، فتكسر جزء منها تحت أصابعه. بقي الدم في كفه، وبقي ريّان أمامه، ينتظر ما يأتي. أخذت دانية قطعة قماش ووضعتها على الحجر بينهما من غير أن تمسك أياً منهما.

قال ألوكارد إن عمّار مات في تلك الليلة، وإن ابنه بقي ينتظر خبراً يعود معه إلى البيت. ذكر الحارس الذي سأل عنه أبوه وهو يحتضر، والرجال الذين حملوا المصابين عبر الفناء. كان يسميهم واحداً واحداً، ويحاول أن يستعيد ما يعرفه عن وجوههم، بينما يختصرهم الملف في نفقة اضطراب. قال ريّان إنه يستطيع إعطاءه أسماء من حملوا الأوامر. أجابه بأن ذلك سيكون عملاً، أما الاعتذار فيحتاج إلى وقت يعرف فيه لمن يوجهه.

حين عادوا إلى الملف، وجدت كنزة في كشف التعويضات اسم رئيس السهل نفسه الذي ورد في أوراق إصابة سيرين. هنا ثبت الاسم الذي بقي عاماً في شهادة المرأة بدار الملح. امتدت الشراكة من ملاحقة الأم إلى اختبار الابن، ثم تغيرت بوفاة رافع ووصول وارث إلى البيعة. كان رجوان وسيطاً يبيع الطرق والأبواب، بينما احتفظ سادن بالقدرة على ربط الحاكم الجديد بطقس لا يعرف أكثر قومه منه إلا اسمه.

قالت كنزة إنهم إذا أسقطوا سادن وحده، أبقوا في الجبل ملكاً يخشى انقطاع ما يطيل عمره، وإذا أسقطوا وارث وحده، بقيت جهة القصر قادرة على شراء بيعة جديدة. اعترض ريّان بأنهم لا يعرفون بعد إن كان الدم يستطيع الانتقال إلى صاحب وصاية آخر. وافقت دانية

على الاعتراض؛ الوصل يثبت الاسمين، ولا يشرح كل شروط التبديل. وضعت علامة عند العبارة التي تحيل إلى «العهد الأول»، وقالت إن النسخة الأصلية أقدم من العرشين بصورتهما الراهنة، وإنها ستبحث في نصوص التأسيس التي سبق أن أغلق المجلس تداولها.

في الخارج صاحت كنزة باسمهما. وصلت سيارتان إلى باب الحمام، ونزل منهما رجال القصر. تقدم ريّان قبل ألوكارد، وأخرج خاتمه ليأمرهم بالرجوع. قال قائد المجموعة إن الخاتم أُلغي، وإن الملك يطلبه حياً ليشرح اختفاء السجلات. رأى ألوكارد أن رجلاً من الحرس هو بشير الذي وصفته أوراق الحريق، تعرف إليه من احتراق قديم عند الحاجب ومن الطريقة التي خاطب بها ريّان. كان القائد قد خرج من حماية منصبه، وصار جسداً يستطيع الرجال دفعه إلى السيارة.

أعطى ريّان دانية طريقاً يمر من حجرة التسخين، وبقي عند المدخل يمنعهم من الوصول إليها. تلقى ضربة فتحت فخذه، ثم ردّ على بشير بمقبض السلاح وأوقعه على الدرج. كان يمكن لألوكارد أن يأخذ الأوراق ويترك الرجل الذي طارده. عاد، وحمل ريّان من كتفه، بينما أمسكت كنزة الباب حتى عبروا. في الممر قال القائد إنهم سيلحقون به وحده إذا تركوه. رد ألوكارد بأن دمه على الأرض سيقودهم إلى الجميع، وطلب منه أن يضغط الجرح ويواصل السير.

وصلوا إلى موضع آخر من غير أن يعودوا إلى المغسلة. أرسلت دانية النسخ إلى عضوين من المجلس عبر طريقين مختلفين، وأبقت الأصول تحت نظرها. في الليل جاءها قرار بتعليق حقها في الاطلاع على السجلات، واتهامها بإخفاء أوراق تخص أمن المملكتين. جلست تقرأه، ثم وضعت بطاقة عملها القديمة إلى جانبه. كانت تحملها منذ زمن، وتستعملها لفتح أبواب لم تفكر يوماً أنها قد تغلق في وجهها كلها في ليلة واحدة.

اتصل أحد عضوي المجلس بدانية قبل منتصف الليل. طلب منها الأصول، وعرض بيتاً آمناً لمن يحملها إذا قدموا أسماء جميع من اطلعوا عليها. سألته عمن سيحرس البيت، فأحالها إلى لجنة يعينها صاحب الوصاية مؤقتاً. قرأت عليه الفقرة التي تتهم صاحب الوصاية نفسه، وانتظرت. قال إنه يصدق خطورة ما في الأوراق، لكنه يخشى أن تسقط المدينة في يد بيت تازرون إذا رفع الحماية عن سادن قبل اكتمال البديل. كان رجلاً قضى عمره يراجع صحة الإجراءات، ووجد الآن أن الإجراء الذي يحمي الحقيقة يمر عبر المتهم بها.

رفضت تسليم الأصول، وقبلت معاينة النسخ أمام شهود يختارهم المجلس من غير حرس القصر. حين سألها إن كانت تتصرف باسم مدعي العرش، قالت إنها تتصرف بصفتها من أقسمت بحفظ

السجلات، وإن القسم نفسه الذي ألزمها الإبلاغ يمنعها من إعادة الدليل إلى من يستطيع إتلافه. انتهى الاتصال بلا اتفاق، لكن العضو أرسل بعده رقم قيد الطلب الجديد. احتفظت به مع قرار تعليقها. بقي باب ضيق في المؤسسة التي خرجت من حمايتها، وعرفت أنهم سيحتاجون إليه إذا أرادوا إسقاط ملك من غير أن يجعلوا القوة وحدها حكماً بعده.

أما ريّان فتلقى صورة بيته بعد أن دخل الحرس. رأى الخزانة مفتوحة، والعلبة التي حفظ فيها نتفة القماش الأزرق ملقاة على الأرض. وضع الهاتف مقلوباً. سألته أنجل، وهي تفحص الجرح، إن كان يشعر بقدمه. أجاب بنعم. طلبت منه أن يبقى ساكناً وأن يؤجل الحساب مع نفسه إلى حين تنتهي. كان أول أمر يتلقاه في ذلك اليوم لا يتعلق بولاء أو خيانة، فامتثل له بسهولة أدهشته.

عند المغسلة جلس عبد الجليل يشرح الرسم ليوسف، بينما أعدت أمينة عشاء يكفي من سيعودون. وصلت كنزة متأخرة، ووضعت أمام أبيها صورة العلامة على وصل التجديد. تعرف إليها، ثم أشار إلى جزء من المضخة في رسمه. قال إن كل دورة تزيد الضغط في الحجرة السفلى، وإن إصلاحه الأخير سيبقيها عاملة مدة قصيرة فقط ما لم يبدلوا الحجر

المتشقق. كان قد حذرهم، فأمروه بالترقيع لأن الموعد أقرب من أن يسمح بإعادة البناء.

نظر ألوكارد إلى التاريخ على الورقة. صار سقوط سادن يعني شيئاً أكثر من خلو العرش، وصارت يد أخيه التي صافحها عند الضريح تحمل في عمرها ديناً لرجل قتل أمه وأطلق الهجوم على أبيه. أخذ ورقة جديدة وبدأ يكتب إلى وارث. هذه المرة استعمل اسمه الحقيقي، وذكر أنه يعرف ما يمر في الحوضين.

الفصل الثالث والعشرون

الفرصة الأخيرة

رد وارث على الرسالة قبل الفجر. اختار بيتاً صغيراً عند حافة الوادي، كان يستعمل قديماً لاستراحة رسل القصبة. أرفق بالرد أماناً لألوكارد حتى يعود إلى الحدّ، وكتاباً آخر يوقف دوريات البيت والسهل عن ملاحقة جماعته إلى صباح اليوم التالي. قرأت دانية النص الثاني مرتين، ووضعت خطاً تحت أسماء الدوريات. قالت إن الأمر يسري على رجال وارث، وإن قوات سادن والشركات البشرية تبقى خارجه. كان التحديد واضحاً بما يكفي لأن يحفظه ألوكارد، وواضحاً بما يكفي لأن يتذكر لاحقاً اللحظة التي تجاهل فيها معناه.

كان نقل المغسلة مقرراً لذلك المساء. أنهى يوسف تجهيز عربة لأغراض أسرته، وأراد أن ينتقل حفيداه إلى بيت ابنته قبل حضور أي زائر جديد. المخزن البديل صار صالحاً للنوم، لكنه أبرد، وتحتاج طريقه إلى عبور نقطتين يراقبهما رجال السهل. اقترح ألوكارد تأخير نقل عبد الجليل ليلة واحدة، ريثما يعود بجواب يفتح الطريق. يستطيعون

إرسال الأطفال والأدوية والنسخ الآن، ثم نقل المريض في هدوء صباحاً. قال إن وقف الدوريات يمنحهم مهلة، وإن استعجال المريض عبر الطريق قد يعرضه لخطر أكبر.

أشارت أنجل إلى الجملة التي خطتها دانية: «هذه دورياته. منير لا يحتاج إلى رايته ليصل إلى الباب.» رد ألوكارد بأن أيوب سيبقى، وأن ريّان يستطيع مراقبة الجهة الأخرى بعد تحسن جرحه، وأنه سيعود قبل منتصف الليل. قالت إن اثنين من المصابين لا يصيران حراسة لأنهم يملكون قوة مختلفة. طلبت نقل عبد الجليل مع أول عربة. عندها تدخل الأب، وقال إنه يستطيع التحمل إذا كان الطريق مفتوحاً. ألوكارد، الذي كان يريد حمايته من التعب، سمع الموافقة على التحمل وركز على حاجته إلى الطريق، لا على حقه في أن يختار الآن.

قال إنه يتحمل مسؤولية التأجيل.

سألت أنجل عمن سيحمل جسد الرجل إذا أخطأ تقديره. سمع في سؤالها اتهاماً، وأجاب بحدة أنه يحاول منع الدم لا طلبه. انقطع الحديث. أخذت الطبيبة حقيبتها، وذهبت إلى عبد الجليل لتشرح له الوضع كما تعرفه هي. اختار الرجل البقاء حتى يتأكدوا من الطريق، وأصر على إرسال أمينة مع الأطفال والأغراض إلى المكان الجديد. قبلت زوجته على مضض بعدما وعدتها كنزة أن تكون معه. هكذا

صار القرار جماعياً في ظاهره، لكن المعلومات التي ربحت كفة البقاء جاءت من طمأنينة ألوكارد، ومن ثقته بوعد أخيه.

رفض اصطحاب أيوب إلى اللقاء. أراد أن يبقى المستذئب عند المغسلة، وقال إن حديث الأخوين يحتاج إلى رجلين فقط. طلبت منه دانية أن يحمل شاهدًا على ما سيعرض، أو أن يتفق على رسالة مكتوبة قبل أن يتنازل عن شيء. قال إنه سيعود بالجواب ثم يناقشونه. وضعت في حقيبته نسخة من العهد القديم التي بدأت تفك خطها، وورقة بأسئلة محددة عن تبديل صاحب الدم. أخذ الورقتين، ونسي الهاتف على الطاولة، فأوقفته كنزة عند الباب وأعطته إياه. كانت تلك آخر حركة عادية بينهما قبل أن يخرج.

في الطريق قرأ ما استخرجته دانية. النص المؤسس أقدم من أسماء الملكين، ويصف العهد بأنه أمانة تمنح لحارس الصلح مدة توليه، وتشترط أن يكون التجديد معروفاً للشهود. في النسخ اللاحقة أضيفت عبارة تحبس ما استبقي من العمر في حامل العهد، حتى يؤديه كله حين يخلع يده من الولاية. كتبت دانية في الهامش أن موضع الإضافة يمكن إثباته بمقارنة النسخ، لكن إبطال شرط مكتوب لا يمحو أثره في الجسد. يستطيعون منع وارث جديد من الوقوع فيه، أما وارث نفسه فقد حمل القرون بالفعل.

وصل إلى البيت عند الغروب. وقف وارث قرب نافذة تطل على الطريق، وفي يده نسخة الرسالة. رحب به من غير طعام هذه المرة. على الطاولة أوراق التجديد ذاتها، مرتبة كما ترتب الحسابات التي يريد صاحبها أن يمنع خصمه من تسميتها رشوة. جلس ألوكارد ووضع أمامه صورة أمر البوابة. قرأ وارث الاسم والتاريخ، ثم قال إنه كان يشك في رجوان منذ تلك الليلة. سأله أخوه لماذا أبقاه في الحكم، فأجاب بأنه احتاج إلى السهل ليمنع تمزق البيت بعد موت رافع. قال ألوكارد إن الحاجة صارت حجة يعيش القاتل في ظلها حتى يموت في فراشه.

اعترف وارث بأن رجوان مات صاحب أرض واسم، وأنه عاقب بعض رجاله وأبقى رأسه لأن عزله كان سيعيد القتال. كان الكلام يخرج من مكان متعب لا يخلو من العناد. قال إن أخاه يملك الآن ترف رؤية الملف مكتملاً، بينما كان هو يتخذ قراراته والبوابات مشتعلة. دفع ألوكارد نحوه صفحة تثبت أجور الرجال، وقال إن هذا يعفيه من علم لم يكن عنده، لكنه لا يعفيه من السكوت بعدما عرف. سكت وارث عند الفرق، ثم طلب سماع العرض الذي جاء من أجله.

كشف ألوكارد كفه، ووضعها إلى جانب ورقة التجديد. قال: «إذا كان الدم ما يبقيك مربوطاً به، نخذ دمي. الختم أجابني، وسيرين من

البيت الذي كتب أصل العهد. نطلب حضور الشهود، وننهي وصايته، وتخرج أنت من الحكم قبل أن يأخذ منا أكثر. أريدك حياً، يا وارث. هذه المرة أقولها من غير أن أطلب الرجوع إلى البيت.»

نظر الملك إلى الكف الممدودة. للحظة رأى يد أخيه يوم كان يطالبه بإعادة حزام ضاع في التدريب، ثم رأى الشق الذي فتحه عند الختم. أمسكها ووضعها على فخذ ألوكارد، بعيداً عن الورق. قال إن سادن مثبت في عهد بيعته باسمه ودمه، وإن التبديل يتطلب فك البيعة القائمة أولاً. والمجلس الذي يشهد الفك يستطيع رفع اللقب، لكنه لا يحمل عن الجسد الزمن الذي استبقاه. إذا تنازل عاد إليه عمره دفعة واحدة. وإذا بقي وسقط سادن، انتهى أثر آخر تجديد في موعده، وعادت القرون بالطريقة نفسها.

سأل ألوكارد عن التجديد بدم آخر قبل الموعد. أراه وارث موضع الاسم في النسخة، وأثر كفه المحفوظ تحت الزجاج. عقد الدم على صاحبين محددين؛ القوة التي يمنحها دم ألوكارد قد تعالج ضعفاً أو تغذي جسداً، لكنها لا تبدل الشخص الذي ثُبت في العهد. كان الحوضان يقبلان الدمين في مجريين منفصلين، ثم يربط الحجر بينهما. دخول دم مصاص إلى جرح ذئب يقتله؛ لذلك بُني الطقس كله على

فصل السائل عن الجسد، وإمرار أثره عبر العهد. قال وارث إن من يحاول اختصار الطريق بحقه في النسب قد يقتل من يريد إنقاذه.

بقي ألوكارد ينظر إلى الزجاج. كان أبوه قد وقف هنا قبله، على الأرجح، ومد كفه ليحمل زمناً لم يعرف ثمنه الابن. سأل إن كان رافع عرف كل الشروط. أجاب وارث بأنه عرف من التجديد ما يحتاج إليه في حكمه، وإنه مات قبل أن يضطر إلى سؤال التنازل بعد قرون. أما هو فقد سأل بعد عشرين عاماً، ثم بعد خمسين، ثم كف عن السؤال لأنه صار يسمع الجواب قبل أن يدخل المعالج الغرفة. قال إنه في البداية ظن أن العمر الطويل سيمنحه وقتاً لإصلاح ما قبله. «ثم صار كل إصلاح يحتاج إلى أن أبقى عاماً آخر.»

عرف ألوكارد الآن لماذا بقي أخوه شاباً حين مات كل من بايعه، ولماذا كان يسمع في كلمة التنازل حكماً بالإعدام. تضايق من الرحمة التي جاءته في اللحظة نفسها التي أراد فيها الغضب. قال إن سادن جعل عمره رهينة، وإن الدفاع عنه يطيل السجن فقط. أجاب وارث بأن السجن الذي يبقى فيه المرء حياً يختلف عن باب يفتح على موته. كانت تلك أول مرة ينطق فيها الخوف بلا وصف آخر. جلس على حافة المقعد، وفقد وجهه شيئاً من هيبة القاعة، وبدا لأخيه رجلاً يحاول ألا يتخيل جسده حين يلحق به كل ما أجّله.

أخرج ألوكارد ورقة دانية. شرح الفرق بين النص الأول والإضافة، وإمكان أن يفصلوا العهد عن الحكم قبل أن يورثوه لأحد. قرأ وارث الهامش بدقة، ثم أعاد الورقة إلى موضعها. قال إن ذلك قد ينفع الذي يأتي بعده، وسأل إن كان هذا هو العزاء الذي يحمله له أخوه. أراد ألوكارد أن يعده بثغرة يجدونها، لكنه تذكر الحجر الذي استجاب لدمه من غير أن يسأله عما يتمناه. قال إنهم سيبحثون، وإن ما يعرفونه الآن لا يكفي لوعد بالنجاة.

قال وارث إن اسمه في العهد صار أقدم من وجوه أحفاد رجاله. كلما جاء زعيم جديد، طلب ضماناً بأن الملك سيبقى حتى يكبر ابنه، ثم كبر الابن وجاء يطلب الضمان نفسه. صار بقاء الجسد جزءاً من العقود التي يعيشون بها، ووجد الملك نفسه يدافع عن سنواته كما يدافع عن مخزن قمح ينتظره الشتاء. سأله ألوكارد إن كان يخلط حاجتهم إليه بحاجته إلى أن يحتاجوه. اشتد وجهه، ثم ابتسم ابتسامة قصيرة وقال إن أخاه تعلم اختيار الموضع المؤلم جيداً.

أخرج من درج الطاولة رسماً قديماً للقصبة. عند طرفه إضافة بخط رافع، تحدد مكان مدرسة لأبناء الخدم والحرس. قال وارث إنه بناها في سنته الخامسة، ثم كبرت وصارت مدرسة المدينة الأولى، وإن ألوكارد لو دخلها الآن لرأى أطفالاً من كل القرى يجلسون تحت

سقف دفع ثمنه من مصادرة أراضي رجل من السهل. أخذ ألوكارد الرسم، واعترف بأن ذلك عمل حسن. ثم وضعه إلى جوار أمر البوابة وقال إن العمل الحسن لا يمحو ما أبقاه قائماً كي يحافظ على صاحبه. كان يريد أن يستطيع شكر أخيه ومقاومته في الوقت نفسه، من غير أن يصير أحد الفعلين حجة لإلغاء الآخر.

في الخارج مرّت سيارة بطيئة، ثم عادت من الطريق نفسه. نظر وارث إليها من النافذة، وأشار للحارس بإبعادها. التقط ألوكارد الحركة، وسأل إن كان القصر يعرف باللقاء. قال أخوه إن في المدينة من يعلم كل موعد يحتاج إلى طريق. ثم عرض اتفاقاً أخيراً: يسحب ألوكارد دعوى العرش مؤقتاً، وتسلم دانية الأصول إلى لجنة يقبلها الطرفان، ويعطيه وارث ضماناً بأمان الجماعة وإعادة من احتجز من العاملين. سيبحثان خلال ذلك عن سبيل يبقي العهد من غير سادن، أو عن صيغة تجديد تحمل اسمين جديدين.

سأله ألوكارد إن كان الضمان يشمل وقف أخذ الناس رهائن ومنع نقل الدم بالإكراه. قال وارث إنه يستطيع إلزام رجاله، أما المدينة فتحتاج إلى تفاوض. عاد الفرق نفسه بين ما يعد به وما يحتاجه الناس. رفض ألوكارد تسليم الأصول، وقبل إرسال نسخ إلى لجنة علنية إذا سُمح للشهود بالحضور. عند كلمة علنية أغلق وارث الملف.

قال إن أخاه يريد أن يبدأ الحكم بإذلال كل من سيساعده عليه. أجاب ألوكارد بأنه يريد أن يسمع الناس ما يفعله الحكام باسمهم.

وقف الاثنان. طال اللقاء أكثر مما اتفقوا، وكان ألوكارد قد تلقى رسالة من أنجل تسأل عن موعد عودته. كتب أنه ينهي الحديث، ثم أرسل رسالة ثانية إلى أيوب يسأل عن الطريق. جاءه الرد بأن الدوريات غادرت بالفعل، وأن الشارع هادئ. اتسعت طمأنينته في اللحظة التي كان ينبغي أن يبقيها ضيقة: وارث نفذ ما وعد به. أخبر أخاه بأنه سيعود إلى المدينة، وطلب تأكيد الأمان إلى الصباح. أجاب الملك: «أمرت رجالي، والأمر قائم.»

عند الباب أمسك وارث ساعده. قال إن إسقاط سادن سيجعله يحارب ليبقى حياً، وإنه يريد من ألوكارد أن يفهم ذلك قبل أن يختار. نظر إليه أخوه وقال إنه يفهم خوفه، لكنه لن يقبل أن تكون حياة كل من في المدينة وقوداً لتمديده. تركه وارث يخرج. بقيت يده مرفوعة لحظة، ثم انخفضت إلى موضع الخاتم في الإصبع.

في السيارة فتح ألوكارد الهاتف ليتصل بأنجل. ظهر اتصال فائت من كنزة، ورسالة قصيرة من يوسف: رجال عند باب السوق. قبل أن يضغط الرقم جاءت رسالة ثانية من أيوب تطلب منه الإسراع. كان الطريق إلى المغسلة أبعد الآن مما بدا حين خرج منها. طلب من السائق

أن يعود من الممر الأقصر، ووجد نفسه يفتش جيوبه عن ورقة الأمان، كأن قطعة تحمل توقيع أخيه تستطيع أن تصل إلى الباب قبله.

الفصل الرابع والعشرون

الخسارة

وصلت السيارة الأولى إلى المغسلة بلا ضوء أزرق ولا شعار. ترجل منها رجل يحمل ملفاً، وطرق الباب السفلي باسم شركة الكهرباء. كان يوسف في الأعلى يساعد عبد الجليل على ارتداء معطفه، فقد قرروا نقله فور عودة ألوكارد أو عند انقضاء المهلة التي حددتها أنجل، أيهما يأتي أولاً. سمع يوسف الطرق، ونظر إلى الساعة، ثم طلب من كنزة أن تبقى قرب أبيها. عند الشق رأى الرجل يرفع الورقة إلى مستوى عينه، ورأى خلف كتفه حذاءين يقفان أقرب مما يحتاجه فحص عداد.

أغلق المزلاج وأطفأ مصباح الممر. في الخارج ارتفعت أصوات تقول إنهم يعرقلون عملاً رسمياً. صعد يوسف الدرج بخطوات سريعة، وأخبر أيوب أن خلف السيارة رجالاً آخرين. نظر المستذئب من فتحة الستارة، فعرف واحداً من مخازن منير، وآخر ترك دوريات السهل منذ أشهر ليعمل بعقد خاص. أرسل الرسالة إلى ألوكارد، ثم إلى هشام

الذي ينتظر قرب المخزن البديل. كان أمر وارث قد سحب الحواجز من الطريق، وترك الطريق نفسه مفتوحاً لمن جاءوا من جهة أخرى.

في سيارة بعيدة جلس مراد بين رجلين. أحضروه ليشير إلى الشاب الذي وصفه في الإفادة، ثم قالوا إنه يستطيع الرجوع إلى أسرته بعد انتهاء التحقق. رأى أخا يوسف عند أول الزقاق يتجادل مع الحرس، وفهم أخيراً ما فعلته ورقته حين خرجت من يده. قال إنه أعطاهم وصف شجار، لا عنوان بيت. أجابه الرجل بأنهم وصلوا إلى العنوان من المراقبة، وأن عليه أن يبقى هادئاً. حاول فتح الباب، فقبض الآخر على ذراعه. من موضعه رأى ستارة الطابق العلوي تتحرك، ورفع صوته باسم المرمّم، كأنه يستطيع أن يرسل تحذيراً عبر الزجاج المغلق.

أول ضربة للباب جاءت قبل أن يفرغوا من نقل الأدوية إلى الحقيبة. أخذت أنجل ما يلزم للعلاج العاجل، وتركت الصندوق الكبير ليوسف. كانت كنزة تسند أباها، وهو يصر على حمل حقيبة الأدوات بنفسه. طلبت منه أن يتركها، فقال إن حزامها يساعده على توازن كتفه. دخل أيوب وأخبرهم أن الممر الخلفي مراقب أيضاً. بقيت قناة الغسل القديمة التي وصفها يوسف، وتمتد إلى باحة مشتركة خلف ثلاثة بيوت. كان قد جرب فتح شبكتها في الصباح، وتأكد أنها تتحرك.

لكن الماء ارتفع عند مدخلها.

ركع يوسف وأدخل يده بين القضبان، ثم شتم. أغلق الرجال الصرف من الجهة الخارجية، أو تراكمت عوائق عند المخرج حين مرّت العربات فوقه؛ النتيجة أمامه واحدة. إذا دخلوا الآن بلغ الماء صدر عبد الجليل قبل أول منعطف. أشار الأب إلى ذراع حديدية قرب السقف، وقال إن هناك مفيضاً احتياطياً، وإن فتحه يرد الماء إلى حوض قديم تحت الباحة. أجابه يوسف بأن الذراع عالقة منذ سنوات، وأنه يستعمل ممراً آخر للتنظيف. طلب الحرفي أن يرى موضعها قبل أن يختاروا البقاء خلف باب يتكسر.

في الأعلى كسر أحدهم الزجاج وألقى جسماً يصدر دخاناً خانقاً. فتحت أنجل نافذة الجهة الأخرى لحظات، ثم أغلقتها حين رأت رجلاً فوق السطح المقابل. أصيب أيوب في كتفه وهو يحاول دفع خزانة إلى الباب، وبقيت ذراعه تتحرك بصعوبة. تحول نصف تحوله، بما يكفي ليمسك الخشب تحت الضربات، وصرخ في يوسف أن يأخذ الباقين إلى الأسفل. كان في صوته ألم جعل عبد الجليل يسارع رغم احتجاج ابنته. أشار لها إلى كرسي ثابت، وطلب أن ترفعه قرب الذراع الحديدية.

قالت أنجل إن عليه أن يبقى جالساً. أجابها بأنهم يستطيعون إدارته من الكرسي إذا وصلت كنزة إلى الصمولة العليا، وإنه وحده يعرف مقدار ما يسمح به الحجر المتآكل. أعطته الطبيبة دقيقة يفعل فيها ما يصف، ثم طلبت من يوسف أن يحمل ثقله إذا عجز عن الوقوف. لم تمنحه براءة من الخطر؛ اختارت بين ممر يغرق وباب ينهار، وبقيت تراقب وجهه وهي تجهز القماش الذي ستلف به يد كنزة المجروحة.

ارتفعت الابنة على الدرجة، وأدخلت الأداة في الموضع الذي حدده أبوها. تحرك الحديد جزءاً صغيراً ثم توقف. قال لها أن ترخي قبل أن تشد ثانية، لأن الضغط يحبس الحلقة داخل الحجر. فعلت، وشعرت بتغير المقاومة في يدها. سمع الجميع الماء يندفع إلى الجهة الأخرى، وانخفض مستواه عند الشبكة. أخرج يوسف الصندوق الأول، ثم عاد ليساعد عبد الجليل على العبور. من فوق الدرج جاء صوت أيوب يطلب منهم الإسراع؛ الخزانة بدأت تنكسر.

في تلك اللحظة انغلق المفيض من جديد. انكسرت قطعة من مثبت الذراع، واندفع الماء إلى المدخل دفعة واحدة. كان هشام قد وصل من الجهة الخلفية، وظهر ضوء مصباحه وراء الشبكة. أمسك القضبان وسحبها، لكن ضغط الماء ثبتها في مكانها. صعد عبد الجليل عن الكرسي، ووضع كتفه تحت الذراع ليبقيها مرفوعة. صاحت كنزة بأنها

تستطيع حملها، فأجاب أنها يجب أن تمر أولاً لتستقبل الصناديق وتساعد في سحب المصابين. لم يطعها هذه المرة، وكان يعرف أنها ستغضب.

نجحت أنجل في تمرير الحقيبة، ثم زحفت إلى الجانب الآخر لتستقبل رجلاً مسناً من البيت المجاور أدخله يوسف حين بدأ الاقتحام. كان الرجل يحمل جهاز تنفس صغيراً ويكاد يختنق بالدخان. أعطت كنزة يدها ليسحباه معاً. بقي الأب في الداخل، ويوسف يثبت لوحاً تحت الذراع ليحرره. كاد اللوح يستقر حين انكسر الباب العلوي، وانطلق صوت رصاصة في المساحة الحجرية. ارتجف جسد عبد الجليل، وبقي كتفه تحت الحديد لحظة أخرى.

سمعت كنزة سقوط الأداة قبل أن تراه يسقط.

وصل ألوكارد إلى أول الزقاق بينما كان الرجال يقتحمون الطابق العلوي. أراه أحدهم ورقة بحث باسمه، فدفعه عن الطريق ورأى النار تبدأ عند الستارة التي علقت فوق المصباح المكسور. سمع الماء وصوت كنزة من تحت الأرض، واتجه إلى المدخل الذي عرفه حين حمل الصناديق أول مرة. في الداخل وجد أيوب بين حارسين، يغطي وجهه بذراعه المصابة. ضرب الأول ودفع الثاني إلى الحائط، ثم أمسك أيوب من ثوبه وأبعده عن باب القناة.

رأى الدم على الدرج. تبع أثره إلى يوسف الذي يحاول حمل عبد الجليل، وإلى الذراع التي هبطت فوق اللوح فانشطر نصفه. رفع الحديد بقوته، وطلب من يوسف أن يمر بالجسد إلى أنجل. كان يستطيع إبقاء المفيض مفتوحاً الآن؛ هذه القوة التي حسبها غير ضرورية قبل ساعات صارت كل ما يحتاجه الممر. مرّ أيوب زاحفاً، ثم يوسف وهشام، وبقي ألوكارد حتى خرج آخرهم. حين ترك الذراع انهار الماء وراءه وأغلق الطريق على الحرس.

على الجانب الآخر كانت أنجل راكعة عند عبد الجليل. نزعت المعطف من موضع الإصابة، وضغطت على الجرح، وطلبت النقل فوراً. جاء صوتها حاداً، محدداً، خالياً من الكلمات التي يقال بها للناس إن عليهم الاستعداد للأسوأ. حملوه إلى سيارة هشام في الباحة الخلفية. كنزة جلست قرب رأسه، تثبت وجهه بين كفيها وتناديه. فتح عينيه مرة، وطلب منها أن تنزل رأسها بعيداً عن النافذة. أطاعته، كما أطاعت عدّه عند المضخة، وبقيت تنتظر الجملة التالية.

اعترضت سيارة بلا لوحة الطريق عند المخرج. نزل منها رجل منير، ثم تراجع حين رأى ريّان يقف خلفه بسلاحه وجرحه الملفوف. كان القائد قد وصل من الموضع الذي عالجوه فيه، بعد أن بلغه نداء هشام. أجبر الرجل على إبعاد السيارة، وأخذ مفاتيحها ورماها إلى سطح قريب.

رأى ألوكارد وجه مراد في المقعد الخلفي، شاحباً، يفتح فمه باسم ابنه. توقف جزءاً من ثانية، ثم عاد إلى السيارة التي فيها عبد الجليل. كان الفهم الذي يحتاج إليه مراد مؤجلاً إلى ما بعد هذه الدقائق.

فتح الطبيب الذي استدعته أنجل باب عيادته الليلية قبل وصولهم. نقلوا المصاب إلى الداخل، وأُجريت الاتصالات اللازمة لنقله إلى مكان يستطيع معالجة النزف. كان الدم الذي فقده أسرع من الطريق الذي يحاولون فتحه. بقي ألوكارد عند الباب حتى طلبت منه أنجل أن يحمل جهازاً، فحمله، ثم وقف منتظراً أمراً آخر. سمع النبض يضعف، وشعر بجوع ينهض في جسده في اللحظة التي كره فيها جسده أكثر ما كرهه. ابتعد إلى الحائط، وأمسك كفه المجروحة بالقماش كي لا تتحرك نحو ما لا يستطيع استعماله لإنقاذ الرجل.

توقفت الساعة في ذهن كنزة عند الوقت الذي قاله الطبيب. أما ساعة الحائط فواصلت النقر.

كانت يد أبيها ما تزال دافئة في يدها. سألت أنجل إن كان عليها أن تبقي رأسه مائلاً، ثم رأت وجهها وفهمت أن السؤال صار من زمن آخر. جلست على الكرسي، وحاولت أن تسحب غطاء الفراش إلى كتفه. علق القماش تحت ذراعه، فطلبت المساعدة بصوت عادي.

تقدمت أنجل وأخرجته برفق. عندها فقط قالت كنزة: «اتصلنا بأمي وقلنا إنه عاد.»

خرج ألوكارد إلى الممر واتصل بأمينة. حاول أن يبدأ باسمها، ثم أخبرها أن عبد الجليل أصيب وأنهم حاولوا إنقاذه. طلبت كنزة الهاتف قبل أن يكمل. أخذته ووقفت قرب الباب، وقالت لأمها أن تجلس وأن تدع المرأة التي معها تبقى في الغرفة. خرج منها الخبر بجمل متقطعة، غاضبة، ثم طال الصمت بينهما حتى صار ألوكارد يسمع تنفس الأم من بعيد. أعادت الهاتف إلى الطاولة، ولم تنظر إليه.

عندما اقترب منها بعد ذلك، قالت إن عليه أن يبتعد عن أبيها. توقف. كانت تعرف أنه رفع المفيض وحمله إلى السيارة، وتعرف أيضاً أنه طلب التأجيل وغادر. اجتمعت المعرفتان فيها، ولم تجد سبباً لتمنحه إحداهما وتخفي الأخرى. قالت: «قلت إنك تتحمل المسؤولية. أين تحملها الآن؟ هنا؟» أشارت إلى صدرها، ثم إلى الغرفة. بقي واقفاً، عاجزاً عن إعطاء العبارة التي قالها في الصباح جسداً يمكن نقله إليه بدلاً من جسد أبيها.

عاد يوسف من المغسلة عند الفجر. احترق القسم العلوي، وتشققت غرفتان من الأسفل بعد اندفاع الماء. أسرته بخير لأنها خرجت قبل المداهمة، لكن البيت الذي أصلحه طوال عمره صار محاطاً برجال

يسجلون حريقاً ناتجاً عن تماس كهربائي. وضع مفتاحه على الطاولة أمام ألوكارد، وقال إنه وعده بثلاثة ضيوف ومدة قصيرة. أشار إلى يديه السوداوين من الرماد: «أستطيع أن أغضب من الذين كسروا الباب. أما أنت، فقد صدقتك.» ثم أخذ المفتاح ثانية، لأنه ما زال مفتاح بيته، وخرج ليجلس إلى ابنته في السيارة.

جاء مراد مع ريّان بعد ذلك بساعات. أصر على أن يحمل نسخة الإفادة بنفسه، وشرح كيف هددوه بالمحل والسكن، وكيف تبعوا أخا يوسف بعد زيارته. قال إن الورقة التي وقعها أضيف إليها وصف يتهم ألوكارد باحتجاز العاملين وإخفاء مواد خطرة؛ هذا ما استعملوه لإقناع بعض الرجال بأنهم يدخلون بيت خاطفين. أراد أن يرى كنزة، فمنعته أنجل. سيقول ما يعرفه لدانية الآن، ويمكن لكنزة أن تختار سماعه لاحقاً. جلس إلى الطاولة، ووقّع إفادة ثانية تصف كيف أخذوا الأولى، وترك عنوانه الحقيقي تحتها رغم ارتجاف يده.

حفظت دانية النسختين. سألت عن الكاميرات والسيارات ومن أصدر الأوامر، وبدأت تجمع الشهادات بينما كانت الجثّة في الغرفة المجاورة. احتاجت إلى أنجل لتشهد على سبب الموت كما وثقه الطبيب، وإلى يوسف ليصف طريق الاقتحام، وإلى أيوب ليتعرف إلى من جاء من رجال السهل بعقد شركة. كانت تعلم أن الأختام وحدها لن

تروي ما حدث لعبد الجليل؛ ينبغي أن يبقى اسمه بين الوقائع، وأن تستطيع كنزة المطالبة بحقه من غير أن تضطر إلى إثبات وجوده من جديد.

بعد الظهر ذهبت كنزة إلى المخزن البديل. وجدت أمها جالسة عند علبة الطعام، والورقة التي وعد الأب برسم ترتيب الورشة عليها تحتها كما تركتها. جلست إلى جانبها. قالت أمينة إن عليها أن تأكل، فأجابتها بأنها ستفعل، ثم بقيتا تنظران إلى الورقة البيضاء. أخذت كنزة قلماً ورسمت الطاولة الطويلة قرب النافذة. ارتجف الخط، فأعادت رسمه من غير مسح الأول. كانت تلك أول مرة تعمل فيها منذ مات، ولم تشعر بأن العمل يخفف شيئاً.

دخل يوسف عند أمينة قبل أن يذهب إلى بيته المحترق. جلس على الكرسي الذي أصلحه عبد الجليل، ثم انتبه إلى ما يجلس عليه ووقف. قالت له المرأة أن يبقى؛ الكرسي صُلح ليجلس عليه الناس. جلس ثانية، وحكى لها كيف حمل زوجها الذراع الحديدية، وكيف ظل يأمره أن يخرج الرجل المسن أولاً. طلبت أمينة أن يتوقف عند ذلك. كانت تريد معرفة ما حدث، لكنها تكتشف في كل تفصيل طريقة جديدة كان يمكن أن يعود بها، ثم ترى الطريق يغلق.

سألت كنزة عن حقيبة الأدوات. قال يوسف إنه حفظها في السيارة، وإنه سيعيدها بعد تنظيف ما أصابها من ماء. طلبت أن يترك الأشياء في مواضعها. يعرف أبوها ترتيبها، وهذه العبارة خرجت منها بصيغة الحاضر. انتبهت إلى نفسها، وأطبقت فمها. أما أمينة فواصلت الكلام كما لو أنها سمعت الصيغة نفسها، وقالت إن عليه أن يترك النظارة في الجيب الجانبي لأنه يبحث عنها دائماً حين توضع في العلبة. بقي يوسف ساكناً حتى أكملتا ترتيب غائب يعرفانه أكثر مما يعرفه.

في الخارج وقف ألوكارد عند باب الغرفة ولم يدخل. جاء أيوب يحمل من المستشفى خبراً عن أبيه، ثم رأى وجهه فأعاد الهاتف إلى جيبه. جلسا قرب الحائط. قال المستذئب إنه سمع الأمر بوقف الدوريات واطمأن كما اطمأن ألوكارد، لكنه كان يعرف الرجل الذي ظهر مع شركة الكهرباء وكان ينبغي أن يحذرهم منه منذ اللقاء الأول. بدأ كل منهما يجد في ذاكرته اللحظة التي يستطيع أن يحملها وحده، حتى قطعتهما دانية بطلب توقيت الوصول كما حدث. احتاجت إلى الوقائع متجاورة، لا إلى رجلين يتنازعان الذنب بحيث يغيب صاحب الأمر عن الصفحة.

في المساء جاءت أنجل لتغير ضماد يدها. قالت كنزة إنها تعرف موضع منير، وإن هشام يستطيع أن يقودها إليه. بقيت الطبيبة تفك

الشاش، وسألتها عما ستفعله حين تصل. قالت إنها تريد أن يسمعها، ثم صرخت بأن السؤال غبي وإنه يعرف ما فعل. تركت أنجل الصراخ يخرج. حين هدأت قليلاً، وضعت أمامها نسخة إفادة مراد، وقالت إن هذا طريق يستطيع أن يحمل اسم أبيها إلى الناس، وإن الذهاب وحدها قد ينهي الطريق عند غرفة أخرى. أخذت كنزة الورقة، وطلبت أن تبقى معها دقائق من غير كلام.

انتظر ألوكارد في الغرفة الخلفية. قرأ أمر وارث مرة أخرى، ثم وضعه إلى جوار تقرير الطبيب. الأسماء المحددة للدوريات ما تزال في مكانها، ما فعله هو أنه مدّ معناها حتى غطت رجالاً لم يلتزم أحد بإيقافهم. جاءته رسالة من أخيه تقول إن قواته أطاعت الأمر وإنه يحقق في هوية من استعملوا اسم السهل. كتب ألوكارد جواباً طويلاً ثم محاه، وأرسل اسم عبد الجليل وصورة الأمرين جنباً إلى جنب. لم يطلب مواساة.

حين دخلت أنجل، قال إنه يريد إسقاط الحكمين. سألته إن كان يريد ذلك منذ قرأ الملفات أم منذ مات الرجل. أجاب بأنه أراده قبل الموت، لكنه ظن أنه يستطيع إنقاذ أخيه من الطريق الذي يعرف أنه ينبغي قطعه. قالت إنهم سيحتاجون إلى خطة يعيش بعدها الناس الذين يزعمون حمايتهم. سيتعين تأمين طرق الدواء، وحماية من يعتمد

على الدم المتبرع به، وإخراج الأسر من المواضع التي قد تصير ساحات قتال. غضبه لا ينجز واحداً من هذه الأعمال.

أخرج دفتره ووضعه بينهما. كتب قراره بتأجيل النقل، والضمان الذي فهمه أوسع مما ورد، والاعتراض الذي سمعه ثم تجاوزه. حين جاءت كنزة بعد قليل، دفع إليها الصفحة قبل أن يسألها عن الرسوم. قرأتها، ثم قالت إن تسجيل الخطأ لا يعيد أباها. أقر بذلك. أخذت القلم وشطبت عبارة كتبها عن حماية الجماعة، وكتبت مكانها أسماء من يقررون النقل وتوقيته. سألته إن كان سيقبل أن توقفه إذا رأت أن خطته تقتلهم. قال نعم، فتركت الصفحة عنده، وفتحت خريطة القنوات.

في الخارج كان يوسف يعلّم حفيده كيف يحمل علبة أدوات عبد الجليل من قاعها كي لا ينفتح الغطاء. حملها الطفل بيدين، ووضعها عند كنزة. فتحتها فوجدت الأداة التي سقطت ليلة المداهمة، وقد غسل يوسف الدم عنها وجفف الحديد. بقي عند المقبض خط من جير قديم. أغلقت كفها عليه، ثم وضعت الأداة فوق الخريطة، عند الموضع الذي خرج منه الآخرون أحياء.

الجزء الرابع والأخير

ما يبقى من الليل

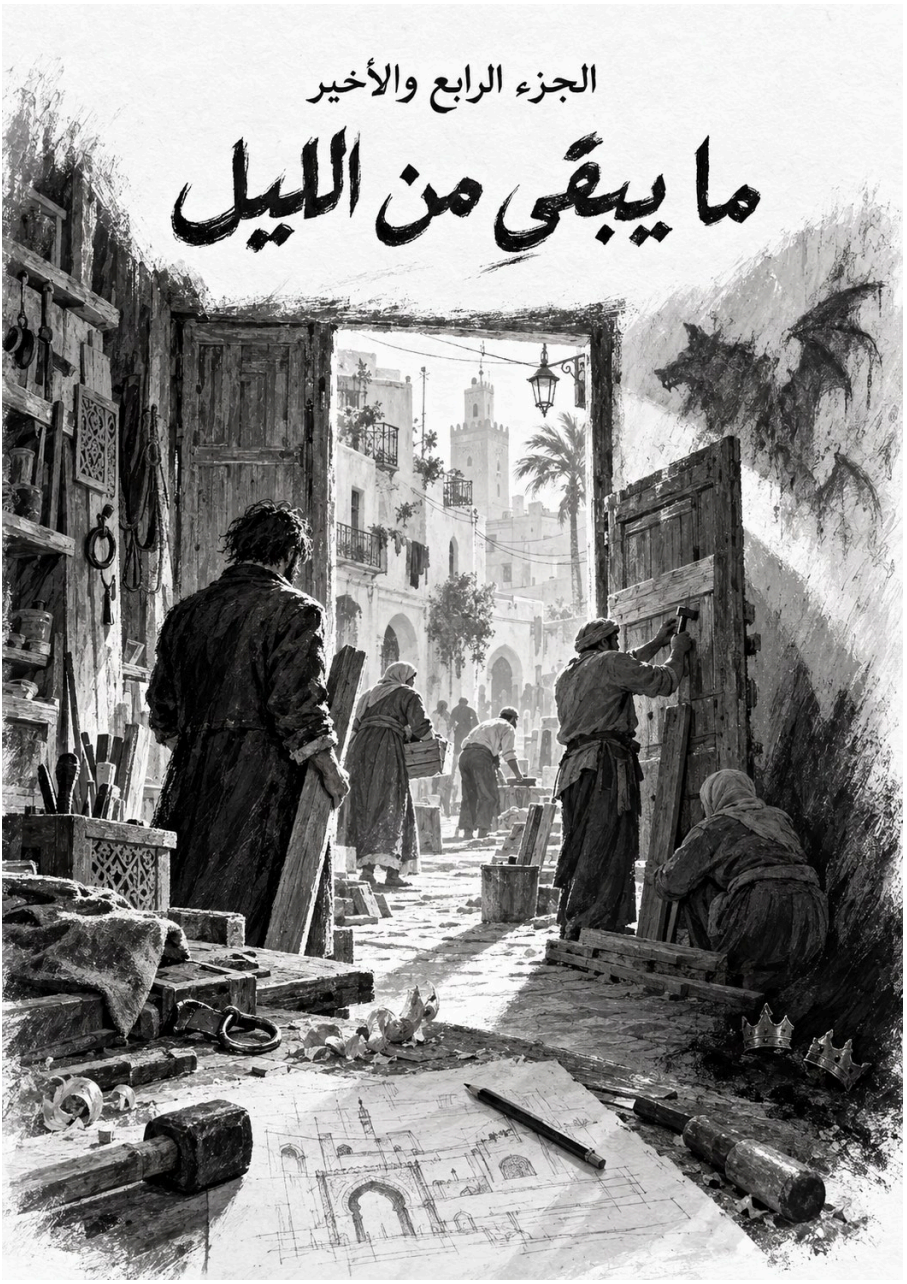

الفصل الخامس والعشرون

أسماء تحت الركام

في ثالث صباح بعد موت عبد الجليل، اكتشفت أمينة أن المفتاح الذي تبحث عنه في حقيبتها معلّق في باب بيتها. وقفت أمامه قليلاً قبل أن تفتحه. كانت قد تركته هناك حين خرجت إلى المستشفى، ثم جاءت أختها في غيابها، فسقت الحبق وأعادت المفتاح إلى الموضع الذي وجدته فيه. في الداخل بقي كل شيء صالحاً لاستقبال رجل يعود من عمله: منشفة فوق الكرسي، وحذاء عند العتبة، وإبريق فيه ماء يكفي شخصين. أخذت كنزة الإبريق لتغسله. طلبت أمها أن تتركه، ثم رجعت عن طلبها وفتحت النافذة.

جاء ألوكارد بعد الظهر يحمل كيس دقيق. اشترى الكيس لأن يوسف قال إن البيت يحتاج إلى خبز، ثم تذكر، وهو على الدرج، أن الخبز يباع جاهزاً وأن أحداً هنا قد لا يريد أن يعجن. وضعت أمينة الكيس في المطبخ وأخرجت له كرسياً. جلس قرب الباب، حيث يصل إليه هواء الزقاق ويبقى وجهه في الظل. سمع امرأة في الطابق

الأعلى تنفض زربية، وضحكة طفل قطعها زجر سريع. اعتاد هذه الأصوات في بيوت كثيرة، وبدت له اليوم كأنها تحدث داخل بيت لا يحق له الجلوس فيه.

خرجت كنزة من غرفة أبيها تحمل صندوقاً من الورق المقوى. كانت ترتدي قميص عمله؛ عند الرسغ طوت الكم مرتين وبقي واسعاً. وضعت الصندوق بينهما ورفعت الغطاء. على أعلاه دفتر بقيت فيه بصمة زيت، وتحته أوراق قياس وحسابات تسعير وأسماء زبائن يدينون له. مد ألوكارد يده إلى الدفتر، فأغلقت كفها عليه. قالت: «هذه أوراق أبي كلها. ما يخص الغرفة آخذه أنا. والباقي يبقى هنا. عندنا ناس سيقولون إنهم دفعوا له نقداً، وعندنا طلبات أخذ عربونها. أريد أن أعرف ماذا علينا قبل أن أوزع حياته عليكم.»

سحب يده، ثم سأل عن اسم الزبون الأول. أعطته قائمة ألواح تحتاج إلى تسليم. كان الخشب مخزناً في حانوت قريب، وصاحبه يطلب إخلاء المكان. وافق على نقله في المساء. في الأسبوع الماضي كان ينتظر من كنزة رسماً يقوده إلى قصر، وصار يستطيع الآن أن يحمل ألواحاً من أجل رجل عجز عن حمله حياً إلى طبيب. عرف ضآلة العمل، وكتب العنوان على ورقة بدلاً من الاتكال على ذاكرته.

من المطبخ سألت أمينة عن الرجل الذي فتح بيته لهم. قالت كنزة إن يوسف يبحث عن سكن. خرجت أمها وفي يدها منشفة جافة كانت تمسح بها كوباً جافاً، واقترحت أن تأتي زوجته وحفيداه إلى الغرفة الصغيرة حتى يجدوا مكاناً. اعترضت كنزة لأن البيت مراقب، ولأنها تخاف على أمها. تركت أمينة الكوب على الطاولة. «قولي لهم هذا كله. وهم يختارون. كل مرة يقرر أحد عن أحد، يصلنا الخبر مع كيس أسود.» ثم عادت إلى المطبخ، وبقيت المنشفة في يدها.

في المخزن البديل كان يوسف يحسب كلفة إصلاح المغسلة على ظهر إعلان عن شقة للكراء. وصل إلى آخر السطر، فقلب الورقة ووجد صورة غرفة واسعة لا تشبه ما رآه في الصباح. صاحبها طلب منه ضمان ستة أشهر بعدما عرف أن بيته احترق. قال يوسف إن الرجل كاد يقدم التعزية قبل أن يزيد الثمن. سمع عرض أمينة ووافق على ليلتين فقط، واشترط أن يسألها بنفسه. جمع أقلامه ووضعها في جيبه، ثم أعاد واحداً إلى ألوكارد: «هذا لك. أخذته من فوق كيس الشاي. إن كنت ستوقع مصيرنا، احتفظ بأداة التوقيع على الأقل.»

ضحك ألوكارد ضحكة قصيرة خرجت في غير موضعها، ثم نجل منها. يوسف رفع عينيه إليه وقال إن الناس يستطيعون أن يغضبوا ويضحكوا في اليوم نفسه. أغلق الحساب ووقف، لكنه ترك على الطاولة فاتورة

المغسلة المحترقة. فهم ألوكارد أنها ستبقى بينهما، حتى إن عادا إلى الكلام بسهولة.

كانت دانية تنتظر عند نافذة المخزن، تحاول الاتصال بعضو في مجلس الأقدمين سبق أن وعدها بسماع الشهادة. انقطع الاتصال للمرة الثالثة، فوصلت رسالة من مكتبه تقول إن السفر شاق عليه. وضعت الهاتف إلى جانب نسخة أمر نقل يحمل توقيعه قبل يومين. قرأ هشام الرسالة وسأل إن كانت ستطبع كذبته أيضاً. قالت إنهم سيحتاجون إلى توقيعه على استلام الملف، سواء قرأه أم تركه مغلقاً. أرادت أن تمنع الرجل، حين تتغير الحال، من القول إن أحداً لم يخبره.

على الطاولة رتب هشام أول حزمة للنشر: ثلاثة أسماء، وثلاثة تواريخ، وصورتان من سجل الأجور. اقترح ألوكارد نشر شهادة سيرين كاملة، ومعها أمر الهجوم على تازرون. كانت الجمل تتزاحم في رأسه منذ عاد من بيت أمينة؛ رأى الوقت الذي منحوه لسادن يتحول إلى رجال على أبواب أخرى. قال إن الناس يجب أن يعرفوا ما فعله الآن، قبل أن يقدر على دفن بقية الأدلة.

رفعت دانية ورقة تخص عاملاً مفقوداً. كان اسم أخته وعنوانها ظاهرين في الهامش، لأنها وقعت على تسلم أجره بعد اختفائه. سألت ألوكارد أين ستنام المرأة الليلة إذا نشروا الورقة. أجاب بأنه يستطيع

إخراجها. قالت كنزة، من عند الباب: «إلى أين؟ المخزن الذي نقف فيه فيه مصابان، وبيت أمي ليس ممراً سرياً.» كانت تحمل دفتر أبيها وقد لفّته بقطعة قماش نظيفة. وضعته أمامه، ثم أخرجت الصفحة التي كتبوا فيها أسماء أصحاب القرار. فوق اسمها بقعة من الحبر، تركها إصبعها حين وقعته بعد ليلة المداهمة.

أراد أن يقول إن الفرصة تضيق. رأى أنجل ترفع رأسها عن ضماد أيوب، وأن يدها بقيت ثابتة حتى وهو يتحرك ليستمع. قال بدلاً من ذلك إن عليهما إحضار الأخت أولاً. هزت كنزة رأسها: «نسألها أولاً. ربما تعرف طريقاً أفضل من طرقنا.»

استغرق الأمر بقية اليوم. ذهبت دانية إلى المرأة مع إحدى العاملات في الحي، وعادت بموافقة مكتوبة على نشر اسم أخيها وحده. اختارت أن تبقى عند خالتها خارج الحجر، وطلبت ألا يرافقها ألوكارد؛ وجهه صار معروفاً في الأوراق التي توزعها الدوريات. نقلها يوسف في سيارة استعارها من قريبه. تأخر نشر الحزمة إلى الليل. في ذلك التأخير اضطر ألوكارد إلى الجلوس، وكان الجلوس أشق عليه من اقتحام باب يعرف من يقف وراءه.

عند منتصف الليل أرسل هشام النسخ إلى مطابع صغيرة خارج المدينة. استعمل خطاً كبيراً وأرقام صفحات واضحة، ووضع تحت كل

اتهام صورة المستند الذي يسنده. حذفت دانية عبارة كتبها عن المجرمين الذين يشربون أعمار الناس. غضب، ثم نظر إلى السجل الذي حمل اسم أخيه. أخذ قلماً، ووضع دائرة حول فرق بين تاريخ دخوله وتاريخ الوفاة المثبت. سبعة عشر يوماً استمر خلالها توقيع رجل مات. قال: «هذه أبشع من عبارتي.» وأبقى الدائرة في النسخة.

في الصباح وصلت أول مكالمة من امرأة تريد أن تعرف إن كان الرجل الثالث في القائمة هو زوجها. أعادت تاريخ ميلاده ثلاث مرات، وأخذت تصف سنّاً مكسورة في فكه، مع أن دانية طلبت رقماً من بطاقة قديمة. جلست أنجل إلى جانب الهاتف ودوّنت الوصف كله. بعد المكالمة قالت إن عليهم تخصيص شخص لاستقبال الأسئلة؛ نشر أسماء الغائبين يجعل الناس يأتون بغيابهم كله. أعطتها دانية دفترها الاحتياطي، وبدأتا كتابة ما يمكن قوله وما يحتاج إلى تحقق، كي لا يصير الرجاء خبراً كاذباً آخر.

جاء خبر ثان من مخزن في الطرف الشرقي: كاتب امتنع عن تأريخ أمر نقل بتاريخ سابق. أوقفوا راتبه وأخرجوه من المكتب، لكنه احتفظ بصورة الأمر على هاتفه. طلب مكاناً ينام فيه، ولم يطلب الانضمام إلى أحد. أرسل إليه هشام عنواناً خارج الحي، ثم شطب من

الميزانية ثمن حبر جديد. صاروا يدفعون ثمن كل ورقة مرتين، مرة للطباعة ومرة لمن ستخرجه من بيته.

أما الشاهد الثالث، وهو سائق حمل عمالاً إلى القصر، فقد تراجع. جاءهم تسجيل بصوته ينفي معرفتهم ويسمي الأوراق تزويراً. عرف أيوب من السعال في الخلفية أن التسجيل أُخذ في مخزن السهل، حيث تسوء التهوية حين يشغلون المولد. أراد الذهاب إليه. أخرجت أنجل مقياس الحرارة من فمه وطلبت منه أن ينظر إلى كتفه قبل أن يرسم طريقاً. ارتفع صوته، وقال إن الناس لا تنتظر حتى يشفى جرحه. ردت بأن الجرح الذي ينفتح في السيارة سيجعل اثنين ينقذانه بدلاً من إنقاذ السائق. رمى المقياس على الطاولة ثم اعتذر عن رميه، وبقي غاضباً.

سمع ألوكارد نفسه يقول إنهم سيبحثون عن طريق آخر. كان يعرف كم يبدو القول سهلاً لمن يملك جسداً يلتئم. جلس إلى أيوب، وسأله عن اسم عامل الصيانة الذي يدخل المخزن كل صباح. أعطاه الرجل وصفاً وموعداً، ثم عاد يضيف تفاصيل نسيها وهو يريد الذهاب وحده. بعد ساعة صار لديهم شخص يستطيع إيصال سؤال إلى السائق، من غير أن يعده بإنقاذ لم يجهزوه.

بعد يومين جاءت زوجة العامل الثالث بنفسها. كان يوسف قد أوصل رسالتها إلى دانية، فحضرت تحمل عقد زواج ودفتر علاج وورقة عليها رقم هاتف انقطع منذ سنوات. جلست على طرف الكرسي، وقالت إنها تعرف أن زوجها ربما مات، لكنها تريد أن تعرف اليوم الذي حدث فيه ذلك. أخرجت دانية صورة السجل الذي وصلهم. التاريخ فيه تاريخ إغلاق حساب العامل، وقد يختلف عن تاريخ موته. شرحت الفرق، فاستعادت المرأة الورقة التي كتبت فيها رقم الهاتف وأخذت تطويها حتى صارت أصغر من ظفرها.

سألها ألوكارد عمّا كان يعمل فيه قبل القصر. وصفت رجلاً يصلح مضخات الآبار، ويعود بثيابه مبللة حتى في أشهر الجفاف. تعلمت من كثرة ما غسلته أن تفرّق بين زيت المحرك وزيت الطعام، وصارت تغضب حين يضع الحزام في ماء الصابون لأن جلده يتشقق. ضحكت قليلاً وهي تتذكر، ثم قالت إنها باعت حقيبته بعد عام من اختفائه لتدفع أجرة البيت. كانت تقول ذلك كأنه اعتراف يحتاج إلى حكم. أجاب يوسف، من عند الباب، بأنه باع أدوات تخصه وهو حي، وإن الحديد يستطيع أن يخدم رجلاً آخر ولا يغير اسم صاحبه الأول.

طلبت المرأة أن تسمع ما كتبه ريّان عن نقل العمال. قرأت دانية فقرة قصيرة، وشرحت أن القائد لم يشهد موته. سألت المرأة إن كان

موجوداً هنا. تردد ألوكارد، ثم قال إنه في الغرفة المجاورة وسيأتي إن أرادت. هزت رأسها، وبقيت تحدق في فتحة الباب حتى ظهر. كان ريّان أطول مما توقعت؛ رفعت وجهها إليه وقالت اسم زوجها مرة واحدة. بحث في ذاكرته، واعترف بأنه لا يستطيع تمييزه من الاسم وحده. أخرجت صورة قديمة ودفعتها إليه. نظر طويلاً، ثم قال إنه يتذكر سيارة النقل، وإنه يستطيع البحث عن اسم من تسلمها. طلبت منه أن يكتب ذلك، فأطاع.

بعد خروجها بقيت الصورة على الطاولة. لحقت بها دانية إلى الدرج لتعيدها، فقالت المرأة إن لديها نسخة وإنهم سيحتاجون إلى وجهه حين يسألون عنه. عادت دانية ووضعت الصورة في غلاف شفاف إلى جانب الاسم. أخذ هشام يقص أغلفة لصور أخرى، بعدما كان يطبع الأسماء وحدها. سأل ألوكارد يوسف إن كانت مقابلتها بريّان خطأ. أجاب بأن المرأة طلبت ذلك، وإن ما ينبغي سؤاله الآن هو هل سيفعل الرجل ما كتبه. وضعا موعداً للجواب، وصار لريّان عمل يبدأ باسم واحد وينتهي بمعلومة يجب أن تعود إلى بيت يعرف صاحبه.

في الليل رجع ألوكارد إلى قائمة من حُذروا قبل المداهمة. وجد تحت اسم يوسف رقماً شطبه ثم كتبه في موضع آخر، وتذكر أنه كان رقم قريب يملك سيارة. احتاجوا إليه ليلة الماء، وكان الهاتف عنده

والورقة عند كنزة. مزق الصفحة وبدأ قائمة جديدة فيها نسختان متطابقتان، ثم توقف قبل أن يعيد أسماء الناس كلها. سأل أنجل عن المكان الذي تحفظ فيه العيادة أرقام الطوارئ، فشرحته له، وأحضرت لوحة صغيرة يعلقون عليها الأرقام التي تتغير. ثبّتها قرب الباب، ثم كتب في أعلاها تاريخ التحديث. حين أخطأ في اليوم صححته كنزة من غير أن ترفع رأسها عن الدفتر.

في المساء جاء جواب العضو الأكبر في المجلس. كان قد قرأ الملف، أو قرأ من يكفي لإقناعه بأن تجاهله سيصير خطراً عليه. اشترط حضور أصل الشهادة، وإثبات نسب مقدم الطعن، وسماع القائد الذي وقّع تقرير موت ألوكارد. وافق على جلسة تحقق في دار الحساب القديمة، خارج القصر، إن انضم إليه ثلاثة أعضاء آخرين. في أسفل الرسالة أضاف بخط أصغر أن الحضور لا يعني تأييداً لأي مطالب بالعرش.

قرأ ريّان الشرط الأخير من مقعده، وقال إن الرجل يحاول إبقاء باب يعود منه إلى سادن. أجابت دانية بأنها تريد منه أن يدخل باباً واحداً الآن، وتستطيع مناقشة مخارجه لاحقاً. ثم وضعت أمام ريّان ورقة شهادته وطلبت توقيعها باسمه ورتبته يوم الحريق. أمسك القلم، وبدا لحظة كأنه سيضيف عبارة عن الإكراه. ترك الفراغ كما هو ووقّع.

قال ألوكارد: «حين تسألك العائلات عمن خرج في دورياتك، سأعطيهم هذه الورقة.» رفع ريّان عينيه. كان قد توقع الطلب منذ اختار التسريب، لكن سماعه بصوت الرجل الذي أنقذه جعل وجهه يضيق. أجاب بأن دفتر الدوريات موجود في خزانة بيته، وأن مفتاحها مع خادم غادر قبل أيام. سمّى موضع النسخة الثانية في القصر. كتب هشام العنوان من غير أن ينظر إليه.

بقيت كنزة بعد خروج الآخرين تقرأ دفتر أبيها. على هامش رسم الحوض رسم عبد الجليل علامة تشبه سلماً قصيراً، وتحتها عبارة: «العلوي يسبق السفلي بثلاث دورات». ظنتها أولاً ملاحظة عن الضغط، ثم وجدت الرسم نفسه في ورقة تسعير قديمة. كان قد استعمل ظهرها ليحسب سعة خزانات تزيد عشرات المرات على حاجة غرفة التجديد. مدت خريطة رحمة إلى جوار الدفتر، ووضعت كأساً فوق طرفها الذي يلتف. طلبت من ألوكارد أن يقرب المصباح.

تحتهما، في المخزن، جرّ يوسف الكرسي الذي أصلحه عبد الجليل إلى مكان لا يصله التيار البارد. جلس عليه وفتح حساباته مرة أخرى. صرير الخشب جعل كنزة ترفع رأسها، ثم أعادتها يدها إلى الرسم. تتبعت مجرى واسعاً يخرج من تحت القصر ويمر أسفل ثلاثة أحياء

مأهولة. كانت تعرف المباني فوقه. في أحدها أعطتها أنجل أول كأس ماء بعد خروج أبيها من الأسر.

قالت: «هذا ليس مصرف الغرفة.» وأمالت المصباح حتى ظهر أثر قلم رصاص تحت الحبر، حيث كتب أبوها كلمة واحدة ثم ضغط عليها بخطين: البيوت.

الفصل السادس والعشرون

أصل العهد

كان الحمام مغلقاً منذ أسبوع، لكن صاحبه ظل يفتح الباب الخلفي كل صباح ليخرج الماء من الحوض. حين جاءته رحمة ومعها كنزة، سأل أولاً من سيدفع أجرة العامل الذي سيعيد البلاط إن كسرتاه. وضعت كنزة ثلاث قطع نقدية على حافة الصندوق وقالت إنها تريد النزول من فتحة الخدمة فقط. عدّ القطع، ثم أعاد واحدة. يعرف أباها؛ ذلك جعل صوته يخفض قليلاً وهو يسأل عن الأدوات، لكنه بقي يطلب أن تضعا لوحاً تحت السلم كي لا يخدش العتبة.

نزلت كنزة أولاً، والمصباح بين أسنانها. كانت قبضة اليد المصابة أضعف مما تحب الاعتراف به، فربطت الحقيبة إلى حبل وأنزلتها رحمة بعد وصولها. وراء جدار الحمام ظهر قوس قديم نصفه غارق في رواسب بيضاء. مسحت كنزة حافة الحجر، وقاست ارتفاعه مرتين، ثم رفعت رأسها إلى الفتحة. طلبت من رحمة موضع المدرسة في الخريطة. قلبت

المرأة الورقة على ركبتيها وقالت إن المدرسة بنيت فوق ساحة حبوب، وإن الساحة كانت أعلى من هذا الممر بدرجين.

في الأسفل سارت كنزة ست خطوات حتى بلغت العلامة التي رسمها أبوها. وجدتها على الحجر، خطاً مائلاً ينتهي بثلاث نقرات. هذا العمل أقدم من عبد الجليل، لكن الرجل عرف من أين يبدأ القياس. وضعت مسطرتها في الشق، ثم سحبتها وقد علق بطرفها طين رطب. من خلف الجدار يأتي صوت ماء ثقيل لا يشبه خرير المواسير. كان الخزان العلوي ممتلئاً.

حين عادت إلى المخزن حملت في كيس قطعة من الجص سقطت وحدها عند لمسها. وضعتها أمام أنجل وسألت عن الغرفة التي يستريح فيها المرضى بعد العلاج. وصفت الطبيبة موضعها، فحركت كنزة إصبعها فوق الخريطة. القناة القديمة تمر تحتها، وبين الماء وأساس المبنى جدار شُق لتمديد أنبوب حديث. حددت بالأحمر موضعين آخرين؛ أحدهما أسفل بيوت، والثاني تحت ممر الشهود إلى دار الحساب. فتح الخزان بكامل سعته سيحول النفق إلى مجرى مضغوط، وسيبدأ الماء بحفر التربة تحت الأحجار قبل أن يظهر في الأزقة.

قال يوسف إنهم يستطيعون إغلاق بوابة الخزان. شرحت كنزة أن لها محوري تحكم: ذراعاً عند السد الداخلي، وعجلة سفلية للضبط البطيء.

رسم أبوها العجلة وأعاد رسمها بعد شهر، وفي الرسم الثاني حذف جزءاً من الحماية. صار من الممكن استعمال الذراع لرفع الحاجز كله إذا فُك قفل الحديد. هذه وسيلة لتصريف طارئ كانت تحتاج إلى إذنين منفصلين، ثم صارت تحت يد حارس واحد. قالت إن عبد الجليل أصلح التآكل، لكنه أبقى سناً ضعيفة في الترس كي يحتاجوا إلى عودته.

أخرجت الأداة التي استعادتها من المغسلة، وقارنت عرضها بفتحة مرسومة. لثانية رأت أباها يضعها في جيبه ويضرب بيده عليه ليتأكد. أغمضت عينيها حتى انتهت الصورة، ثم قالت إنهم سيحتاجون إلى دعامة جديدة، وإن تركيبها يقتضي دخول غرفة التحكم. سأل ألوكارد كم من الوقت يبقى لهم إذا ارتفع الحاجز. أجابت: «في الممر دقائق. تحت البيوت لا أعرف. هناك ردم أقدم من الخرائط، وأي جواب دقيق سأقوله لك الآن سيكون كذبة.»

في اليوم نفسه وصلت إلى دانية حقيبة أوراق أخرجها الكاتب الموقوف من الديوان. كان يبحث عن نسخة تثبت تاريخ تعيينه، فوجد فهرساً للأوقاف يتضمن نفقة سنوية على «بيت الماء وصحيفة الصلح». جاءت الإشارة إلى الصحيفة قبل أول ذكر لغرفة التجديد بثلاثة أجيال من الحكام. أراد ألوكارد أن يعد ذلك دليلاً على أن العهد

تحرف. وضعت دانية إصبعها على التاريخ وطلبت منه أن يترك لها نصف يوم قبل أن يمنح الورقة أكثر مما تقول.

قضت النصف الأول في مقارنة نسخ، والنصف الثاني في السفر إلى دار حفظ صغيرة عند أطراف الحجر. رافقها هشام يحمل آلة تصوير قديمة أصلحت كنزة موضع بطاريتها بشريط نحاسي. استقبلتهما أمينة الدار بباب موارب. كانت قد تلقت أمراً بمنع دانية من الاطلاع، وأرادت أن تُريها الأمر لتفهم سبب اعتذارها. قرأته دانية حتى آخره ثم قالت إن المنع يخص سجلات القصر، وإن الوقف أقدم من القصر وتملك الدار نسخة منه بعقد مستقل. بقيت المرأة عند الباب. كانت تعرف الفرق، وكانت تعرف أيضاً أن الذين يأتون لإغلاق الأبواب قلما يقرأون العقود كاملة.

سألها هشام إن كان في الدار مخرج آخر. ضاقت عيناها، فشرح أنه يسأل عن العاملين إذا جاء الحرس. أعطتهما في النهاية غرفة بجوار مكتبها، وأخرجت الدفتر بنفسها. جلست معهما طوال القراءة، تسجل كل صفحة صوّراها. حين انتهيا طلبت نسخة من سجل الزيارة مختومة باسميهما، إذا اضطرت إلى الدفاع عن قرارها، أرادت أن تملك ما يثبت أنها أتاحت قراءة دفتر ولم تسلم أسراراً مجهولة.

في الهامش الداخلي وجدوا النص الذي بحثت عنه دانية. كانت حروفه مستنسخة عن حجر، وبعضها مقلوب لأن الناسخ قلد الشكل قبل أن يفهم المعنى. يتحدث عن أمان الطرق والآبار، وعن الشهادة إذا اعتدى أحد البيتين، وعن عزل من ينقض الصلح. الدم علامة تعيين لمن يلتزم، والطول في العمر غائب تماماً. وفي دفتر لاحق، بلون حبر مختلف، ظهر ملحق يجعل بقاء صاحب البيعة رهيناً بتجديد يجريه صاحب الدم المقابل. تحولت الضمانة التي كانت تلزم الملك بحماية الطريق إلى ضمانة تلزم البيت كله بإبقاء الملك.

قرأ هشام السطر مرتين، ثم قال إنهم اخترعوا عمراً إضافياً وأرسلوا فاتورته إلى الآخرين. أجابت دانية بأنهم وجدوا الآن ما يثبت ترتيب الإضافات، أما طريقة فكها ففي الأصل الذي احتفظ به بيت المؤسسين. وصف الفهرس موضعاً حجرياً داخل غرفة التجديد، تحت سطح حُفر عليه العهد الأحدث. كانت صورة الملحق تبين ثقوب تثبيت، ثبتوا نصاً جديداً فوق القديم، وأبقوا الأصل لأنه الذي يمنح الإضافة قدرتها.

في طريق العودة توقفت السيارة عند حاجز. كانت الأوراق في حقيبة دانية، وأصل دفتر الوقف بقي في الدار. طلب الحارس الهاتف، فسألته عن الأمر الذي يجيز أخذه. مد يده ثانية، وتدخل هشام عارضاً

فتح حقيبة آلة التصوير. رأى الحارس أسلاكاً وشريطاً نحاسياً وكأنه ينظر إلى جهاز طبي لا يعرف استعماله. رن هاتفه، فابتعد ليرد. أعادهما إلى السيارة بعد دقائق. بقيت دانية صامتة حتى غاب الحاجز، ثم طلبت من هشام أن يتوقف لأنها تحتاج إلى الهواء. وضعت كفيها على ركبتيها، وفي إحداهما ارتجاف ضايقها أكثر من الخوف نفسه.

وصلت نسخة من دفتر الوقف إلى عضو المجلس الذي وافق على الجلسة. بعد ساعات أرسل جواباً يعترف بأن طلب الطعن مستوفٍ للشروط القديمة، وأن ثلاثة آخرين قبلوا الحضور. كان المجلس يتألف من سبعة؛ أربعة يكفون لافتتاح النظر واتخاذ القرار إذا أثبت استدعاء الباقين. اشترط العضو أن يسجل موظفان من خارج خدمة القصر كل ما يجري، وأن يُمنح سادن حق الرد. أعادت دانية صياغة موعد الجلسة ومكانها، وأرسلت الاستدعاءات عبر أكثر من طريق، ثم سلّمت إيصالاتها إلى يوسف ليحفظها بعيداً عن بقية الملف.

جاءت المرأة ذات المعطف، إحدى أعضاء المجلس الأربعة، إلى المخزن قبل موعد الجلسة بيومين. رفضت الجلوس إلى أن ترى ألوكارد وحده، فطلبت كنزة معرفة سبب الانفراد. أجابت بأنها تحمل سؤالاً يخصه. قال ألوكارد إن السؤال يمكن أن يُسمع هنا ما دام يتعلق بالدعوى. عندها جلست، ووضعت عكازها إلى جوار الكرسي. كانت

تعرج من إصابة قديمة، وتتحرك ببطء لا يدل على ضعف جسدها بقدر ما يدل على احتقارها للاستعجال.

سألته عن أمه، وعن الاسم الذي كانت تستخدمه في تازرون، وعن الذين عرفوا زواجها. أجاب بما سمعه من رافع وبما وجده في الرسائل، وميز بين الاثنين. قالت إنها شهدت مجلساً في عهد سادن قُرئ فيه أن آخر أطفال بيت المؤسسين ماتوا في الغارة. سألها لماذا صدقت. نظرت إلى الخاتم الموضوع على الطاولة، ثم قالت إنها سألت يومها عن الأجساد فقيل لها إن النار أتلفتها، وإن السؤال التالي الذي خطر لها احتفظت به لنفسها. كان لديها بيت وخدم وأبناء لأخيها تحميهم. أضافت، قبل أن يجيب، أن هذا تفسير لما فعلته وليس طلباً منه أن يطمئنها إليه.

أخرجت نسخة من قواعد المجلس، وشرحت لدانية مواضع الاعتراض التي سيستعملها سادن. ثلاثة أصوات تكفي للعزل إذا حضر أربعة، لكن ثبوت استدعاء الغائبين شرط لا يمكن تجاوزه، والطعن في نسب ألوكارد قد يؤخر سماع الملف الأول. سألت دانية إن كان يمكن سماع جرائم المخازن مستقلة عن النسب. قالت المرأة نعم، لكنها قد تستغرق زمناً يملكه سادن أكثر مما يملكون. وضعت إصبعها على باب الاعتداء على البيت المؤسس: هذا ما يتيح نظر العزل فوراً، ثم تستمر بقية التحقيقات خارج يد الوصي.

قال ألوكارد إنه يفهم الآن لماذا تحتاج إليهم الجريمة كي تُسمع بسرعة. ردت بأن القانون الذي يعامل حياة الناس بهذا التفاوت يستحق التغيير، لكن عليها أن تستعمل النص الذي تستطيع إلزام الحرس به اليوم. سألت كنزة إن كانت ستؤيد تغييره بعد سقوط سادن. نظرت المرأة إليها ثم قالت إنها لا تعرف كل ما سيُطلب منها، وإنها لن تعد بما لم تقرأه. أجابتها كنزة بأن هذا أفضل من وعد لا يتذكره صاحبه، وأخذت نسخة القواعد لتضعها في الملف. عند خروج المرأة ساعدتها في رفع العكاز من الموضع الذي انزلق إليه تحت الطاولة.

بعد الزيارة اختبروا الطريق إلى دار الحساب. سار هشام ومعه حقيبة فارغة، وتبعه يوسف على مسافة، بينما بقي أيوب عند الممر الخارجي. اكتشفوا باباً أغلقه صاحب دكان ليحفظ بضاعته، واضطروا إلى العودة وسؤاله عن مفتاحه. طلب الرجل أن يخرج بضاعته أولاً. حملوا معه صناديق من الصابون وحزم قماش، وتأخر الاختبار ساعة. في الخريطة بدا الممر خطاً مستقيماً؛ على الأرض كان هناك رزق رجل يخاف أن يتركه بين أيدي غرباء. عدلت كنزة وقت العبور على الورقة بعد أن عادوا.

قرأ ريّان نص الدعوة فقال إن سادن قد يسمح لهم بالاجتماع ثم يأخذهم جميعاً. رفع ألوكارد رأسه وسأله عن الحرس الذي يستطيع

رفض ذلك. ذكر القائد أسماء رجال، ثم شطب اثنين بعدما أضاف أيوب ما يعرفه عن عقودهما الجديدة. بقي اسم كبير حرس الدار. قال ريّان إنه خدم قبل ولادة الرجل، لكن الخدمة الطويلة تجعل بعض الناس أشد كرهاً لمن عرفهم صغاراً. سيبعث إليه بنسخة الأمر القديم وتوقيعه عليه، ويطلب منه أن يحضر ليرى ما إذا كان يريد توقيع أمر مثله.

جاء الاعتراض على ألوكارد من داخل جماعتهم هذه المرة. سأل هشام لماذا يحتاج الناس إلى دم أم ماتت قبل قرون كي يثبتوا أن عاملاً احتجز ظلماً. وافقته كنزة، وأضافت أن الماء سيهدم بيوت البشر سواء اقتنع الأقدمون بالنسب أم لا. أصغى إليهما ألوكارد، ثم دفع الخاتم بعيداً عن طرف الخريطة. قال إنهما محقان في شأن الجريمة، لكنهم يحتاجون إلى نزع غطاء الطاعة عن حرس ما زالوا يعدون سادن وصياً شرعياً. يستطيعون محاربة الحرس جميعاً، أو إعطاء بعضهم سبباً يخرجون به من القتال.

قالت دانية إن فتح الختم يثبت حقه في الطعن وفق قانونهم، ولا يلزم أحداً بتسليمه الحكم. حين سألتها كنزة أين كُتب الفرق، ناولتها نص الدعوة. قرأت الفقرة ثم وضعت خطاً تحت كلمة «الطاعن»،

وطلبت أن تُقرأ في أول الجلسة كما هي. كان غضبها يتجه إلى الحبر كلما وجدت فيه باباً يمكن أن يدخل منه ملك آخر.

بعد انصرافهم جلس ألوكارد إلى دانية وحدها وسألها عما يتبقى لوارث. عرفت السؤال منذ بدأ شرحها، وأعدت له أوراقاً لم ترغب في دفعها نحوه أمام الآخرين. في الملحق عبارة واضحة: السنوات الموهوبة محمولة على صاحب البيعة ما دام التجديد قائماً، وتسترد عند انقطاعه أو خروجه من العهد. فصل الصلح عن العمر يمنع إنشاء ارتباط جديد. أما ما مضى فقد صار في جسد الرجل، ولا نص يردّه إلى عمر طبيعي يمكن أن يبدأ منه.

أخذ ألوكارد الورقة، وقرأها ببطء كأنه يستطيع اكتشاف فرق في المعنى إذا غيّر موضع إصبعه. سأل إن كان فتح الأصل سيغيّر هذا. قالت إن الأصل يمنحهم سلطة إبطال الإضافة، وإنها لا تعرف فيه وعداً بمحو ثمنها. يستطيع أخوه البقاء إلى موعد الدورة إذا بقي سادن حياً وامتنعوا عن قطع الارتباط القائم؛ بعد ذلك ينتهي ما يعرفون. رفعت عينيها إليه: «لو وجدت سطراً آخر لأعطيتك إياه قبل أن تجلس. هذا كل ما عندي.»

حمل الورقة إلى الخارج. كان الصباح يقترب، والضوء تحت الباب يتسع. وقف بعيداً عنه، ثم تذكر أن الهاتف في جيب المعطف الذي

أعطاه ليوسف. بحث عن الرجل فوجده نائماً على كرسيه، ورأسه على ذراعه. أراد إيقاظه، ثم جلس على الأرض إلى جواره وانتظر. لم يكن في الرسالة التي يريد إرسالها ما سيصير ألطف إذا وصل قبل ساعة.

حين استيقظ يوسف، كتب ألوكارد إلى أخيه موعد الجلسة، وأرفق صورة النص الأول والملحق. طلب منه أن يمنع رجاله من التدخل وأن يأتي شاهداً على فك العهد عن الحكم القادم. كتب بعد ذلك أن المسافة بينهما ما زالت تتسع، وأنه يريد لقاءه مرة أخيرة قبل أن يصير وصول أحدهما إلى الآخر طريقاً يمر عبر الناس. محا الجملة الأخيرة. أرسل الطلب والوثيقتين، ثم وضع الهاتف أمامه.

جاء الرد بعد الظهر: «سأحضر التجديد في موعده.»

كانت كنزة عند النافذة تنحت نموذجاً صغيراً للدعامة. أعطاها ألوكارد الهاتف لتقرأ. أعادته إليه ثم دارت بالخشبة بين أصابعها، وجربت دخولها في فتحة صنعتها من قطعتين. حين علقت، أخذت المبرد ووسعت الفتحة قليلاً. قال إن عليهم افتراض وصول وارث إلى الخزانات. أجابت بأنها تفترض وصول كل من يريد منعهم، ثم طلبت منه أن يثبت الخشبتين كي تعمل يدها المصابة وحدها.

جلس قبالتها وأمسكهما. على الأرض بين قدميه سقطت برادة فاتحة، تشبه ما كان يعلق بثياب رافع حين يصلح باباً في البيت القديم. ثبت قبضته حتى انتهت كنزة من القياس.

الفصل السابع والعشرون

المدينة بين البابين

قبل موعد الجلسة بثلاثة أيام، أُغلقت مخازن الدم بأمر يطلب جرداً صحياً عاجلاً. حمل الأمر توقيع طبيب غادر المدينة قبل شهر، وظهر على أبواب المخازن في الساعة نفسها التي توقفت فيها شاحنات الدواء عند الحدّ. في المساء جاء إلى عيادة أنجل رجل اعتادت أن تراه يشتري الخبز لأمه. جلس بعيداً عن بقية المرضى، ولف أصابع يده حول كوعه حتى بدت الأظافر في الجلد. سأل عن التبرع بصوت منخفض، ثم قال إنه يستطيع الدفع. رفعت أنجل ملفه فوجدت أنه فقد حصته منذ يومين، وأنه يعيش على الدم المتبرع به منذ تحوله قبل سنوات.

أخرجت له ما بقي من الاحتياط، واتصلت بإدريس وهي تراقب يده ترتخي. قال إنهم أعادوا شاحنته من الطريق بحجة نقص ختم، والختم موجود على ثلاث نسخ. يستطيع تأمين كمية أقل من المسلخ نفسه، لكن أحداً يحتاج إلى حملها عبر الحي الداخلي قبل شروق الشمس. أعطت الهاتف لألوكارد. أغلقت العلبة أمام الرجل وقالت له

أن يشرب على مهل، ثم عادت إلى دفترها ووضعت علامة حمراء أمام صف طويل من الأسماء.

خرج ألوكارد ومعه هشام. في الطريق مرّا بطابور أمام محل صغير يبيع قوارير غير مختومة بثلاثة أمثال ثمنها. كانت امرأة تساوم على قارورة لزوجها، وصاحب المحل يكرر أن الخطر عليه أيضاً. توقف هشام عند الباب، وعرف شكل الصندوق الذي أخذ منه البائع البضاعة. هذا صندوق مخزن القصر. أراد دفع الرجل إلى الداخل وفتح بقية الأغطية. أمسك ألوكارد ذراعه، وطلب من المرأة أن تبقى دقيقة. صوّر رقم الدفعة، ثم اتصل بأنجل لتبعث من يفحص الموجود. قال للبائع إن البيع يتوقف حتى تأتي، وإن اسمه سيدخل الملف إذا حاول نقل الصناديق.

ضرب هشام الباب بكفه حين خرجا. قال إن حرس سادن يفتحون سوقاً لجوع الناس، وإنهم ما زالوا يمنحون البائع فرصة لترتيب حسابه. أجابه ألوكارد بأن القوارير قد تكون مخففة أو فاسدة، وأن كسر الباب سيجعل الواقفين يتدافعون عليها. بقي هشام عند المحل حتى وصل العامل من العيادة. حين عاد يحمل إيصال الحجز المؤقت، كان قد كتب اسم المرأة ورقم زوجها بنفسه. أعطى ألوكارد الورقة وقال إن حصتهما يجب أن تصل قبل نهاية الليل.

عند المسلخ وقف إدريس بين صناديق التبريد كأنه يحرس حيوانات صغيرة من البرد. شرح أن دم الحيوان سيخفف الحاجة، لكنه لا يكفي لبعض المصابين حديثاً ولا يصلح أن يوزع بلا معرفة حالتهم. كان قد سمع شرح أنجل وكتبه على ورقة ملطخة بالماء. مد لألوكارد قارورة منفصلة. «هذه دفعت ثمنها منذ أسبوعين. إن نسيت، فأنا أتذكر.» شرب ألوكارد منها قبل التحميل. شعر بأن الضجيج في فمه يهدأ قليلاً، وبقي جسمه يطلب ما هو أقوى. وضع القارورة الفارغة في صندوق الغسيل، وحمل أول حمولة إلى السيارة.

في الجهة الأخرى من المدينة كان أيوب ينتظر رجالاً من عشيرته عند محطة مهجورة. جاء اثنان فقط من أربعة وعدوه؛ أحد الغائبين أرسل أن أمه تعرف باسم المستشفى الذي فيه أبوه، وفهم أيوب ما حدث من غير شرح. الرجلان الحاضران وضعا سلاحيهما في السيارة وسألا إن كان ألوكارد سيعلن نفسه ملكاً عليهما بعد أن يفتحا الطريق. أعطاهما أيوب نسخة دعوة المجلس، والفقرة التي وضعت كنزة تحتها خطاً. قرآها ثم سألاه عن أجر الحراسة. قال إن المال الموجود يكفي الطعام والوقود، وإنه يفضل أن يعرفا ذلك الآن. بقيا.

تولى الثلاثة مرافقة شاحنة التبريد على طريق التفافي. في أول حاجز تعرّف أحد الحراس إلى أيوب وطلب منه النزول. كانت كتفه تؤلمه

تحت المعطف، ويده تستقر على الباب لتخفف رجفة خفيفة. مد وثائق الحمولة وقال إن بداخلها حصصاً لأناس من قوم الحارس أيضاً. جاء الرد بأن الأمر لا يستثني أحداً. بقي المحرك يعمل بينهما، وفتح الحارس الخلفي باب الصندوق فرأى أسماء المرضى على العلب. قرأ اسماً يعرفه، ثم نظر إلى قائد الحاجز. حدث بين الرجلين خلاف قصير، انتهى بأن أخذ القائد نسخة الوثائق وسمح بالمرور «هذه المرة». بعد المنعطف أخرج أيوب الهواء من صدره، وطلب من السائق أن يحتفظ بنسخة أخرى بعيداً عن النافذة.

في المخزن البديل جاء مراد في وقت الظهيرة، حين يعرف أن ألوكارد سيبقى في الداخل. حمل كيساً فيه ملابس لابنه وورقة جديدة. كان قد نقل أسرته إلى بيت أخته، ثم اكتشف أن منير أرسل إليها رجلاً يسأل عن عقد الكراء. وقف عند الباب حتى خرجت كنزة من الغرفة الخلفية. انحنى فمه إلى ابتسامة مرتبكة ثم سقطت. كانت تحمل ملزمة صغيرة، وقد شدّت عليها القماش كي لا تضغط على جرحها.

قال إنه جاء ليعطي دانية عنوان المكتب الذي أخذوا فيه الإفادة. سألته كنزة أين جلس في السيارة ليلة المداهمة. وصف المقعد. سألته إن كان رأى أباها عند الباب. هز رأسه، ثم قال إنه رأى رجلاً على

كرسي. وضعت الملزمة على الطاولة ببطء. «كان رجلاً على كرسي لأنهم أخذوه ليصلح لهم ما لا يعرفون إصلاحه، وأعادوه إلينا بالكاد يقف. ثم جئت معهم إلى البيت الذي أخفيناه فيه.»

حاول مراد الكلام عن ابنه، فتقدم منه يوسف الذي كان يسمع من الممر. طلب منه أن يكمل وصف المكتب أولاً. ارتجفت الورقة في يد مراد. قال إنه وقع إفادة أولى ورفض بعض كلماتها، ثم وضعوا أمامه إفادة ثانية وقالوا إن الأولى ضاعت. الثانية التي تحمل توقيعه كانت أوسع مما قرأ، وقد رأى الموظف يستبدل الصفحة التي قبل التوقيع. يستطيع تمييز الخزانة التي يحفظون فيها النسخ، ويعرف أن منير سيأتي إليها مساءً لأن موظف الحسابات أبلغه بموعد دفع العقود.

سألته كنزة لماذا يخبرهم الآن. أجاب: «لأنهم سيبقون يطلبون مني شيئاً بعد شيء. ولأنني رأيتكم تحملونه. أعرف أنك تريدين جواباً أقل جبناً، لكن هذا هو.» ثم أضاف أنه سيذهب معهم إلى المكتب ويشهد على الأوراق إذا وجدوها. نظرت إلى يوسف، الذي ترك الاختيار لها. طلبت من مراد أن يرسم البابين، وأن يكتب موضع الكاميرا. حين جلس أخذت الكرسي المقابل، وبقيت الملزمة بينهما.

ذهبوا عند الغروب. بقي ألوكارد عند مدخل الزقاق، فيما دخل هشام وكنزة ومراد من باب استلام الطرود. كانت الخطة أخذ النسخ

قبل وصول منير، ثم الخروج إلى دار الحساب حيث موظفان ينتظران توثيقها. لكن منير وصل باكراً. سمعوا صوته في الغرفة الأمامية، يسأل عن الدفتر الأصلي وعن اسم الرجل الذي صوّر كشوف الأجور. أشار مراد إلى خزانة نصف مفتوحة. من الداخل خرج موظف يحمل رزمة، ومدها إلى منير. أمره بوضعها في آلة الفرم قبل أن يغادر.

حملت كنزة الملزمة وسارت إلى الباب. لحقها هشام، لكن الرجل رآهما قبل أن يمسك بذراعها. مد يده إلى سلاحه فاندفعت نحوه؛ اصطدم الحديد بمعصمه وسقط السلاح تحت المكتب. صرخ، ودفعها بكتفه. أعادت ضربه عند الركبة، فانثنى قرب آلة الفرم. للحظة صار رأسه تحت يدها، والمسافة بين الملزمة وصدغه أقصر من المسافة التي احتاجها أبوها ليبلغ الممر ليلة الماء. كانت تسمع هشام يأمر الموظف بالابتعاد، ومراد يكرر أن هناك باباً خلفياً.

قال منير إنه مجرد منفذ. ضحكت كنزة ضحكة جافة وسألته إن كان ذلك يجعل يدها أخف. رفع ساعده يحمي وجهه. ضغطت ركبتها على ذراعه المصابة، ثم مدّت الملزمة إلى هشام وطلبت منه أن يقيده. كان عليها أن تترك الأداة مرتين قبل أن يقدر على أخذها؛ أصابعها بقيت مغلقة عليها. انتزعت الرزمة من يد الموظف، وأوقفت آلة الفرم من القابس. أول ورقة فيها تحمل اسم أبيها وتاريخ احتجازه.

حين دخل ألوكارد بعد إشارة هشام، وجد منير على الأرض وكنزة واقفة فوقه. قالت إنهم سيأخذونه حياً إلى الموظفين، وإنها تريد أن تسمع شهادته مسجلة. ثم انحنت قربه وأضافت: «ستقول أسماء من أعطوك المال. وسأكون هناك حين تظن أن اسم أبي صار ورقة قديمة.» خرجت من الغرفة قبل أن يجيب. في الزقاق ارتكزت على الجدار، وبصقت لأن معدتها صعدت إلى حلقها.

وقف مراد بعيداً عنها حتى رفعت رأسها. ناولها منديل ابنه، ثم سحب يده كأنه أدرك شيئاً متأخراً. أخذته ومسحت فمها. قالت إن شهادته ستضم ما فعله هو أيضاً. أجاب بأنه يعرف. أعادت إليه المنديل، وقالت إنها لا تستطيع أن تقول له شيئاً آخر. بقي واقفاً وهو يطويه بعناية مبالغ فيها، ثم سار خلفهم إلى السيارة.

في دار الحساب وقف الموظفان عند الباب حين رأيا منير مقيداً. سأل أحدهما عن أمر التوقيف، فأعطته دانية، التي استُدعيت على عجل، الأوراق التي حاول إتلافها وشهادة من حضر. طلب أن يُفك القيد عن يده المصابة حتى يفحصها طبيب، وأن يبقى الحارس في الخارج أثناء تسجيل أقوال مراد. غضبت كنزة وقالت إن الرجل يعرف أين تسكن أمها. أجاب الموظف بأن الحماية تُطلب لها ويُمنع المتهم

من الاتصال، أما إثبات ما حدث فيحتاج إلى غرفة يستطيع الشاهد أن يتكلم فيها من غير أن يرى سلاحاً موجهاً إلى وجهه.

بقيت عند الباب حتى خرج مراد. كان شاحباً، وفي يده نسخة من أقواله. قال إنهم طلبوا منه البقاء متاحاً للتحقيق في الإفادتين، وإنه قد يُمنع من السفر. هزت كنزة رأسها ثم سألت إن كان الموظف أثبت أنه رأى منير يأمر بإتلاف السجل. أراها السطر. قرأته، وأشارت إلى رقم الصفحة السابقة وقالت إن عليها أيضاً أن تحمل خاتم التوثيق. دخل مراد ليطلبه. وهي تنتظره أدركت أنها كانت ستخرج من الغرفة قبل ساعة ومعها رجل ميت، وأن هذا السطر كان سيبقى في آلة الفرم مع بقية الأسماء.

وصلها اتصال من أمينة، فأغلقت عينيها قبل أن ترد. سألتها أمها إن كانت ستعود للعشاء. قالت إنها لا تعرف، ثم أخبرتها بما حدث مع منير من غير وصف الضرب. صمتت أمينة حتى ظنت كنزة أن الخط انقطع. بعد ذلك قالت إن الطعام سيبقى مغطى، وطلبت أن ترسل إليها اسم من تكون معه. أعطتها اسم هشام ورقمه، ثم بقي الهاتف في يدها لحظة بعد نهاية المكالمة. رجعت إلى السيارة وطلبت أن يمروا من البيت قبل الذهاب إلى المخزن؛ تحتاج إلى تبديل قميصها وغسل يدها في مغسلة تعرفها.

حين بدأ الإخلاء في اليوم التالي، كانت رحمة تحمل دفتر مفاتيح قديم استعارته من حارس الحي. أكثر العناوين فيه صار يخص أبناء من كُتبت أسماؤهم. وقفت أمام باب امرأة صماء اعتادت أن تفتح إذا اهتز زجاج النافذة. ضربت الزجاج بخاتمها ثلاث مرات، ثم رسمت بيدها حركة الماء وأشارت إلى الحقيبة. خرجت المرأة بصورة رجل صغير السن وببطانية. احتاجت رحمة إلى العودة من آخر الزقاق لأنها نسيت دواءها، فحملت كنزة الحقيبة عنها وأوصلتها إلى المدرسة. هناك أعطتها أنجل ورقة كبيرة كتبت فيها موضع السرير واسم من سيأتي ليطمئنها.

في بيت آخر تشبث طفل بقطط عند عتبة المطبخ. كان أبوه يصرخ أن السيارة ستغادر، والطفل يضع القطة التي يفلتها الأب في الصندوق من جديد. نزل أيوب على ركبته، وثقب غطاء صندوق بطرف مفتاح، ثم حمل القطط إلى السيارة. بقيت رائحتها في معطفه طوال الليل، وصار أحدها يموء كلما توقف. حين مرّوا بالحاجز ضحك الحارس من الصوت ورفع الغطاء ليرى. تذكر أيوب الضحكة لاحقاً، وسط الماء، وأدهشه أن الرجل نفسه كان يستطيع قبل ساعات أن يمنعهم من العبور وهو يبتسم.

في تلك الليلة صار للمجلس مكان يمكن أن يجتمع فيه. وصل كبير حرس دار الحساب مع ستة رجال وقرأ توقيع ريّان على التقرير القديم. طلب أن يراه. حين تقابلا بقي واقفاً، وسأله إن كان يستطيع الوثوق بأن بقية الأوراق صحيحة بعد أن اعترف بتزوير هذه. قال ريّان إن عليه أن يقارن الأختام كما يقارنها لأي متهم. أعطاه دفتر المناوبات الذي حفظه، وفيه أسماء رجال ما زالوا أحياء. بدأ الحارس يتصل بهم واحداً بعد آخر. عند المكالمة الرابعة جلس.

كان أحد أعضاء المجلس السبعة قد انسحب صراحة، واثنان أرسلا أن المرض يمنعهما. الأربعة الباقون طلبوا طريقاً خالياً من رجال منير. جاء جواب سادن إلى الدعوة عند الفجر: يسمح بالجلسة داخل القصر، حيث الأصل، ويعد أي اجتماع خارجه تحريضاً مسلحاً. أرفق رده بحظر على خروج الحرس من الخدمة. قرأ العضو الأكبر الجواب، ثم قال إن المجلس سيفتتح جلسته في دار الحساب ويطلب معاينة الأصل بوصفها جزءاً منها. طلب أن يثبت الرفض إن مُنعوا. كان يعرف أن الصياغة لن توقف سيفاً، لكنه أراد أن يحمل الحرس ورقة يصعب عليهم التظاهر بأنهم لا يفهمونها.

قبل التحرك نُقلت عيادة أنجل إلى مدرسة خالية عند الطرف الغربي. احتج رجل على أخذ أمه من سريرها، ثم رأى قطعة الجص

وخريطة القناة فساعد في حمل السرير نفسه. رحمة قادت المتطوعين بين الأزقة، تشير إلى البيوت التي ينام أصحابها في الطوابق السفلى. طرقوا أبواباً أغلقت في وجوههم، وعادوا يطرقونها مع جار يعرف الأسرة. بقيت عائلات ترفض الخروج. كتبت أنجل عناوينها ووضعتها في جيب أيوب؛ إذا ظهر الماء، ستكون تلك البيوت أول ما يصلون إليه.

في المدرسة أعطت أنجل ألوكارد ضماداً وكيساً صغيراً من الدم، ثم نزعت من جيبه مقصاً يخصها. قال إنه وضعه هناك كي لا يضيع. نظرت إليه حتى أعاده، وشدت الرباط حول ساعده حيث خدشته حافة صندوق. كان الجرح يلتئم أسرع مما تربطه. سألت عن موعد اتصاله التالي، فأعطاها وقتاً محدداً، واسم من سيتصل إن انقطع هاتفه. لامست وجهه بأصابع رائحتها مطهر، ثم عادت إلى الممر حين ناداها أحد المرضى.

وصل ألوكارد إلى باب القصر مع كنزة ودانية وهشام، وخلفهم أعضاء المجلس وموظفا التسجيل. كان ريّان عند الطريق الذي يربط دار الحساب بالنفق، يساعد الحرس في إبقائه مفتوحاً. فتح البواب فتحة صغيرة ليرى الوجوه، ثم نظر إلى الأوراق التي حملتها دانية. قبل أن يرد، جاءت من داخل القصر ضربة معدن طويلة، أعقبتها ثانية.

رفعت كنزة رأسها. هذا صوت فك قفل، لا صوت إغلاق باب.

الفصل الثامن والعشرون

آخر ما يملكه الأخ

فتح البواب مصراعاً يكفي شخصاً واحداً، وقال إن المجلس يدخل من الرواق العلوي. تقدمت دانية بالأوراق، لكن كنزة كانت تصغي إلى أسفل الدرج. جاء صوت الحديد مرة ثالثة، ثم انقطع كأن اليد التي تعمل عليه نجحت أخيراً. أمسكت ذراع ألوكارد وطلبت منه أن يأتي معها. خلف الباب الداخلي وقف رجل من تازرون، وعلى كتفه علامة خدمة البيت. نظر إلى ألوكارد فعرفه من الصور، وأبعد يده عن الطريق. قال إن الملك ينتظره تحت الخزان.

توقف ألوكارد عند أول درجة، وأشار إلى دانية أن تبقى مع المجلس. أرادت كنزة النزول أمامه؛ أمسكت بالمصباح وقالت إنها الوحيدة التي تعرف أي عجلة ينبغي لمسها. وافق على أن تسير خلفه حتى آخر المنعطف، ثم تتقدم حين تتضح الغرفة. أعطاها هاتفه بعد أن اتصل بأنجل، وطلب منها إبقاء الخط مفتوحاً. سمعت الطبيبة صوت

خطواتهم وصوت الماء، ثم قالت إنها ستضع الهاتف عند مسؤول الإخلاء وتبقى قربه.

في غرفة التحكم كان وارث واقفاً أمام منصة من الحجر الداكن. خلع عباءته ووضعها على صندوق، وبقي في معطف قصير يسهل القتال فيه. إلى جواره حارس يحمل مفتاح القفل الكبير، وعند الجدار ثلاثة رجال يثبتون سلسلة على محور العجلة. رأى ألوكارد أولاً حلقة صغيرة من النحاس مربوطة بخيط إلى الجانب الداخلي لحزام أخيه؛ عرفها قبل أن يفهم لماذا أحضرها إلى هذا المكان.

قال وارث إن المجلس سيُمنع من المرور إلى غرفة التجديد حتى يُعاد النظر في الدعوى. كانت عبارته معدة لأكثر من مستمع، وصوته يحتفظ بهدوء رجل أعطى أوامره قبل أن يصل الاعتراض. وضعت كنزة الحقيبة على الأرض وفتحت خريطة أبيها فوق صندوق. أخبرته بأن القناة تصل إلى أساسات ثلاثة أحياء، وأن الماء سيغمر الممر أولاً ثم يخرج من المواضع الأضعف تحت البيوت. نظر إلى الرسم، ثم إلى وجهها، وسأل كم أخلي من السكان.

رفعت رأسها ببطء. «نسأل لأننا نحاول إخراجهم، لا لأن الباقين صاروا عدداً يمكن استعماله.» وأشارت إلى شق في الجدار تحت العجلة. «إذا رفعتم الحاجز إلى العلامة الثانية ستخسرون القدرة على

إنزاله من هنا. الضغط سيمسكه. أعطني ساعة أركب الدعامة وأصرف الماء إلى المجرى الغربي.»

قال وارث إن الساعة تكفي الشهود للوصول، وإن هؤلاء الشهود يحملون إلى قومه فتنة ستبقى بعد موت كل من في الغرفة. نظر ألوكارد إلى الحارس عند القفل. كان الرجل يتجنب الخريطة. طلب منه أن يسمع كلام الحرفية، وأن يتذكر أن بيته في الحجر أيضاً. تحرك فك الحارس، فذكر وارث اسمه وأمره بالوقوف عند الباب. سار الرجل خطوتين، وبقي المفتاح في يده.

أخرج ألوكارد صورة النص الأول، وكانت قد ابتلت عند الحافة من رطوبة الممر. وضعها قرب يد وارث. قال إن المجلس يستطيع سماع الجميع، وإن إغلاق الطريق بالماء سيجعل الأمر الذي يصدره الآن أوضح من كل ما يريد أن ينكره. أجابه وارث بأن سادن يمكن أن يُدان ويُعزل، ثم يجدد له الدم تحت الحراسة إلى أن يجدوا مخرجاً آخر. يحتاج فقط إلى وقف الجلسة حتى يقبل الأقدمون هذا الترتيب. أما الوثائق التي يريدون إتلاف العهد بها فتختفي في الحفظ، ويستطيع أخوه أن يطمئن إلى أنه سيأمر بفتح المخازن وإطلاق المحتجزين.

كان العرض أقرب إلى المعقول مما أحب ألوكارد. سادن أسير، ووارث حي، والمدينة تتنفس. رأى في ذهنه غرفة يستطيع أن يدخلها

على أخيه من غير حرس، ويداً تدفع إليه طعاماً لن يأكله. ثم نظر إلى الماء الذي يضرب الباب الحديدي، وإلى الحارس الذي ينتظر كلمة. قال إن هذا الترتيب يجعل حياة الناس رهينة التجديد نفسه، ويمنح سادن، حتى في سجنه، حق إبقاء أخيه أو تركه يموت. سيحتاج كل من يحكم بعده إلى حماية الأسير وإخفاء ما يستطيع فعله به.

ضرب وارث الورقة بظاهر أصابعه. «أنت تتكلم عن الذي يأتي بعدي وأنا واقف أمامك. أعطيتهم مدناً وطرقاً وعمراً من الخدمة، والآن تقرأ لي سطراً يقول إن علي أن أموت لكي يرتاح حسابهم.» اقترب من أخيه حتى صار صوته بينهما. «أعطني وقتاً. كل ما فعلته في القرون الماضية كان منح الآخرين وقتاً. مرة واحدة أطلبه لنفسي.»

قال ألوكارد إنه سيبحث معه ما بقي، وإنه لن يعده بشيء لا يملكه. طلب منه أن يخرج من الغرفة، ويأمر رجاله بفتح الممر، ثم يأتي إلى المجلس ليقول هذا بنفسه. خلفهما تحرك هشام عند الدرج؛ نزل بعد أن سلّم النسخ للموظفين، وحمل حبلين ومصباحاً ثانياً. رآه وارث فاعتدل. عادت الغرفة بكل من فيها إلى نظره، وعاد معها الملك الذي لا يستطيع أن يظهر طالباً للرحمة أمام جندي سابق من قوم سادن.

تراجع وارث إلى الصندوق وأخرج من جيب العباءة ورقة مطوية. كانت نسخة الرسالة التي أرسلها ألوكارد عن عبد الجليل، وبجانب

صورة الأمرين اسم الرجل بخط أخيه. وضعها أمامه وقال إنه أوقف دفع أجور الشركة التي نفذت المداهمة، وإن رجالها سيُسلمون للمحاكمة. طلب ألوكارد أن يذكر اسم عبد الجليل، فذكره. سمعه في فم أخيه لأول مرة، وأحس بغضب مفاجئ؛ كان الاسم سهلاً إلى هذا الحد، ومع ذلك احتاج رجل إلى الموت كي يمر بين شفتي الملك.

قال وارث إن بإمكانهما إصلاح ما بقي، وإنه احتفظ بنظام المدينة حين كان ألوكارد ينتقل بين بيوت لا يبقى فيها حتى يعرف ما تجره الحماية من أعمال. تحدث عن شتاء انقطعت فيه الطرق، وعن حمى أخذت أطفالاً، وعن رجال من عشيرته أعدمهم بعد اعتدائهم على قافلة بشر. كان ألوكارد يعرف بعض هذه الأخبار من أسماء نُقشت على سقايات ومدارس، وسمع بعضها للمرة الأولى. تركه يكمل. في كل قصة عمل فعله أخوه، وفي كل عمل ذريعة يريد أن يحملها اليوم إلى الرافعة.

سأله ألوكارد عن أول مرة قرأ فيها رسالة خزيمة. أين كان، ومن دخل عليه بعد القراءة، وهل فكر في النزول إلى الطريق بنفسه. بدا السؤال بعيداً عن الغرفة حتى سكت الرجال عند السلسلة. أجاب وارث بأنه كان في غرفة أبيه، وإن حليمة جاءت بكوب ماء ووجدته واقفاً عند الخزانة. كاد يخبرها، ثم سمع كاتب المجلس في الممر، فأعاد

الرسالة إلى جيبه. قال إنه بعد ذلك وجد دائماً شخصاً في الممر. نظر ألوكارد إلى الحارس عند الباب، وقال إن هؤلاء يستطيعون الخروج الآن إذا طلب منهم.

لثوانٍ بدا وارث متعباً بما يكفي ليأمرهم بذلك. رفع يده إلى الحزام، ولمس الحلقة من فوق القماش، ثم أعادها إلى جانبه. سأل أخاه إن كان سيبقى معه حين تنتهي مهلة التجديد. أجاب ألوكارد نعم، إذا اختار أن يوقف هذا. جاء السؤال التالي أخفض: هل سيستطيع أن ينظر إليه وهو يصير، في ساعة، ما أخذ الزمن من بقية الرجال في قرون؟ قال ألوكارد إنه لا يعرف كيف سيحتمل ذلك، لكنه يستطيع البقاء. تحرك فم وارث كأنه يريد أن يضحك، ثم قال إن البقاء وعد يسهل على من يستطيع أن يغادر بجسد سليم.

سمعت كنزة من هاتفها صوت امرأة تطلب نقل سرير. نظرت إلى ألوكارد، ففهم أن الوقت الذي يمنحه لأخيه يأتي من مكان آخر. قال لوارث إن الحديث بينهما يستطيع أن يستمر في أي غرفة لا يهدد بابها بيوت الناس. مد يده مرة أخرى إلى الورقة التي فوق الصندوق، وطواها بعناية ووضعها في جيب العباءة. أعاد وارث يده إلى خارج الجيب فارغة. نظر إلى رجاله واحداً واحداً، حتى رفع الرجل عند السلسلة رأسه منتظراً.

أمر بفتح الدرجة الأولى.

تردد الرجل عند السلسلة حتى أعاد وارث الأمر، فشدها مع زميله. ارتفع الحاجز بمقدار كف، وخرج الماء إلى المجرى بصوت جعل الأرض ترتجف تحت الأحذية. صرخت كنزة بأن الباب الجانبي مفتوح، واندفعت إلى العجلة السفلى. ساعدها هشام في تحرير المكبح، لكن السلسلة التي ثبتها الحرس كانت تقيد المحور. أشار وارث إلى الحارس عند الباب: أخرجوا الشهود من الممر، وأغلقوه من جهة دار الحساب. هكذا يصير الإخلاء، في صياغة الأمر، عملاً لحماية من يُطاردون بالماء.

في المدرسة سمعت أنجل الصوت من الهاتف، ثم انقطع كلام كنزة تحت هديره. أمرت بإخراج ما بقي من الأسرة من المخزن السفلي، واتصلت بأيوب. كان يقف عند بيت رفض أصحابه المغادرة لأن الرجل العجوز يخاف أن تُسرق أدواته. دخل هذه المرة من غير انتظار، وحمل الصندوق الذي أصر الرجل عليه قبل أن يطلب منه الوقوف. حين ظهر الماء عند عتبة الزقاق، صار العجوز نفسه ينادي جاره ويطلب منه أن يترك المفتاح في الباب.

في الأسفل قبض ألوكارد على ذراع وارث قبل أن يأمر برفع آخر. قال: «انظر إليها.» كانت كنزة تجثو عند الترس، والماء يبلغ كاحليها،

وتحاول إدخال الدعامة من زاوية لا تصل إليها إلا بيدها المجروحة. نظر وارث إليها، ثم سحب ذراعه. قال إن الدرجة الأولى تكفي لمنع المرور وإنه يستطيع إنزالها متى أراد. أجابت من مكانها أن الخزان أعلى مما كان في آخر قياس، وأن الدرجة الأولى هنا تصنع ضغط الثانية في الرسم القديم. رفعت الدعامة ليَرى أن طرفها بدأ يتشقق.

مد ألوكارد يده إلى ذراع الإغلاق. ضربه وارث عند الكتف، ثم دفعه إلى الجدار. كانت قوة التحول تظهر في مفاصل اليد قبل اكتمال شكلها؛ أظافر تغلظ، وعظم الفك يتقدم تحت الجلد. نهض ألوكارد ووقف بينه وبين المنصة. قال إنه سيغلق الماء. لأول مرة نطق وارث اسمه كما كان ينطقه في فناء البيت، حين يمسك به قبل أن يقع: «ابتعد يا ألوكارد.» ثم انقض عليه.

اصطدما بالصندوق فسقطت العباءة في الماء. تلقى ألوكارد الضربة على ساعده، وشعر بالعظم ينكسر ثم يبدأ التئامه في ألم يزيد مع كل حركة. أمسك كتف وارث ودفعه بعيداً عن الذراع، لكن أخاه يعرف الوقفة التي تعلمها الاثنان من قاسم. خفض رأسه وضرب تحت الأضلاع، وفي اللحظة التي انحنى فيها ألوكارد بلغ المنصة. جذب الرافعة خطوة أخرى. ارتفع الهدير، وانطفأ المصباح الأقرب إلى الأرض.

صرخت كنزة إلى هشام أن يقطع السلسلة، ثم أدخلت الدعامة بين الترس والحجر. انحنت الخشبة وأصدرت صوتاً رفيعاً. كان أبوها سيقول لها أن تغير زاوية اليد قبل أن يعضها الحديد. غيّرتها وهي تبكي من الألم، لا من الذكرى، وأعادت الدفع بكتفها. مد هشام قضيباً في حلقة السلسلة ودار به حتى انفتح أضعف موضع. اندفعت العجلة نصف دورة، وارتطم القضيب بمعصمه. بقيت الدعامة مكانها، توقف ما يستطيعان إيقافه فقط.

أخذ ألوكارد حبل هشام وألقاه حول ذراع أخيه. سحبه إلى العمود، وثبت طرفه تحت قدمه. لوهلة صار وارث بعيداً عن الرافعة. طلب منه أن ينظر إليه، وأن يتركهم يغلقون الباب ثم يكملان القتال خارجه إن أصر. كان يتكلم بأنفاس متقطعة، والماء يضرب ركبتيه. رفع وارث رأسه؛ عيناه اتسعتا في الوجه الذي أخذ يتحول، وبدا فيهما رعب عرفه ألوكارد من اعترافه القديم على السور. يومها قال إنه بكى في التحول الأول. هذه المرة يعرف ما الذي يخافه، ويعرف أن أحداً لن يحمله عبره.

جاء من هاتف كنزة صوت أنجل: سقف في الزقاق الشرقي سقط، وهناك طفلان عند الدرج، وأيوب يحاول الوصول. سمع وارث كما سمع أخوه. توقف لحظة، كانت كافية لأن يظن ألوكارد أنه عاد إليه.

ثم شد الحبل بقوة مزقت القماش والجلد معاً، واندفع نحو المنصة وهو يقول إن عليهم إخراج الأطفال. كأن في الخارج وقتاً منفصلاً عن اليد التي تفتح الماء هنا.

اعترضه ألوكارد، فضربه وارث عند العنق وأسقطه على الركبة. طعم الدم ملأ فمه. رأى الحارس الذي يحمل المفتاح يبتعد عن الباب ثم يضعه على الحافة ويركض نحو الممر ليساعد من فيه. بقي رجل عند السلسلة، فأمره وارث أن يرفعها إلى نهايتها. أجاب الرجل بأنه سيفعل بعد خروج الحرفية. دفعه وارث بنفسه، ومد يده إلى الرافعة الكبرى.

كانت الدعامة تتكسر.

نهض ألوكارد وهو يسحب الخنجر الذي احتفظ به منذ النار. ضرب ذراع وارث أولاً ليبعدها عن المقبض. التفت أخوه، وأطبقت يده على معصمه، ثم بدأ يدفع النصل نحوه. عرف ألوكارد مقدار القوة الذي يضيع في هذه المقاومة، ورأى اليد الأخرى تمتد خلف ظهر وارث إلى الرافعة. ترك نفسه يقترب، واستدار داخل القبضة كما علمه قاسم حين كان أصغر من أن يغلب أحداً. دخل النصل تحت الضلع، عميقاً، وبقيت يده عليه حتى توقفت اليد الأخرى عن الامتداد.

أفلت وارث المقبض، لكنه لم يسقط فوراً. نظر إلى أخيه بدهشة جريحة، ثم تحركت شفتاه باسم لم يخرج كاملاً. أمسكه ألوكارد من

ظهره، وأبعده عن الذراع قبل أن يهوي بثقله عليها. وضعه عند الدرجة الأعلى، حيث يصل الماء إلى طرف الحذاء فقط، ثم عاد إلى الرافعة ودفعها إلى الأسفل. صرخت كنزة بالتوقيت؛ حرر هشام العجلة، وأخرجت هي بقية الدعامة. هبط الحاجز حتى استقر في مجراه، وبقي من الماء خيط غليظ يتسرب من الحافة المتضررة.

عاد ألوكارد إلى أخيه. كان جرح وارث يحاول الالتئام حول ضرر أعمق من قدرته؛ تتحرك حوافه ثم تتوقف، والنبض تحت أصابع ألوكارد يفقد انتظامه. وضع كفه عليه وضغط. قال إن الماء توقف، وأعاد العبارة كأن وارث يحتاج إلى سماعها ليبقى. رفعت يد أخيه قليلاً، فتبعها بعينيه. كانت أصابعه تبحث عند الجانب الداخلي للحزام عن حلقة النحاس. وجدتها، وأدارتها مرة واحدة بالخيط.

مد ألوكارد يده، فاستقرت الحلقة بين كفيهما.

في الخارج، عند درجات بيت في الحي الشرقي، سلّم أيوب الطفل الثاني إلى امرأة تقف في الماء. كان يحمل الأول على ظهره، وقد ابتلت الضمادة عند كتفه حتى صار ثقلها مثل حجر. حين تراجع الموج عن الدرجة الأخيرة، ظن أن جداراً آخر انهار وحوّل الماء إلى مكان أسوأ. وصلته أنجل على الهاتف تقول إن البوابة أغلقت. جلس على العتبة

لثانية، ووضع الطفل على ركبتي المرأة، ثم طلب منها أن تعد الذين خرجوا.

توقف نبض وارث قبل أن يصل خبر العدد.

بقي ألوكارد منحنياً عليه حتى اقتربت كنزة. وضعت المصباح على الدرجة وقالت إن عليهم فتح المصرف الغربي قبل أن يعود الضغط. رأى فمها يتحرك، وفهم الكلمات بعد أن أعادتها. نظر إلى يده التي تمسك الحلقة، ثم إلى اليد الأخرى التي ملأها دم أخيه. طلب منها دقيقة. أعطته الدقائق التي احتاجتها لربط العجلة، ثم عادت وقالت إن المجلس فوقهم وإن سادن ما زال يملك رجاله.

فك ألوكارد الخيط من الحزام، ووضع الحلقة في جيبه الداخلي. غطى وجه وارث بعباءته المبتلة بعد أن عصر طرفها، وطلب من الحارس الذي عاد من الممر أن يبقى معه. سأل الرجل عمّن سيأخذ الأوامر الآن. رفع ألوكارد رأسه، وأجاب: «أخرجوا الناس من الماء. اسأل الحرفية عن الطريق.» ثم سلّم كنزة المفتاح الذي تركه الحارس عند الباب.

على الدرج توقف ليغسل الخنجر من ماء يتسرب من الجدار. امتد لون أحمر خفيف فوق الحجر ثم اختفى. ظل مقبضه ملطخاً، وحاول

مسحه بكمه حتى انفتح جلد كفه. جاء هشام وناوله قطعة قماش. أخذها، لكنه وضع الخنجر في غمده قبل أن يتم التنظيف.

صعد إلى القاعة وفي جيبه حلقة لا يزيد وزنها على قطعة نقدية. كل خطوة كانت تضربها في صدره.

الفصل التاسع والعشرون

صاحب الوصاية

حين دخل ألوكارد القاعة كان سادن يتحدث عن سلامة الحاضرين. وقف عند رأس مائدة طويلة، وبقي مقعد الوصي خلفه فارغاً كأن قيامه منه دليل على استعداده لسماع الناس. على جانبيه حارسان، وعند الباب موظفا التسجيل وقد وضعا أجهزتهما فوق مقعد قصير. الأربعة من مجلس الأقدمين جلسوا متباعدين. بينهم رجل ضعيف البصر قرب منه كاتبه كل ورقة حتى تكاد تلمس أنفه، وامرأة احتفظت بمعطفها على كتفيها طوال الجلسة. كانت دانية واقفة أمامهم، والماء في أسفل ثوبها يقطر على البلاط.

التفتت إلى ألوكارد، فرأت وجهه قبل أن ترى يديه. سكتت لحظة ثم قالت إن الجلسة افتتحت في دار الحساب، وإن المجلس انتقل للمعاينة بعدما فُتح له الباب. سجّل الموظف وقت وصول ألوكارد. سأل العضو الأكبر عن وارث، فأجاب بأنه مات في غرفة الخزان بعد أن أمر بفتح الماء واستمر في رفع الحاجز. أضاف: «قتلته وأنا أوقفه.» كان

صوته واضحاً إلى درجة جعلت الجملة غريبة عنه. أثبت الكاتب الكلمات كما قالها، وطلب اسم من شهد. سمّى كنزة وهشام والحارسين الباقيين، وأشار إلى أن أحدهم ما زال عند الجسد.

قال سادن إن هذه الجملة تكفي لمعرفة نوع الحكم الذي يأتي به ضيفهم. اعترضت المرأة ذات المعطف؛ البحث في موت وارث سيجري بشهوده، والجلسة الحالية تتعلق بطعن وصل قبل ذلك. طلبت أن يثبت اعتراض سادن من غير أن يبتلع موضوع الدعوى. كان في صوتها جهد من يقاوم عادة أقدم من شجاعته. نظر إليها الوصي طويلاً، ثم جلس.

أخرجت دانية الاستدعاءات وإيصالات تسلمها. سمّت الأعضاء الغائبين، وأثبتت نص ردودهم. قرأ الموظف الفقرة التي تصف ألوكارد مقدماً للطعن، وتؤكد أن ثبوت نسبه لا يجعل الجلسة بيعة له. رفعت كنزة رأسها عند آخر كلمة، ثم عادت إلى خرائطها؛ من موضعها قرب الباب كانت تتابع رسالة تصل من أنجل عن الذين خرجوا من الحي الشرقي. هناك مصابون وفقدان بيتين من الداخل، لكن الفرق ما زالت تعد السكان. احتفظت بالخبر حتى تعرف ما يمكن قوله على وجه اليقين.

طلب سادن رؤية الحافظة. حملتها دانية بنفسها إلى منتصف المائدة، وأبقت يدها على غطائها حين مد أحد الحراس يده. قال إن الملك يطلبها. صححت له المرأة: المجلس يطلب معاينة دليل، ويظل تحت عين الموظفين. تراجع الحارس بعد أن نظر إلى سادن. صارت النظرة، في تلك اللحظة، مرئية للجميع، كأنهم يرون للمرة الأولى من أين تصل الأوامر التي اعتادوا نسبتها إلى النظام.

تحت غطاء حجري في الجدار الخلفي وُجد موضع الختم. كان سادن قد وافق على إظهاره لأنه اعتقد أن إخفاق ألوكارد أمام المجلس سيختصر بقية الملف، أو لأنه أراد أن يعرف مقدار ما بقي من دم سيرين. وقف اثنان من الأقدمين إلى جانبيه، وقارن أحدهما النقش برسم في دفتر الوقف. أخرج الرجل عدسة صغيرة، وفحص الشق الذي يدخل منه الدم، ثم طلب إضاءة أخرى. طال الانتظار حتى سمعوا فوق السقف مشي الحرس، ومن تحتهم الماء الذي أخذ يجد طريقه إلى المصرف الغربي.

قرأ العضو الأكبر عبارة الإقرار ببطء: «لا إقرار إلا من حاضر يعلم ما يطلب.» سأل ألوكارد عن طلبه. أجاب بأنه يطلب فتح سجل بيت المؤسسين لإثبات نسبه، والوصول إلى أصل الصلح للنظر في الإضافات التي رُبطت به. سأله إن كان يطلب بيعة المجلس. قال لا، فطلب

الكاتب إثبات الإجابة. شق ألوكارد طرف إصبعه بسكين المعاينة، ووضع الدم في التجويف المحدد. بقي ينظر إلى الموضع وهو يقول اسم أمه كما قرأه في شهادتها، كاملاً، من غير لقب ملكي.

تحرك الحجر من الداخل حركة صغيرة، ثم انفتح شق أفقي خرج منه هواء بارد. وضع العضو صاحب العدسة يده عند الحافة، فوجد القفل قد انسحب إلى موضع وصفه الدفتر. في الداخل صحيفة معدنية أقدم من كسوة الجدار، وعلى طرفها علامة البيت. أخرجها إلى الضوء، وقابل الأسماء فيها بما تحمله الحافظة. عند اسم سيرين بقي فراغ امتد إلى السطر الذي بعده؛ الناجون الذين أخفاهم سادن عن السجل العام لم تُمح أسماؤهم من الأصل المحفوظ. رفع الرجل رأسه وقال إن الختم أجاب وإن النسب ثابت وفق شرط البيت.

أغمض سادن عينيه لحظة واحدة. حين فتحهما قال إن النسب لا يثبت أن الأوراق التي جاؤوا بها صحيحة. وافقته دانية، ثم فتحت الملف الأول.

بدأت بالأرض. عقد بيع بيت خادمة اختفت ليلة المذبحة، وتعويض صُرف لرجل من حرس الوصي في الأسبوع نفسه، وأجور بوابة نقلت من نفقة الحراسة إلى نفقة البناء. جاءت شهادة سيرين بعد ذلك، تستند إلى أشياء يستطيع الأقدمون مطابقتها في سجلات يملكونها.

اعترض سادن على شهادة امرأة تخصم منه الملك. قرأت دانية الموضع الذي اعترفت فيه سيرين بتأجيل الكشف، ثم وضعت إلى جانبه تاريخ رسالتها إلى رافع. كانت الوثيقة تسيء إلى قرار صاحبتها بقدر ما تكشف خصمها. طلبت من المجلس أن يفحص التوقيع والختم، لا أن يحب الكاتبة.

طلب الرجل ضعيف البصر أن يسمع جزءاً من الشهادة بصوت ألوكارد. كانت النسخة قريبة من عينيه، لكنه قال إن خط الناسخ الذي أثبت المقابلة بين الأصل والصورة يضيق في الهامش. أخذ ألوكارد الورقة، فوقع نظره على جملة الحزام فوق المصباح. تجاوزها إلى المقطع المطلوب، وقرأ عن الخادمة التي خرجت بطفلة تحت حزمة غسيل. في منتصف القراءة رفع سادن كفه وقال إن الخادمة ماتت منذ زمن، وإن طفلة مذعورة تستطيع أن تتذكر ما قيل لها أكثر مما رأته.

أخرجت دانية عقد مصادرة البيت، وقد وثقته دار الأرض قبل يومين. المرأة التي ماتت لم تستطع العودة، لكن من صادر بيتها كتب سبب المصادرة: معاونتها على إخراج فرد من بيت الوصاية بغير إذن. سأل العضو الأكبر لماذا يحتاج المهاجمون المستذئبون إلى إذن الوصي، ولماذا يعاقب خادمة أنقذت طفلة من غارتهم. أجاب سادن بأن

الوكلاء صاغوا الأسباب على عجل في زمن اضطراب. طلبت المرأة ذات المعطف اسم الوكيل. قال إنه مات. عندها طلبت تاريخ وفاته، فصمت سادن طويلاً قبل أن يقول إنهم يستطيعون البحث عنه في السجل.

كان ذلك أول صمت خرج من حسابه. نظر ألوكارد إلى دانية، فوجدها تكتب موضع السؤال ليرجعوا إليه، كما تفعل مع أي جواب ناقص. فهم أن سقوط الرجل لا يحتاج إلى عبارة واحدة تعجزه؛ يحتاج إلى أن يبقى هؤلاء جالسين ويسألوا السؤال التالي. خلفهم طلب أحد الموظفين تغيير بطارية جهازه. أوقف العضو الأكبر القراءة حتى انتهى، وأثبت وقت الانقطاع. في القصر الذي ضاعت فيه أجساد، صار فقدان دقيقة من الكلام أمراً يحتاج إلى تفسير.

حين عادت الجلسة سأل سادن ألوكارد إن كان يتنصل من أمه أيضاً. هي صاحبة الدم الذي يفتح له هذا الموضع، وكل خطوة أخذته إلى هنا قامت على استثناء لا يملكه الحرفيون الذين جاء بهم. أشار إلى كنزة عند الباب وقال إن فتاة مثلها ستعود إلى العمل بعد انتهاء هذا اليوم، أما هو فسيبقى مطلوباً ليحكمهم، ولو سمّوا ذلك اسماً آخر. رفع ألوكارد رأسه عن الورقة. كانت الحجة تضرب موضعاً حقيقياً، لذلك تأخر في الرد.

قال إن أمه اختارت أن تتزوج رافع، وأن ذلك الاختيار كلّفها أن يُطلب دمها من الجهتين. أما الحق الذي فتح به الختم فسيتوقف عند الغرض الذي أقره أمام الشهود. سأله سادن من سيمنعه إذا غير رأيه. من عند الباب أجابت كنزة، قبل أن يجد ألوكارد عبارته: «نكتب كيف نمنعه، ونحتفظ بمن يستطيع تنفيذ ما نكتب. وإذا اكتفينا بحسن نيته، نكون أغبى مما تظن.» نظر إليها سادن كأنه يراها للمرة الأولى، ثم عاد إلى المجلس يطلب استئناف القراءة. بقي ألوكارد ممسكاً بالورقة، وقد صار جواب السؤال الذي وجه إليه وعداً يجب أن يتيح للآخرين اختباره.

في الملف التالي ظهرت أسماء رجال بوابة تازرون. قال سادن إن الأجور دُفعت لعمال، وإنه لا يستطيع أن يسأل كل عامل عما يفعل بعد أن يأخذ المال. عندها قرأت دانية أمر الملاحظة على الابن بعد الخطر، وعبارة إبقاء رافع إلى اكتمال المعاينة. طلب سادن الأصل، فرفعه الكاتب بحيث يرى الجميع الوجهين. على الظهر أثر ضغط من ورقة أخرى كُتبت فوقه؛ كان الرجل ذو العدسة يعرف هذا النوع من الورق، وقد وقّع في الديوان أوراقاً من الدفعة نفسها. طلب دفتر الوارد الذي حمله ريّان، ووجد رقم التسجيل في موضعه.

دخل ريّان متأخراً، بعدما سلّم الطريق إلى كبير الحرس. كان يعرج، وفي طرف ضماد نخذه ماء وردي. وقف أمام المائدة من غير رتبة على كتفه. سأله سادن إن كان يقر بأنه كذب في تقرير الحريق. أجاب نعم. سأله لماذا يصدقه المجلس اليوم. قال إنه أعطاهم موضع النسخ التي تُراجع بها أقواله، وأسماء الرجال الذين يستطيعون تكذيبه. ثم أخرج دفتر الدوريات ووضعه قرب يد الموظف. سمّى ما فعله في المدابغ، والأمر الذي تلقاه بمطاردة ألوكارد، والخوف الذي جعله يحفظ موتاً يعرف أنه غير ثابت.

قال سادن إن القائد يحاول إنقاذ نفسه. رد ريّان: «أحاول. وأقر بما فعلت، ولا أطلب أن يسقط عني إذا أدانك.» انتهت الجملة وبقي واقفاً. لأول مرة منذ عرفه ألوكارد بدا أن الرجل لا يملك أمراً آخر يتبعه كي يخرج من الموقف.

استغرقت قراءة الملفات أكثر مما توقعوا. كان الدم يجف على يد ألوكارد، وكلما حرك أصابعه شد الجلد. طلبت المرأة استراحة قصيرة لفحص ختم في سجل قديم، نخرج إلى الرواق. وجد كنزة جالسة على الأرض وقد أغمضت عينيها. سألها عن الماء. قالت إن المصرف يعمل، وإن أيوب أخرج آخر من بقي في البيت المهدد. سكتت ثم أضافت أن أنجل سجلت إصابات خطيرة وأنهم سينتظرون ما يقوله الأطباء. حاول

أن يسأل عن شخص بعينه، لكن الاسم غاب عنه. أعطته قائمة مختصرة، فقرأها وهو واقف حتى عادت إليه قدرته على فهم الحروف.

في الداخل عرض سادن على المجلس تنحية مؤقتة تدير خلالها لجنة شؤون القصر، ويبقى هو ضامناً للعهد حتى تنتهي الفوضى. وصل الخبر إلى ألوكارد من دانية التي خرجت لاستدعائه. قال إنهم يستطيعون اتخاذ قرارهم وفق الأدلة، وإنه سيحضر ما يقرؤونه. حين عاد سمع العضو الأكبر يسأل سادن عن المحتجزين الذين بقيت أجورهم تُصرف بعد موتهم. أجاب بأن إدارة المخازن تجاوزت صلاحياتها، وأنه مستعد لتسليم المسؤولين. رفعت دانية أمراً يحمل تصحيحاً بخطه لعدد العمال المطلوب إبقاؤهم. قال سادن إن هذا من عمل النساخ. طلبت المرأة أن يثبت هذا الجواب أيضاً.

عند التصويت وافق ثلاثة على عزله، وامتنع الرجل ضعيف البصر حتى يُستكمل سماع مسؤولي المخازن. أجاب العضو الأكبر بأن أربعة أعضاء يشكلون نصاب الجلسة، وثلاثة منهم تكفي وفق باب العزل لثبوت الاعتداء على البيت ونقض الصلح، مع بقاء الجرائم الأخرى للنظر. قرأ الموظف المادة كاملة، ثم القرار وأسماء المصوتين. سُحبت من سادن صلاحية إصدار الأوامر، وأُسندت حراسة القصر والسجلات

إلى كبير حرس الدار تحت مسؤولية المجلس. بقيت الخلافات في المحضر؛ دانية أصرت على إثبات الامتناع كما أُثبتت الموافقة.

خرجت نسخة القرار إلى الرواق، ومنها إلى الباب. سمع ألوكارد كبير الحرس يأمر الرجال بتسليم مفاتيح المخازن. واحد منهم امتثل، وآخر طلب رؤية التوقيعات. داخل القاعة وقف سادن ببطء. قال إنهم استعملوا أصل العهد ليعزلوه، وعليهم الآن أن يروا ما يبقى من سلطتهم إذا اختفى الأصل. مد يده تحت حافة المائدة قبل أن يصل الحارس إليه، فانفتح باب ضيق في الجدار وراء مقعده. اندفع عبره، وضرب الحارس الذي حاول الإمساك به. تبعه ألوكارد وهو يسمع دانية تطلب حفظ النسخ وإخراج المجلس من موضع القتال.

انتهى الممر إلى غرفة التجديد. كانت كنزة قد أغلقت جزءاً من الماء بعد إنقاذ أبيها، ثم أعاد رجال القصر تشغيله؛ الآن رأى ألوكارد الأحواض فارغة إلا من خطوط حمراء رفيعة عند القاع. تحت اللوح الأحدث ظهر طرف الحجر الأول الذي وصفه دفتر الوقف. إلى جواره خزان صغير لمادة تنظيف تحرق الرواسب، وأداة حديد تستخدم لرفع الغطاء. أمسك سادن بها ووجّهها إلى مجرى النقش. اعترضه ألوكارد قبل أن تسقط، فتلقّى ضربة دفعت رأسه إلى العمود.

قال سادن وهو يعيد رفع الأداة: «قتلت أخاك لتصل إلى هنا، ثم تركتهم يكتبون أنك لم تأت طالباً للملك. كنت أفعل ذلك على الأقل من غير شهود يدّعون الطهارة.» نهض ألوكارد، والدم في عينه يحجب نصف الغرفة. قال إن موت وارث سيُسأل عنه، وإن الحكم على سادن قد صدر قبل نزولهما. ابتسم الرجل كأنه سمع حجة من طفل يحفظ ما لُقن. وضع يده في جيبه وأخرج المشبك الفضي المتفحم. رماه على الحجر بينهما.

عرف ألوكارد أثر النار قبل أن يرى العلامة. انحنى نظره إليه، فضربه سادن عند العنق. سقط إلى جانب الحوض، وشعر بأسنان الرجل تقترب من موضع الدم في كتفه. دفعه بمرفقه، ثم حجز وجهه بعيداً عنه. كان الجوع في جسده يقوى من رائحة الدمين، ومن الإرهاق الذي تركه قتال وارث. يستطيع أن يعض الرجل، أن يأخذ منه ما يكفيه ليقف، وربما ما يجعله أقوى. سمع صوت رافع، لا كجملة كاملة بل كإيقاع رجل يتكلم بصعوبة وهو يختار كل كلمة. أدار وجهه ودفع سادن إلى حافة الحوض.

قال له أن يستسلم، وإن الحرس في الطريق. أجاب سادن بأن الحرس سيخدمون من يخرج حياً ويحمل الختم. ثم جذب ألوكارد من ساعده إلى الحجر، وأخذ يدفع الأداة نحو القناة الدقيقة التي تصل أصل

العهد باللوح المضاف. لو حطمها الآن سيترك الإضافة قائمة على أصل معطوب، ويمنع الإبطال الذي جاؤوا لإتمامه. رأى ألوكارد موضع الضربة من رسم كنزة، فمد يده تحت الأداة. دخل الحديد في كفه حتى لامس الحجر، وبقي المجرى سليماً.

وصلت كنزة إلى الباب مع هشام والحارس. طلبت منه أن يثبت اليد لحظة كي تسحب لوح الحماية. سمعها سادن، فالتفت ودفع خزان مادة التنظيف نحو المدخل. اندفع السائل فوق الأرض، وتراجع الحارس وهو يرفع ذراعه عن الرذاذ. تحرك سادن إلى فتحة فوق الحوض تحمل مرآة الإضاءة القديمة، يريد بلوغ المجرى من جهة أخرى. رأى ألوكارد ذراع الستارة الحديدية قرب كتفه، في الخارج كان النهار قد ارتفع، والفتحة التي أبقتها الصيانة مغلقة تطل إلى بئر الضوء.

جذب الذراع. اندفع شريط الشمس على الحوض والحجر، وأصاب وجه سادن ويد ألوكارد معاً. صرخ الرجل وتراجع، لكن ألوكارد أمسكه من المعطف ودفعه بعيداً عن الأصل. اشتعل الألم في جلده هو أيضاً، بطيئاً بما يكفي ليعرف أين يقف، وسريعاً بما يكفي ليفهم أنه لن يبقى هناك طويلاً. سحب سادن نحوه، فصار وجهه أقرب إلى الضوء، ثم ألقى الأداة والتقط نصل الحارس الساقط. وجّهه نحو عنق

ألوكارد، وعندها غرس ألوكارد خنجره في صدره ودفعه إلى الحوض المكشوف.

حاول سادن النهوض مرة أخرى. انقبضت أصابعه على حافة الحجر، وامتدت يده إلى المشبك، ثم أكل الضوء قدرته على القبض. بقي ألوكارد واقفاً حتى توقف الجسد عن الحركة. جذبه هشام إلى الظل قبل أن يفهم أن كنزة تصرخ باسمه. غطت يده المحترقة بثوب جاف، ثم نظرت إلى الأصل. كانت قطرات الدم قد سقطت في مجرى بعيد عنه، وبقي النقش واضحاً تحت الغبار.

عادت دانية مع أعضاء المجلس بعد أن أُمّن المدخل. سجل الموظف ما وجده، وسمع أقوال الحارس وهشام وكنزة قبل أن يطلب إفادة ألوكارد. كان الأخير جالساً عند العمود، يضع يده المصابة على ركبته ويحاول منعها من الرجفة. أعطاهم ما استطاع من الكلام، ثم طلب أن ينتظروا بقية الإفادة حتى يستعيد قدرته على ترتيبها. أقر الموظف ذلك، وكتب الوقت.

فُتح اللوح الأحدث بأدوات عبد الجليل. قرأت دانية نص الإبطال في الأصل، وقارنه الأقدمون بالنسخة المحفوظة في الوقف. يتطلب صاحب دم البيت الذي أنشأ العهد، وشهوداً من طرفي الصلح، وإعلاناً بأن الإضافة تُرفع عن كل بيعة قادمة. وصل أيوب من الممر،

وفي يده تفويض وقع عليه رجال الخدمة الذين شهدوا فتح الخزان ومعهم ممثلان عن عشيرتي الطريق. كان وارث قد مات، وصار عليهم أن يقرروا إن كانوا يربطون أعمارهم بملك آخر. قرأوا العبارة بأنفسهم، وطلب أحدهم أن يضاف إلى المحضر أنهم لا يبايعون أحداً بهذا الحضور.

وقفت كنزة عند الآلية، وأدخلت الأداة في الموضع الذي قاسه أبوها. كان الفصل بين القناتين عملاً يحتاج إلى يد ثابتة، لا إلى قوة. أمسك هشام المصباح، وأمسك ألوكارد الحجر بيده السليمة. قرأ إقراره وهو يعلم ما يطلب: إبطال ملحق العمر، وإعادة الصلح إلى أمان الطريق وحرمة الاعتداء. وضع دمه في موضع البيت، وأثبت الشهود أسماءهم في مواضعهم. حين أعطته دانية الإشارة، حررت كنزة المحور الصغير الذي أخفته الكسوة الجديدة.

خرج من الحجر صوت خافت يشبه تنفس ماء محبوس، وانطفأ الخط الداكن الذي كان يصل اسم صاحب البيعة باسم صاحب التجديد. بقيت قنوات الأمان محفورة كما هي. رفعت كنزة اللوح المضاف إلى الخارج؛ من تحته ظهر سطح أقدم، فيه آثار أصابع عمال ماتوا قبل أن يصير العهد عمراً يتقاتل عليه الملوك.

أخذ ألوكارد المشبك من قرب الحوض ولفه في القماش. خارج الغرفة كان الحرس ينادون بالأسماء ليفتحوا أبواب المحتجزين. سمع اسم رجل تكرر في قائمة أنجل، ثم صوت جواب ضعيف من خلف باب. نهض ليساعد في حمله، فطلبت منه كنزة أن يبقى جالساً حتى تكف يده عن النزف. جلس. مرّ الرجل أمامه على كتفي هشام والحارس، وخرج إلى الممر الذي ظل مفتوحاً.

الفصل الثلاثون

ما يبقى من الليل

أول من طلب من ألوكارد شيئاً بعد خروجه من القصر كانت امرأة تحمل حذاءين مختلفين. وقفت عند باب المدرسة التي صارت مستشفى مؤقتاً، وسألته إن كان رأى رجلاً في نحو الستين، يرفع قدمه اليسرى قليلاً حين يمشي. كان اسم الرجل في دفتر المحتجزين، لكن دفاتر الخروج لم تصل كلها بعد. أخذ ألوكارد وصفه وذهب إلى أنجل. وجدها جالسة على مقعد ضيق تأكل نصف خبزة، واليد الأخرى تقلب قائمة أسماء. أشارت إلى غرفة خلفية وقالت إن رجلاً يطابق الوصف هناك، وإن عليهم أن يسألوه قبل إدخال المرأة.

دخل ألوكارد فوجد الرجل نائماً. انتظر حتى فتح عينيه، وذكر اسم المرأة، فرفع رأسه دفعة واحدة ثم أمسك خاصرته من الألم. طلب أن يأخذ الحذاءين قبل أن تراهما الممرضات؛ كانت تلبسهما أحياناً في العتمة وتغضب إذا ضحك. خرج ألوكارد وأدخلها. بقي عند الباب حتى رآها تضع الحذاءين تحت السرير، ثم انصرف. كانت أصابعه

المحترقة قد بدأت تلتئم، وفي صدره شيء يتحرك بصعوبة كلما رأى شخصاً يصل إلى من ينتظره.

بعد ثلاثة أيام سُلّم جسد وارث إلى رجال تازرون. جاءوا بعربة مغلقة وفرشوا داخلها قماشاً عادياً اختاره كبير خدمة البيت. طلب بعض الزعماء جنازة ملكية، واعترض آخرون لأن آخر أمر أصدره أغرق طريقاً وأضر ببيوت. اتفقوا في النهاية على دفنه قرب رافع، مع إثبات ما حدث في سجل المدينة، وتأجيل أي مراسم عامة حتى تُسمع الشهادات. حمل ألوكارد طرف النعش عند إخراجه من القصر. ساعد في وضع النعش داخل العربة، ثم بقي إلى جانبها. كان الطريق إلى تازرون سيعرّضه لساعات من الشمس، وحروق القصر ما زالت مفتوحة. حين أصر على المرافقة، كشفت أنجل طرف الضماد وأرته الجلد الذي لم يلتئم بعد. تراجع عن السفر، وبقي ينتظر إغلاق الباب.

أرسل مع الجسد رسالة إلى من يتولى القبر، فيها موضع الحجر الذي أراد أن يبقى بين الأخ وأبيه. احتفظ بحلقة الحزام. حين أغلق باب العربة، عاد إلى غرفة فارغة في المدرسة وجلس على حافتها الخشبية. حاول أن يتذكر أول مرة رأى فيها وارث يحمل سيفاً. جاءت صور غير مرتبة: الحزام أطول من خصره، وصوت حليمة في المطبخ، ويده

الصغيرة تحاول إدخال الحلقة في موضعها. أما وجهه في تلك السن فظل يفلت. بكى حين فهم أنه يتذكر اليد أكثر مما يتذكر الوجه.

في اليوم الخامس سلّم ريّان سلاحه إلى موظف التحقيق، وطلب إثبات حضوره طوعاً. ختم الموظف الكيس ودوّن طلبه. أصرت دانية على بقاء القضية خارج سلطة ألوكارد؛ وفي الفناء كانت عائلات تقرأ أسماء المحققين المعلنة، وقد نجح اعتراضها في تغيير اثنين منهم.

قبل دخوله أعطى ريّان ألوكارد علبة خشبية صغيرة. ظن ألوكارد أنها تضم تقريراً آخر، ففتحها عند النافذة. في الداخل نتفة قماش زرقاء، أحد أطرافها محترق، وبقية أليافها صلبة من عمر طويل في الظلام. قال ريّان إنه وجدها عند المجرى ليلة الحريق. بقيت الكلمات معلقة بينهما، وفي الفناء ينادي الموظف شاهداً آخر. سأل ألوكارد لماذا احتفظ بها. أجاب الرجل بأنه أراد دليلاً لنفسه على أنه ترك احتمالاً للنجاة، ثم صار يخاف التخلص منه كما يخاف إظهاره.

مرر ألوكارد إصبعه فوق طرف القماش. عرف خشونته، أو ظن أنه عرفها؛ الذاكرة جعلت ما أصغر من كفه يتسع لبيت كامل. قال إن رجلاً مات في تلك المطاردة، وإن العائلات التي ستنتظر ريّان في الداخل تحتاج إلى أسماء أكثر من حاجته هو إلى هذه العلبة. أقر ريّان، ثم سأل إن كان يستطيع الاحتفاظ بنسخة من شهادته الأولى

كي يتذكر ما قاله. أجابه ألوكارد بأن ذلك عند المحقق. دخل القائد السابق، وبقيت العلبة مفتوحة في يد ألوكارد حتى نادته كنزة من آخر الممر.

في الأسبوع نفسه قُبض على رجوان عند مستودع خارج تازرون. حاول جمع رجال السهل بحجة أن مقتل وارث يجعلهم بلا بيعة، لكن أيوب حمل إليهم نسخ أوامر البوابة وكشوف الأجور. جاء بعض الرجال ليأخذوا أقاربهم من المخزن، وبقي آخرون لحراسة المخرج حتى وصل المكلفون بالتوقيف. وضع رجوان ختم العشيرة على الطاولة وطلب محادثة ألوكارد وحده. أُبلغ بأن القضية عند المحققين، وأنه يستطيع تقديم قوله بحضور من يختاره للدفاع عنه. أكثر ما أغضبه أن الجواب حمل توقيع كاتب من بيت كان أبوه يدفع له الأجرة بالحبوب.

أما منير فأنكر أولاً وجود الإفادة الأولى، ثم واجهه الموظف بالنسختين وبشهادة مراد. جلس مراد في الغرفة نفسها التي أُخذ فيها توقيعه، هذه المرة وقد نُقلت الأوراق منها وصار بابها مفتوحاً على ممر عام. قرأ أقواله بصوت يتهدج عند ذكر ابنه، واعترف بأنه عرف أنه يقدم شيئاً سيؤذي الآخرين، حتى حين حاول تقليل الكلمات. كانت كنزة في آخر الغرفة. سمعت اعترافه كله، ثم خرجت قبل أن يلتفت

إليها. في الخارج سألت الموظف كيف تتابع الملف. أعطاها رقماً وتاريخ الجلسة التالية، فكتبتهما في دفتر أبيها.

المدينة احتاجت إلى خبز قبل أن تتفق على اسمها الجديد. بقيت عائلات في المدرسة تنتظر إصلاح بيوتها. عند المخازن صار المتبرع يستطيع أن يرفض ويغادر. احتج مالك مخزن بأن الإمداد سينقص، فوضعت أنجل أمامه قائمة بمن سُحب من أجسادهم أكثر مما تحتمل، وطلبت أن يبدأ حسابه بهم.

كان دم الحيوان يملأ جزءاً من النقص، وتبرعات الناس تملأ جزءاً آخر، وبقيت أيام صعبة كادت تعيد الشجار إلى أبواب المخازن. حمل إدريس مبرداً إضافياً إلى مركز التوزيع، ووضع على جانبه فاتورة واضحة. قال إنه تبرع بما استطاع، وإن بقية الطلبات يجب أن تُدفع كي يستمر العمل. وافق المجلس على سدادها من مال صودر من حساب تمويل الهجوم بعد أمر قضائي مؤقت. أخذ إدريس وصل الدفع ونظر إلى ألوكارد: «تعلم منه. هذا إيصال تحفظه، لا تدسه في كيس البصل.»

عادت أنجل إلى مبنى العيادة القديم مع كنزة قبل إخلائه نهائياً. كان الماء قد انسحب وترك على الجدار خطاً بنياً يمتد عبر موضع الملصقات. رفعت أنجل صندوق الملفات السليمة، ثم توقفت عند

كرسي صغير في غرفة الانتظار. عليه كان صابر يجلس في الأيام التي يعجز فيها عن الوقوف طويلاً. أرسلت إليه تسأله إن كان يستطيع مساعدتها في ترتيب الأسماء، فجاء في اليوم التالي يحمل كيس خبز. كان يمشي ببطء، لكن تنفسه صار أهدأ. أخذ الكرسي إلى العربة بنفسه، ثم جلس عليه ليستريح قبل حمل الصندوق الثاني.

في العيادة الجديدة خصصت أنجل ساعة كل أسبوع لمن أصيبوا ليلة الإغراق. بعض الجروح أغلقت، وبقيت أجساد تستيقظ على صوت ماء لا يوجد. جاء الطفل الذي حمله أيوب وهو يرفض أن يخلع حذاءه، وقالت أمه إنه ينام به منذ تلك الليلة. أجّل الطبيب فحص قدمه حتى جلس ولعب بخيط الضماد. زارهم أيوب بعد ذلك، وترك للطفل صورة القطط التي نقلها في السيارة. كانت القطط عند صاحبتها، وقد كبرت الصغيرة التي اختبأت تحت المعطف. أخذ الطفل الصورة وسأل إن كان يستطيع أن يراها. رتبت أمه الزيارة، وبقي الحذاء في قدمه تلك المرة أيضاً.

جُمعت تكاليف الإصلاح والعلاج في سجل مستقل. أصر يوسف على أن تُقيّم أضرار المغسلة كما تُقيّم أضرار بقية البيوت، وألا يُقدم ملفه لأنه آوى ألوكارد. حين تأخر التقييم ذهب بنفسه إلى المكتب ورفع صوته حتى استمع الموظف إليه. في المساء قال لألوكارد إنه سيشكو

التأخير غداً إلى المسؤول التالي. أراد ألوكارد الاتصال ليُعجّل به، ثم سأل عن عدد الملفات المتأخرة كلها. خرج من السؤال عمل أطول: إرسال مقيمين إضافيين ونشر ترتيب الطلبات، بما فيها طلب يوسف. أخذ الرجل موعداً واضحاً، وعاد إلى المغسلة غاضباً على نحو أقل عجزاً.

في دار الحساب جلس ممثلو الأحياء والعمال والعشائر إلى الأقدمين. بدأ الخلاف على من يحق له الكلام، وامتد أياماً، كثرة البشر تقلق بعضهم، وطول أعمار المصاصين يقلق آخرين يخشون بقاءهم في المقاعد إلى الأبد. كان يوسف يغادر ليتابع إصلاح المغسلة، ثم يعود صباحاً ويطلب قراءة ما أُقر في غيابه.

اقترحت دانية مجلساً انتقالياً من اثني عشر عضواً، أربعة من كل جماعة تختارهم تجمعات الأحياء والعشائر. ينسق ألوكارد التنفيذ وحماية الطرق لسنة واحدة. اعترض أحد الأقدمين بأن البشر يجهلون إدارة الدم. قالت أنجل إنهم يعرفون مقدار ما يخرج من أجسادهم، وهو ما يكفي ليجلسوا عند المائدة. ضحك بعض الحاضرين، وبقي الرجل ينظر إلى النص.

أضافت كنزة نهاية تلقائية للولاية في يوم محدد، من غير طلب أو تصويت. قالت إن الورشة لا تنتظر أن يقتنع المستأجر بانتهاء العقد كي يستعيد صاحبها المفتاح. اعترض أحد ممثلي الطريق بأن الخطر قد يبقى.

أجابت بأن المجلس سيختار من يدير ما بقي، وأن الخطر الذي لا ينتهي هو حجة كل حاكم عرفوه. طلب يوسف أن يُكتب عدد الأصوات اللازمة للعزل بالأرقام والحروف: ثمانية من اثني عشر. ثم سأل إن كان ألوكارد يستطيع حل المجلس إذا صوّتوا عليه، فضحك رجل عند آخر الطاولة. أصر يوسف على الإجابة حتى أضيف المنع صراحة.

أعاد ألوكارد صفحة فيها عبارة «وما يراه لازماً لحفظ الأمن». حذفتها دانية وحددت صلاحياته، وألزمت المجلس بمراجعة أي إجراء طارئ خلال يومين. قرأ ألوكارد بند إلغاء حق الدم في الحكم وتوريثه، ثم وقّع بعد ممثلي الجماعات. من آخر القاعة طلب صاحب النافذة تعليق نسخة في السوق، حيث يستطيع الناس قراءتها وهم يقضون حاجاتهم.

عُلقت النسخة في السوق والعيادة وتازرون. صار للمدينتين سجل واحد للعبور والعمل، وأزيلت حواجز العشائر. حين مرت أول شاحنة بلا رسم الحدّ، طلب سائقها إيصالاً يثبت أنه لم يدفع؛ خاف أن يطالبه الحارس التالي بثمن يعجز عن إثباته. كتب الموظف ورقة، ثم علّق إعلاناً أكبر عند البوابة.

بعد شهرين سُمعت إفادة ألوكارد بشأن موت وارث وسادن في جلسة مفتوحة. قدمت كنزة قياسات الخزان وصور الضرر، وشهد الحارس الذي حمل المفتاح بالأوامر التي سمعها. أُثبت قرار عزل

سادن وتوقيته قبل القتال، وسُمعت أقوال من دخلوا غرفة التجديد. كان ألوكارد يستطيع أن يبعث بحامٍ أو ممثل، لكنه حضر وجلس على المقعد نفسه الذي جلس عليه ريّان. سُئل عن الطعنات، وعن محاولاته الأخرى، وعن اللحظة التي عرف فيها أن أخاه سيسبب غرقاً أوسع. أجاب حتى انتهت الأسئلة، ثم بقي ينتظر القرار من غير أن يعرف كيف يضع يديه.

خلصت اللجنة إلى أن استعماله القوة وقع لوقف خطر مباشر، وأبقت تقارير الأضرار وشهادات المتضررين في سجل عام، وأوصت بتعويضهم وإزالة إمكان التحكم المنفرد في الخزانات. حين خرج، سأله يوسف إن كان القرار أراحه. قال ألوكارد إنه أراح ما يجب أن يعرفه الآخرون، أما أخوه فما زال يموت في رأسه عند مواضع مختلفة من الليل. مشى يوسف إلى جانبه حتى أول المنعطف، ثم قال إنه يستطيع أن يأتي إلى المغسلة حين يضيق به البيت، بشرط أن يغسل ما يستعمله من أكواب.

افتتحت المغسلة بعد ذلك بأسبوع. كان الطابق العلوي ما زال تحت الإصلاح، والدرج يحمل آثار ماء بلغت الخشبة الثالثة. رفض يوسف طلاء تلك الخشبة وحدها، ثم وافق حين قالت زوجته إنها سئمت أن يوقفها أثر الحريق كلما حملت الغسيل. الكرسي الذي أصلحه عبد

الجليل بقي عند الباب. جاء ألوكارد حاملاً لوحاً جديداً للرف، ووضعه بجوار القديم. وجد يوسف النجار قد أرسل لوحاً مثله، فطلب منه أن يأخذ أحدهما إلى ورشة كنزة. حمله وعاد به في الطريق الذي جاء منه، وشعر أن هذا النوع من الخطأ يمكن احتماله.

في ورشتها كانت كنزة تعمل مع أمينة على ترتيب الأدراج. الرسم الذي بدأه أبوها بقي تحت زجاج على الطاولة، وقد أضافت إليه بالقلم موضع مصباح وآلة صغيرة. أرادت أن تجعلها فوق الرف الذي اختاره، ثم نقلتها لأن الضوء هناك يصل من اليسار ويؤذي عينيها حين تنحني. وقفت تحدق في الموضع الجديد، كأنها تنتظر اعتراضاً. أمينة قالت إن أباها كان سيعيدها مرتين قبل أن يوافق، ثم ناولتها المسمار. ثبتت كنزة المصباح حيث أرادت.

أتى هشام ليطبع بطاقة الورشة. وضع اسمها وحده في الأعلى، وتحت الاسم عبارة عن إصلاح الخشب والآليات القديمة. طلبت أن يضيف اسم أبيها إلى اسم الورشة، ثم محته قبل الطباعة. اختارت أن تكتب على الجدار الداخلي تاريخ عمله في المكان، وأن تحتفظ بدفتره للاستعمال. حين سأل هشام عن ثمن الإصلاح الذي أجرته لآلته، أعطته فاتورة. دفعها وجلس ينتظر الباقي، فضحكت لأول مرة من غير أن تحاول إيقاف نفسها.

في مساء هادئ بعد انقضاء موسم المطر، صعد ألوكارد وأنجل إلى سطح بيتها. كانت تحمل ملابس نشرت بعضها في الداخل وبقيت رطبة، وكان يحمل طبقين نسي أن يضع فيهما الطعام. رأتهما في يده فطلبت منه أن يضعهما على الحافة، وقالت إنهما سيحتاجان إليهما حين يتذكر السبب الذي صعد بهما. علقت قميصاً على الحبل، ثم بقيت تنظر إلى المدينة. أضواء العيادة الجديدة أبعد من القديمة، وقد احتاجت إلى تعلّم طريق مختلف تعود منه ليلاً.

قالت إن في شعرها خصلة بيضاء وجدتها في المرآة صباحاً، وإنها قصتها ثم ندمت لأن ذلك لن يعيد الشعر إلى لونه. ابتسم ألوكارد، فتوقفت عن تعليق الغسيل ونظرت إليه. «أنا أتكلم عن شيء سيستمر. سأكبر، وستتغير يداي ووجهي. وقد أحتاج يوماً إلى من يساعدني على صعود هذا الدرج. أنت تعرف ذلك، لكننا كلما اقتربنا منه تكلمنا عن عمل الغد.»

وضع الطبقين على الأرض وجلس عند الحائط. قال إنه يعرف موت الناس من الخارج، وإن معرفته لا تجعله أقل خوفاً حين يكون الشخص الذي سيغيب هو من يعود إليه كل ليلة. سألته إن كان يفكر في تحويلها. تأخر الجواب، فأبقت عينيها عليه. أقر بأنه فكر، وأنه في الأيام التي ظن فيها أن العيادة ستُقتحم تخيل إعطاءها قوة تجعلها تنجو.

قالت إنها اختارت أن تبقى بشرية، وإن هذا الاختيار يشمل المرض والشيخوخة، لا الأيام الجيدة وحدها. كانت تريد أن تعرف أنه سيتذكره إذا أصابها ما يجعلها عاجزة عن إعادة قوله.

قال إنه سيتذكر، ثم طلب منها أن تكتبه أيضاً مع ما تريد من رعاية حين تحتاج إليها. لن يجعل خوفه صاحب القرار في جسدها. جلست إلى جواره، وأخذت يده التي بقي الحرق فيها أفتح من بقية الجلد. قالت إنها لا تستطيع أن تعده بحياة طويلة، وإن عملهما أصلاً يبدد يقين الناس في هذا النوع من الوعود. تستطيع أن تعده بأنها تريد هذه الحياة معه الآن، وأنهما سيختلفان ويتصالحان ويشتريان ما ينقص البيت، إلى أن يتغير شيء ينبغي أن يتكلما عنه من جديد.

سألته عمّا يخيفه أكثر. قال إنه قد يأتي يوم يسمع فيه صوتها في رأسه ويخطئ في نبرة كلمة، كما صار يخطئ في وجه أخيه الصغير. طال صمتها، ثم قالت إنه يستطيع أن يحتفظ بتسجيلات سخيفة لها وهي تتذمر من المقص المفقود، لكنها لا تريد أن تبدأ حياتها معه كأنها تجهز أثاث غيابها. ضحك وهو ينظر إلى يده، ثم استند برأسه إلى كتفها. بقيا حتى برد البلاط، وبعدها نزل أولاً ليرفع الطعام، فعاد يسأل أين وضع الطبقين.

في أواخر الصيف حُكم على ريّان بحبس طويل عن الاحتجاز والتزوير وجرائم دورياته، وبمصادرة جزء من أمواله للمتضررين. خُففت عقوبته لتعاونه؛ اعترضت عائلة، وعدّ ممثله التخفيف غير كافٍ. وصلت نسخة الحكم إلى ألوكارد مع بريد المجلس، فقرأها حتى نهايتها، ثم تركها مفتوحة على مكتبه.

طلب ريّان زيارته بعد أسابيع. ذهب ألوكارد إلى دار الاحتجاز، وجلس على الجانب الآخر من مائدة ثبتت قوائمها بالأرض. كان ريّان قد فقد عادة الوقوف عند دخول من هو أعلى رتبة؛ نهض نصف نهضة ثم جلس، وشعر كلاهما بالحركة. قال إنه عثر في ذاكرته على اسم موضع نُقل إليه عاملان، وإنه كتب للمحقق لكن الرد تأخر. أخذ ألوكارد رقم الرسالة، ووعد بأن يسأل عن وصولها، لا عن نتيجتها. بقي بينهما صمت سمعا فيه رجلاً يسعل خلف الجدار.

سأله ريّان إن كان يمكن أن يخرج يوماً ليعمل في إصلاح ما خرّبه. أجاب ألوكارد بأن القرار ليس له. ضاق وجه القائد السابق، وقال إنه يعرف الجواب الرسمي. رد ألوكارد بأنه لا يخفي جواباً آخر وراءه. إذا أراد أن يغير هذا الحد حين يتعلق الأمر برجل ساعده، سيجد سبباً لتغييره في كل مرة. نظر ريّان إلى كفيه، ثم دفع إليه ورقة ثانية فيها أسماء أطفال تركهم أصحاب الدوريات عند أقاربهم. قال إن بعض

الأسماء قد يكون خاطئاً. أخذ ألوكارد الورقة وسلمها إلى الموظف قبل خروجه، وطلب وصل استلام يعود إلى صاحبها.

في الطريق إلى البيت مرّ بالمغسلة فوجد زوجة العامل الذي انتظرته طويلاً جالسة عند يوسف. كانوا قد وجدوا سجل دفنه أخيراً، ومعه خاتم نحاسي حفظه عامل المقبرة في ظرف يحمل الرقم نفسه. دفنته الأسرة من جديد قرب أمّه. قالت المرأة إنها عادت إلى العمل، وإنها تفكر في شراء حقيبة أدوات لابن أختها الذي يتعلم إصلاح المضخات. أرادت معرفة نوع جيد يستمر معه. أعطاها يوسف عنوان كنزة، وكتب موعداً تعرف فيه أنها ستكون في الورشة. حين خرجت قال لألوكارد إن المرأة سألته عن الحكم على ريّان، وإنه قرأ لها الخبر كما ورد، ثم شربا الشاي من غير أن يجدا رأياً يستطيعان أن يتفقا عليه.

في المساء دخل ألوكارد غرفة الأشياء التي احتفظ بها. فتح علبة القماش، ثم أغلقها وأعادها إلى الرف. كانت أنجل قد تركت قائمة مشتريات على الطاولة، وفي آخرها طلبت أن يختار كوبين لأن أحد الكوبين القديمين تشقق عند القاعدة. أخذ القائمة وخرج إلى السوق قبل إغلاقه. أمضى وقتاً أطول مما يلزم أمام الأكواب، وانتهى باختيار اثنين مختلفين؛ يعرف أنها ستختار الأخف، وأنه سيستطيع تمييزه حين يضعه خطأ بين أدواته.

في الشهر الحادي عشر نُشر موعد انتهاء ولايته. ثمة من طلب تمديدها لأن القضايا لم تنته، وثمة من أراد إخراجه قبل الموعد لأن قرارات التعويض أزعجت أصحاب أملاك. حضر ألوكارد جلسة المجلس وأعطى تقرير العمل، ثم خرج قبل مناقشة من يخلفه. كانت سلطته قد صارت شيئاً يمكن أن يتنازع الناس على جدواه من غير أن يهدد ذلك أعمارهم. بعد أسابيع اختيرت هيئة تنفيذ من ثلاثة أعضاء لمدة محددة، وأُسندت حماية الطرق إلى قيادة تخضع لها. بقي لألوكارد أن يعمل معها إذا طلبت مساعدته، وفق التكليف نفسه الذي يُعطى لغيره.

في اليوم الأخير وضع مفاتيح المكتب في ظرف وسلمها إلى الموظفة. سألته عن مفتاح الخزانة الصغيرة، ففتش جيوبه وأخرج حلقة وارث ثم أعادها بسرعة إلى الداخل. وجد المفتاح في جيب آخر مع قطعة سكر مفتوحة. مسحه بمنديل، وتركه فوق الظرف. ضحكت الموظفة وهي تسجل التسليم، وطلبت منه توقيع الصفحة الأخيرة. حين خرج من دار الحساب تبعه حارس اعتاد مرافقته. توقفا عند الدرج؛ تذكر الحارس انتهاء التكليف، فرفع يده مودعاً وعاد.

مر ألوكارد على رحمة، فوجدها تعدل خريطة قديمة فوق طاولة في ظل حانوتها. شطبت موضع الحاجز الذي أزيل، وأضافت جسراً صغيراً أقيم فوق المجرى بعد إصلاحه. قالت إن أسماء الطرق تتغير أسرع من

قدرتها على حفظ النسخ، وإنها ترفض أن تكتب اسم حاكم جديد على طريق كلما مات القديم. اشترى منها نسخة ودفع ثمنها قبل أن تطلبه. في الطريق إلى الورشة لقي صاحب النافذة، الذي أمسكه من كمه وقال إن النافذة التي أصلحها صارت أفضل من الباب، وإن الباب يحتك بالأرض منذ الشتاء. اتفقا على موعد. كتب ألوكارد الموعد على ظهر الخريطة، ثم طلب من الرجل أن يريه العنوان مرة أخرى.

وصل إلى كنزة قرب المغرب. كانت تصلح درجاً صغيراً، وأنجل تجلس عند النافذة تقرأ ملفاً أخذته من العيادة. على الرف الداخلي علبة ريّان، وقد وضع ألوكارد فيها نتفة القماش والمشبك الفضي، وإلى جوارها لعبة سيرين الخشبية. احتفظ بحلقة الحزام في صندوق منفصل، لأنه كلما جمعها بالأشياء الأخرى شعر أنه يحاول ترتيب قرون لا تقبل الترتيب. أعطى كنزة خريطة رحمة، ثم وضع الخاتم الذي يحمل علامة بيت أمه في درج الأوراق، صار شيئاً يجب حفظه جيداً، بعد أن انتهى استعماله في الحكم.

سألته أنجل كيف كان آخر يوم، فقال إنه أقصر من الأيام التي سبقته. عاد إلى المنضدة يبحث عن المسطرة التي يحتاج إليها لقياس باب الرجل. رفع خرقة، ونظر تحت دفتر، وفتح جيب معطفه فوجد المسمار الذي طلبته كنزة منه قبل أسبوع. وضعه أمامها باعتذار،

واستمر يبحث. قالت إن المسطرة في يده. نظر إليها، ثم إلى يده، فضحكت أنجل حتى وضعت الملف على ركبتيها.

من الشارع جاء صوت إدريس ينادي على العامل ليحمل صندوقاً من السيارة، وصوت يوسف يحتج على دراجة تركت أمام المغسلة. فتحت كنزة النافذة لتدخل آخر نسمة قبل الليل. كان عليها أن تدفعها قليلاً عند المفصل، فتقدم ألوكارد ليصلحه، لكنها أشارت إلى الباب الموضوع على الحامل: عليه أن ينهي هذا أولاً.

ثبت الخشب بيده، وقاس الموضع مرتين. خلفه وضعت أنجل ماءً يغلي، وفي الجهة الأخرى كانت كنزة ترسم بالقلم خطاً جديداً فوق رسم أبيها. بحث ألوكارد عن القلم الذي كان إلى جوار المسطرة، ثم رفع رأسه يسأل عنه. ناولته كنزة قلماً من درج مفتوح، واستمرت في عملها.

بقي الباب مفتوحاً إلى أن انتهوا.

الفهرس

المحتويات	الصفحة
الإهداء	2
المقدمة	3
الجزء الأول — الدم الكامن	**5**
الفصل الأول — الأضعف	6
الفصل الثاني — حكاية الأم	15
الفصل الثالث — الفحص	23
الفصل الرابع — الموضع المحرّم	30
الفصل الخامس — الهجوم	38
الفصل السادس — الانكشاف	47
الفصل السابع — سقوط البيت	55
الفصل الثامن — الرفض الثاني	67
الجزء الثاني — المرمّم	**80**
الفصل التاسع — المدينة الآن	81
الفصل العاشر — كنزة	92
الفصل الحادي عشر — ما تركه الرجل	103
الفصل الثاني عشر — تحت الماء	113
الفصل الثالث عشر — ليلة الحريق	124
الفصل الرابع عشر — الختم	135
الفصل الخامس عشر — ما لا يصلح إخفاؤه	147
الفصل السادس عشر — الحملتان	160

الفهرس

المحتويات	الصفحة
الجزء الثالث — عرشان يخافانه	**175**
الفصل السابع عشر — المطاردة	176
الفصل الثامن عشر — اسم الأم	187
الفصل التاسع عشر — الأخوان	199
الفصل العشرون — الجماعة	209
الفصل الحادي والعشرون — الأب المفقود	219
الفصل الثاني والعشرون — التفاهم الخفي	231
الفصل الثالث والعشرون — الفرصة الأخيرة	241
الفصل الرابع والعشرون — الخسارة	251
الجزء الرابع والأخير — ما يبقى من الليل	**264**
الفصل الخامس والعشرون — أسماء تحت الركام	265
الفصل السادس والعشرون — أصل العهد	277
الفصل السابع والعشرون — المدينة بين البابين	289
الفصل الثامن والعشرون — آخر ما يملكه الأخ	300
الفصل التاسع والعشرون — صاحب الوصاية	313
الفصل الثلاثون — ما يبقى من الليل	328

بعض الأسرار تعيش أطول من أصحابها.

نشأ ألوكارد في عشيرة تقيس أبناءها بقوة التحوّل. وكان نصيبه أن يضيّع أشياءه، ويتعثّر في تدريبه، وينتظر القوة التي تأخرت عنه. وحين استيقظ دمه أخيراً، صار وجوده خطراً على الذين ربّوه.

بعد قرون، يحاول أن يصنع لنفسه حياة عادية بين أناس لا يعرَفون عمِره. لكن اختفاء رجل وظهور أثر قديم يعيدان فتح الطريق إلى ماضٍ دفنه ملكان، وإلى حرب ما زال الأبرياء يدفعون ثمنها.

بين قصبات عتيقة وأنفاق تخفي عهود الدم، يخوض ألوكارد مغامرة لكشف ما جرى، وحماية من تورَّطوا معه. وكلما اقترب من الحقيقة، صار عليه أن يسأل نفسه: ماذا سيفعل بالقوة التي خافها فيه الجميع؟

